شريف عبد الرّحمن جاه

لغز الماء في الأندلس



ترجمة

د. زينب بنياية

نبذة عن المؤلّف:

الأستاذ شريف عبد الرّحمن جاه (مواليد 1944)، إسباني من أصل مغربي، من مواليد مدينة «الجديدة»، متخصّص في العلوم الإنسانية وخبير في الإسلاميات، يشغل منصب رئيس مؤسّسة الثقافة الإسلامية بمدريد، وهي منظمة علمية ثقافية تسعى إلى التّعريف بالحضارة الإسلامية في أوروبا وإحياء الإرث التاريخي والفنّي الإسلامي في الغرب. له رصيد لا يستهان به من المقالات والإصدارات، نذكر من بينها «عطور الأندلس»، و «الإسلام: إرثٌ للجميع».

نبذة عن المترجمة:

د. زينب بنياية، من مواليد مدينة تطوان (المغرب)، مُجازة في اللغة الإسبانية وآدابها من جامعة عبد المالك السّعدي بتطوان (1997)، وحاصلة على درجة الدكتوراة في اللغة الإسبانية (فرع اللسانيات)، من جامعة غرناطة بإسبانيا (2006). عملت كمترجمة معتمدة لدى وزارة الداخلية لعدّة سنوات، وتعمل حالياً لدى وزارة العدل الإسبانية. شاركت في إعداد وتنسيق عدّة مناهج لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وبرامج لتعليم اللغة الإسبانية للأجانب. كما شاركت في إعداد وإدارة عدّة ورشات للتّرجمة المتخصّصة، من ضمنها ورشات للتّرجمة الأدبية. صدرت لها عدّة مقالات في هذا الصّدد باللغتين العربية والإسبانية.

لغز الماء في الأندلس

يكشف هذا الكتاب الصادر عن «مؤسسة الثقافة الإسبانية» (2011)، النقاب عن لغز الماء في الأندلس، الذي ما زال بعض من جوانبه يشكل «لغزاً» حقيقياً يحير الدارسين، وبذلك كان العنوان بالغ الدقة بالنسبة للباحثين والمهتمين. وهو يسلط الضوء على الدور الذي مارسته الثقافة العربية - الإسلامية في ترسيخ ثقافة الماء وتطوير كيفية الإدارة والاستغلال النموذجي لهذا المورد الأساسي بإسبانيا، الشأن الذي لم يكن ليتسنى دون السياسات والنُظم التي انتهجها المسلمون على مدى ثمانية قرون من تواجدهم بالأندلس، ما بين القرن الثامن والخامس عشر للميلاد. ولعل تحويل الأراضي التي كانت جرداء في ذلك الوقت إلى جنان ورياض على صورة ومثال رياض الجنة، لطالما تغنّى بها الشعراء والأدباء، كان من بين أعظم ما حققته الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومن نافلة القول إن السياسات المائية المنتهجة في عدة مؤسسات ومناطق إسبانية إلى يومنا هذا تجد أصولها في فترة التواجد العربي بالمنطقة، نذكر من بينها «محكمة المياه في بلنسية» و«مجلس الحكماء».

ويبرز الكتاب أيضا الأهمية البالغة التي يكتسيها الماء في القرآن الكريم والثقافة الإسلامية بوجه أشمل، بوصفه هبة ربانية تجسد الحياة والنقاء، وبالتالي فهي ليست لأحد بعينه، بل ملكٌ مشاع ينبغي أن يوزع بالقسط بين من يحتاجون إليه، وهو ما يفسر تطور بنية تحتية مهمة في الأندلس لتوفير خدمة الماء في المرافق العمومية، ومجانيته كذلك. ولذلك كان تزويد المدن بهذا المورد أحد أكبر هموم الملوك الأندلسيين، بجلبه عبر قنوات، ليجري في الأسبلة العمومية وينتفع به عامة الناس. وإن كان هذا المفهوم المرتبط بطهارة الروح والبدن، لاحقا، سيختلط بأفكار أخرى جمالية وحتى شاعرية، متمظهراً في «هندسة الماء»، التي ملأت الأندلس بقصور كأحلام الخيال، تبتعد نوعاً ما عن المفهوم الأصلي الذي انبثقت عنه. وجدير بالذكر أن العرب والبربر عندما دخلوا إسبانيا في القرن الثامن الميلادي وجدوا إرثاً مهما من البُنى التحتية والقنوات الرومانية والجسور، إلا أنها كانت في حالة تهالك وتدهور حقيقيين. فكانت، بذلك، للمستوطنين الجدد اليد الطولى في تطوير ذلك الإرث، بالاعتماد على تقنيات جديدة شملت بناء السدود وأنظمة لحصر ورفع المياه، لاستخدامها في الري.

من جهة أخرى، ولتوثيق هذا التاريخ، يعرض الكتاب أكثر من سبعين صورة أصلية للمصورة إينيس إيشبورو، التي جالت الأراضي الإسبانية باحثة عمّا تبقّى من الآثار الهدروليكية من خزانات وسواق ونواعير يعود تاريخ إنشائها إلى العرب. كما يشير المؤلف إلى أن القاموس الإسباني يشتمل على نحو 30 في المئة من المصطلحات العربية المتعلقة بالماء واستعمالاته، والتي بقيت حية في اللغة الإسبانية إلى يومنا هذا، ويُدرج مسرداً مختصراً لأهم هذه المصطلحات مع أصولها.

«لغز الماء في الأندلس»، رحلة بين أسرار أسلافنا الأندلسيين، الذين أرسوا دعائم ثقافة وهندسة للماء، أذهلت العالم، وجعلت من الأندلس جنة على الأرض، وفردوساً تبكي المراثي فقدانه.








9 789948 173724

لغز الماء
في الأندلس

شريف عبد الرّحمن جاه

تصوير
إينيس إليشپورو

توثيق
مارغاريتا لوپيث

ترجمة
د. زينب بنياية

مراجعة
د. أحمد إيبش

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة

DP103 .A312 2014
Abderrahman Jah, Cherif.
[Enigma del agua en Al-Andalus]
لغز الماء في الأندلس/ شريف عبد الرّحمن جاه؛ تصوير إينيس إليشپورو؛ توثيق مارغاريتا لوپيث ؛ ترجمة زينب بنياية؛ مراجعة أحمد أيبش .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 247 ؛ 25×29,5 سم.
ترجمة كتاب : El enigma del agua en Al-Andalus.
تدمك: 978-9948-17-372-4
1- إسبانيا - تاريخ - 711-1516.
2- المسلمون في إسبانيا- تاريخ.
3- الحضارة الإسلامية- إسبانيا.
أ- Eléxpuru, Inés.　　ب- López, Margarita.
ج- بنياية، زينب.　　د- أيبش، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني:
Dr. Cherif Abderrahman Jah
El enigma del agua en Al-Andalus



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



لغز الماء
في الأندلس

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(القرآن الكريم، سورة النّحل، 10–11)

لطالما كانت الأنهار والبحيرات والواحات مهداً لحضارات عظيمة. عنصرُها ماءٌ يوحّد ويُثري عندما يكون مصدراً متقاسَماً، وماء يفرِّق ويُفقر عندما يكون موضوعاً للنّزاع.

بالنسبة لليونان القديمة، كان للماء مضمون فلسفي مهمّ: لقد اعتبره الماقبل سقراطيون أحد عناصر سلسلة الخلق، وقورن بالصَّيرورة المتدفّقة دائماً. وقد مثلّته مصر الفرعونية مرموزاً بالإله «نيل»، الرّهيب والسّخيّ في الآن ذاته، بفيضاناته العظيمة. وقارنه الطّاويون بالسّلوك المثالي: فهو يتكيّف مع طيّات الأرض، وفي نفس الوقت، يتوغّل في كل شيء.

بالنّسبة للعالم الإسلامي، الماء هِبة رَبّانية، ولكنه أيضاً يعني الحكمة العميقة والطّهارة، وبامتياز، الشّراب الذي يطفئ ظمأ الرّوح.

صدر «لغز الماء في الأندلس» للمرّة الأولى عام 1994. إنّ قيمة مضمونه، حول موضوع يتميّز بالأهمّيّة البشرية والاجتماعية والاقتصادية كالتي يكتسيها موضوع الماء، جعلته يُتلقَّى باهتمام كبير، ليكون مرجعيّةً لدراسة الهندسة المعروفة والتّراث اللّامادّي لتلك الحقبة. كانت الأندلس، قبل كل شيء، «ثقافة الماء»، التي عرفت كيف تقدِّره وتدبِّره بشكل مثالي.

من خلال الإصدار الجديد لهذا الكتاب، الذي يندرج في إطار تخليد المئوية الثّالثة عشرة، في عام 2011، لمبدأ تاريخ الأندلس، تسعى «مؤسّسة الثّقافة الإسلامية» إلى تكريم أولئك الرّجال والنّساء الذين درسوا، عبر التّاريخ، أسرار الطّبيعة واجتهدوا في الحفاظ العادل على الماء كمنبع للحياة وتراث للإنسانية. فلّاحون، مزارعون، حرفيون، عُرفاء، أو قنّاؤون بكل بساطة، بقيت أصواتهم الحكيمة خالدة لصالح الأجيال المقبلة.

ولكن، مع الزّمن، نسي الكائن البشري أهمّيّة هذه النّعمة النّادرة والضّرورية، وأساء استغلالها، دون أن يتنبّأ بتضاؤل مخزون المياه العالمية والموت التّدريجي بسبب تلوّث البحار والأنهار. وذلك برغم العدد الكبير للوثائق والاتفاقيات والشّرائع الدّولية التي تعترف بحقّ الماء كحقّ إنساني أساسي، ضروري لصحّة البشر وكرامتهم.

بوجه خاص، كان الحوض المتوسّطي، وهو مستودع العديد من الثّقافات الألفية، خلال السّنوات الأخيرة، موضوعاً لاهتمام مؤسّساتي خاص، إلا أنّ الوضعيّة البيئية لهذه المنطقة وتدهورها يكتسبان خطورة شديدة، بحيث أن جميع التّدابير من أجل حمايتها وتحسينها ستبقى قاصرة ما لم يكن تطبيقها فورياً.

إنّ استحضار الإدارة الحكيمة للماء وتثمينه، من قبل من سبقونا في التّاريخ، برأينا، يمكن أن يسهم في رفع تقديرنا لهذا المورد الطّبيعي الثّمين. أريد أن أذكِّر في هذا الصّدد بكلام كريستينا ناربونا Cristina Narbona، في تقديم ذلك الإصدار الأول، بصفتها سكرتيرة الدّولة للبيئة والسّكن: «الكلمات التّالية عرض تاريخي لعلاقة الإنسان بالماء في زمن وثقافة مُعيَّنين. ولكن يمكن قراءتها أيضاً كأمر يتجاوز مجرَّد السّرد التّاريخي، ذلك أن المشاكل التي تصفها، بشكل ما، إنما هي مشاكلنا، وإن كانت بأبعاد مختلفة جداً».

«مؤسّسة الثّقافة الإسلامية»، من خلال برنامجها «**ميد أُو ميد. Med-O-Med مشاهد ثقافيّة من المتوسّطي والشّرق الأوسط**»، لا تسعى فقط إلى التّعريف وحماية ذلك الإرث بأكمله، وإنما أيضاً إلى انخراطها في مكافحة تدهور هذا العنصر، باتخاذ أشكال معقولة ومسؤولة لاستغلاله، ومتوافقة مع الزّمن الرّاهن، من المنظور المؤسّساتي فضلاً عن الفردي.

شريف عبد الرّحمن جاه

رئيس مؤسّسة الثّقافة الإسلامية

الفهرس:

الفصل الأول: على خُطى الإمبراطورية

الفصل الثّاني: الماء المقدس

الفصل الثّالث: المياه الخفيّة والتّقنيات السّحرية

الفصل الرّابع: الوظيفة الاجتماعية للماء

الفصل الخامس: جمالية البُعد الرّابع

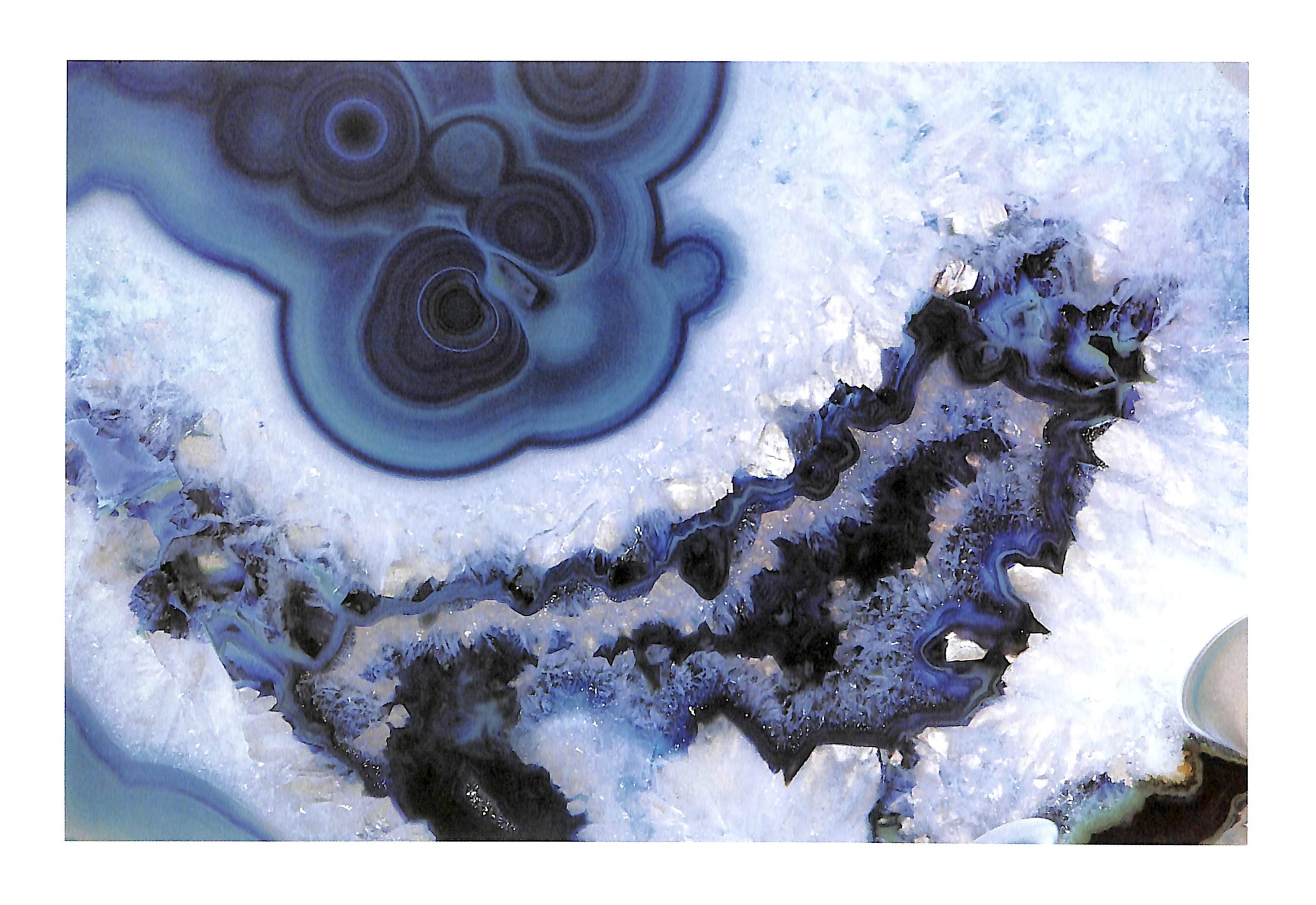
الفصل السّادس: تيارات وسواقٍ في المشهد الأندلسي

الفصل السّابع: توزيع الماء والتّقنيات المتنوعة

الفصل الثّامن: مصطلحات حول علم المياه

الفصل التّاسع: الماء في العُرف الزّراعي الأندلسي

الفصل العاشر: فراديس الأندلس المفقودة



«... بداية الكون كانت بالماء». حجر العقيق ببلورات تشبه زبد البحر.

الفصل الأول

على خُطى الإمبراطورية

أساطير وتقنيات آليّة للماء

في العصر الكلاسيكي القديم، اعتُبر الماء مصدراً لكل الأشياء. كان الفيلسوف جونيو طاليس دي ميليتو Jonio Tales de Mileto، وهو ماقبل سقراطيّ ينتمي إلى القرن الرّابع ق. م.، يقول بأن بداية الكون كانت بالماء، وبأنّ الأرض كانت تطفو فوق الماء كجزيرة صغيرة، محاطة تماماً ببحر لا حدود له ولا قعر. وكان الماء، بالنّسبة لطاليس دي ميليتو، بداية الحياة لكل ما هو حيّ.

وكذلك فإنّ الهمّ الفلسفي من أجل استجلاء طبيعة المادة أو تجسيد الآلهة المائية يُبرز لنا كيف كان الماء، عبر التّاريخ القديم، في الأساطير الشّرقية والهيلّينية يحتل مكاناً في غاية الأهمّيّة.

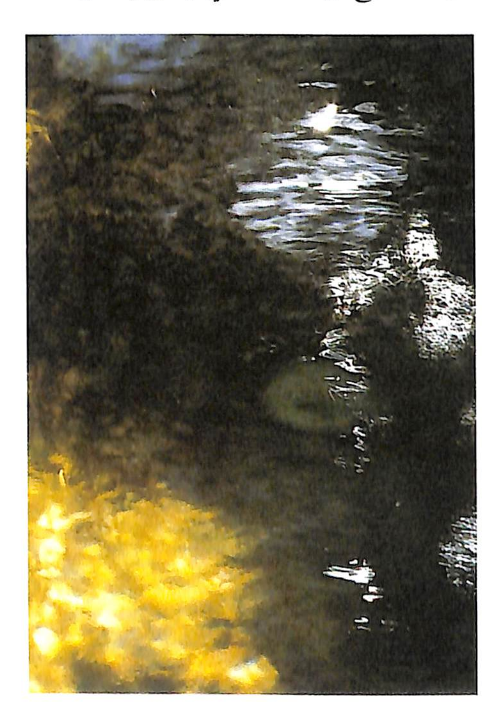
احتلّت آلهة الماء في هيكل الآلهة الإغريقية والرّومانية مكاناً بارزاً: الإله الإغريقي پوسيدون Poseidón (وهو نپتونو Neptuno الرّوماني)، الزّعيم المطلق للمحيطات والبحار، الإغريقية أفروديتا Afrodita (أو ڤينوس Venus الرّومانية)، إلهة الحب والجمال، التي ولدت من زبد البحر، أو «النّيادات» náyades، بنات زيوس Zeus، حوريات الأنهار والجداول والعيون، اللائي كنّ يخرجن من الماء في الليالي المُقمِرة للرّقص، متوّجات بالزّهور، بين أشجار الغابات.

وينبغي ألّا ننسى أخواتهن من البحر، النّاريدات، بنات نيريو Nereo، اللائي كن يُحدِثن الحركة الخفيفة للأمواج ويعشن في قصور تحت البحر. إحدى هؤلاء النّاريدات، تيتيس Tetis، كانت هي أمّ البطل الإغريقي أخيليس Aquiles. وعندما كان طفلاً، غسلته أمه في بحيرة إستيغيا Estigia، وهي التي تمنح مياهُها الخلود. وقد أمسكتِ الإلهة بابنها من كعبه لكي تغطّسه في الماء، ومن جرّاء ذلك لم يبتلّ كعب أخيليس، وبقي دائماً عُرضة للخطر. وبذلك، عندما أصيب هذا الأخير في ذلك المكان خلال حصار طروادة، مات، رغم أنه كان يُعدّ نصف إله.

إلّا أن هذا العالم الأسطوري والشّاعري، الذي كانت تمثله الأساطير الهيلّينية، عند انتقاله في القرن الرّابع ق. م. إلى روما، لا شكّ سيفقد أساطيره ويتشبّع بالطّابع النّفعي والنّثري للدّيانة الرّومانية. لقد ورثت روما الأسطورة، ولكنها في الوقت ذاته، ورثت «الجمهوريّة»، ولاحقاً، الإمبراطورية الرّومانية التي نقلت إليها بالأساس طابعاً عملياً وواقعياً قبل كل شيء.

لقد استعملت الإمبراطورية الرّومانية الأسطورة لتحقيق ولاء مواطنيها، بتنظيم الاحتفالات

انعكاسات على سطح الماء. في الليالي المقمرة، كانت النّيادات تخرج من الغدران لكي ترقص في الظّل.



الطّقسية الكبرى تحت إشراف هيئة كهنوتية وفيرة العدد، أو هيئة الأحبار Pontífices، والمصطلح مصدره Pons (جسر) وFacere (صَنَعَ)، ولربما كان مَرَدُّ نشأته إلى تشييد الجسر الخشبي الشّهير على نهر التّيبر Tíber.

عشقت روما التّقنية، فوق كل شيء، إذ بها كان يتسنّى تحقيق الإنتاج والسّلطة. لقد كانت وريثة للتُّراث الثّقافي المتوسّطي بأكمله، وبشكل أساسي، للثّقافة الهيلّينية التي نقلت إليها العديد من الإنجازات التّقنية، كطاحون الهواء وآليات رفع الماء.

خلال القرون الأولى للإمبراطورية الرّومانية، حدث تطور مهمّ في التّقنية، كما تثبت لنا ذلك أعمال «ڤيتروڤيوس» Vitruvius (De Architectura «عن العمارة»)، و«ديون كاسيو» Dión Casio، و«ديودوروس» Diodoro، و«پلينيوس الأكبر» Plinio el Viejo.

بإعجاب كبير، يصف لنا «ديون كاسيو» (كاسيوس ديو) بناء الجسر الذي أمر الإمبراطور «تراجان» Trajano بتشييده على الدّانوب:

> «يشتمل الجسر على عشرين عموداً من الحجر المستطيل... منتظماً، يقع كل عمود من الآخر، على مسافة سبعين قدماً، وموصولاً بأقواس... كيف لا ننبهر بالطّريقة التي بُنِي بها كل عمود وسط نهر غزير الدّفق، خطِر بسبب الدّوّامات المائية والقعر غير المستوي؟ يجب أن نأخذ بالاعتبار أنه لم يكن بالإمكان تغيير منحى التّيّار».

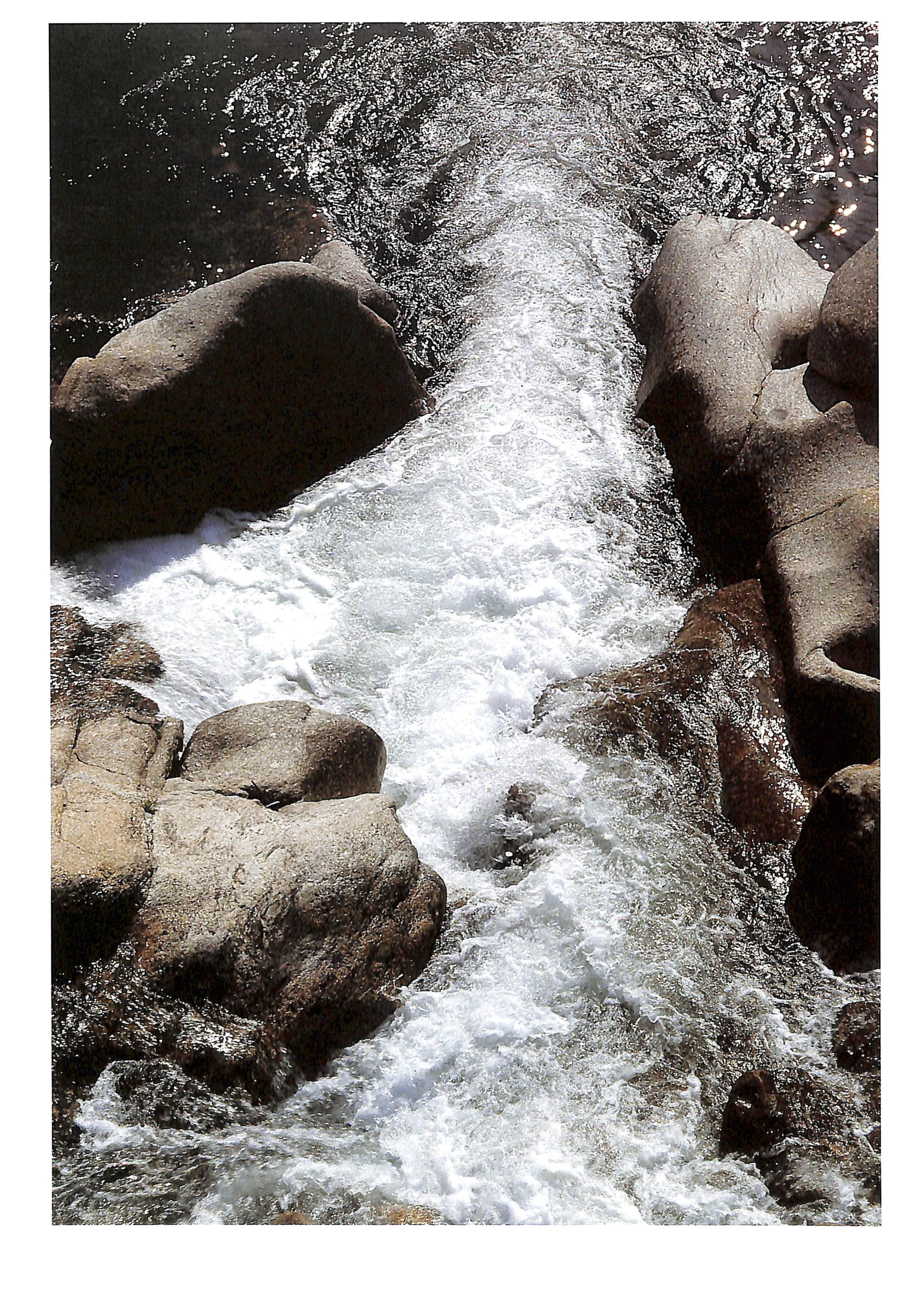
كل هذه الشّهادات من المصادر الأدبيّة تجد تأكيداً لها في العدد الكبير لآثار المباني الرّومانية التي ظلّت محفوظة، والتي تدهشنا اليوم لأحجامها المهمّة والإتقان في التّقنية.

إيبيريا: مطمح إمبراطورية

لقد تم غزو شبه جزيرتنا الإيبيرية، إيبيريا القديمة، من قِبل الإمبراطورية الرّومانية في القرن الثّالث ق. م.، وأُطلق عليها اسم «هِسپانيا» Hispania. وقد أخذ الرّومانيون بها الهيمنة المتوسّطية من القرطاجيين، الذي كانوا قد قدِموا من الأراضي التي هي اليوم عبارة عن أراضي تونس، بحثاً عن معقل استراتيجي – عسكري.

لكن هاهنا فشلت مطامحهم التّوسّعية، فهُزِموا، وأفسحوا الطّريق أمام روما، التي فرضت ثقافتها ونظامها الإمپريالي على القبائل السِّلتية – الإيبيرية. لكن ليس دون عناء، إذ أن حروب الاستعمار دامت إلى غاية سنة 19 ق. م.، التي تحقق فيها السّلم النّهائي لِهِسپانيا (= *Provincia*

«لا بيرا» (إكستريمادورا). سَيل.



pacata منطقة مسالمة).

أولت الإدارة الرّومانية عناية كبيرة بالبنية التّحتية للتّواصل وتزويد جيوشها، الموزَعة بين جميع أقطارها في المتوسّط (*Mare nostrum* أي «بحرُنا») وأراضي أوروبا القارّيّة.

وكما في باقي المناطق، تم في «هِسپانيا» إنشاء العديد من المباني العمومية: طرق، موانئ، جسور، قناطر مائية، سدود، حمّامات، إلخ، كانت تتيح تحقيق رفاهية الحاضرة، وكذلك في معسكرات الجيوش والمدن الإسپانية - الرّومانية.

كان من الضّروري تزويد هذه المدن والمعسكرات بالماء الوفير، ليس فقط للاستهلاك، وإنما أيضاً للحامّات، التي لم يكن للوجهاء غِنى عنها. وأيضاً للينابيع الحضرية التي ستزيّن، بشكل فني، أهم مدن الإمبراطورية وأقاليمها، مثل طَرّاغونا Tarragona (طَرّاكونة)، سيسار - أوغوستا Zaragoza (سَرَقُسطة) و«إميريتا» Mérida (ماردة)، بين حواضر أخرى.

ولهذا الغرض، عرفت الهندسة الرّومانية شخصيات مهمّة مثل لوسيو ڤيتروڤيوس پوليون Lucio Vitrubio Polión وسِكستو فرونتينو Sexto Frontino، وكلاهما من القرن الأول ق. م.، اللذين يتطرّقان، في كتاب De architectura «حول العمارة»، الآنف الذّكر، وكتاب De Aquae Ductu Urbis Romae «حول القناطر المائية في مدينة روما» عن التّقنيات الهيدروليكية وقنوات الماء.

ولكن كلّاً من «ڤيتروڤيوس» و«فرونتينو» كان وريثاً لتطورٍ في التّقنية الهيدروليكية سابق بكثير. منذ أوپالينوس دي ميغارا Eupalinos de Mégara (اليونان)، الذي زوَّد مدينة ساموس بالماء، في القرن الرّابع ق. م.، إلى غاية «مدرسة الإسكندرية» (مصر)، في القرن الخامس ق. م.، مع علماء مثل أكيتاس Aquitas، إقليدِس Euclides، أرخميدِس Arquímedes، كتيسيبيوس Ctesibios وهيرون Herón، بوسعنا أن نقول بأن «ثقافة الماء» لم تكن يوماً تُراثاً لحضارة واحدة، وإنما هي إرثٌ متناقَل.

وهكذا، بفضل الرّومان، بدأت تظهر في «هِسپانيا»، وعلى امتداد ترابها، سدود تخزّن الماء، ليوزَّع في وقت الخصاص - ولعلَّ الجفاف آنذاك كان قد صار إحدى سماتنا الأكثر بروزاً. وتستطيع سدود مثل سدّ «پروسرپينا» Proserpina، وسدِّ «ألكانتاريّا» Alcantarilla، و«إسپارَّاغاليخو» Esparragalejo و«كونسويغرا» Consuegra، ولبعضها جدار داعم معزّز بمتراس، ولأخرى حيطان مزوّدة بدعامات على شكل درجاتٍ ما تزال آثارها محفوظة إلى اليوم، أن تعطينا فكرة عن أهمّيّة المنشآت الهيدروليكية الرّومانية.

وقد خلص پونث Ponz، بعد عدّة قرون من ذلك، عند دراسته للدّعامات المدرَّجة التي كانت تظهر في بعض السّدود الرّومانية، إلى الاعتقاد خطأً بأنها مدرَّجات كان يجلس عليها الرّومان لمشاهدة العروض البحرية.

هذا الماء المخزَن في السّدود والقادم من الينابيع والعيون الواقعة في الجبل، كان يُصرَّف عبر قنوات إلى مراكز الاستهلاك، متجاوزاً المنخفضات الأرضية عن طريق القناطر المائية، كقنطرة طَرّاكونة، وميريدا وسيغوبيا. هذه الأخيرة كانت موجودة منذ أواخر القرن الأول من عهد الإمبراطور أوغوستو Augusto. كانت تحمل الماء من جبل «فوينفريا» Fuenfría («وادي الرّمل» Guadarrama) إلى خزّان اسمه «الكاسيرون» El Caserón، وتقطع 16 كلم بواسطة قناة مكشوفة. ومن «الكاسيرون»، ويبلغ علوه سبعة أمتار، تسوق سلسلة الأقواس المزدوجة للقنطرة المائية لسيغوبيا، بعلوّها المدهش، الذي يبلغ 30 متراً عند المنطقة المركزية، الماء إلى موقع القلعة، على امتداد مسافة طولها 800 م.

وكانت قنطرة «لوس ميلاغروس» Los Milagros المائية لميريدا، بثلاثة صفوف من أقواس مستندة إلى أعمدة، تحمل الماء من سدّ «بروسِربينا» (على بعد 5 كلم)، إلى غاية مدينة «إميريتا-أوغوستا» (ميريدا، أو ماردة).

إن ترتيب الصّفوف الثّلاثة للأقواس المتراكِبة وما بين الأعمدة، وكذلك تناوب الحجر والآجر في بنائها، جعلت الكثيرين يتفكّرون بأن «العُرفاء» العرب لمسجد قُرطُبة، بعد ذلك بقرون، كانوا على الأرجح قد عرفوا ودرسوا بعمق التّركيبة المعمارية للقنطرة المائية لميريدا، لنقلها بعظمة أكبر في المسجد القُرطُبي.

«لا ألبوخارّا» La Alpujarra. نهر «تريبيليث» Trevélez. ممرّ من الأحجار.

المنشآت العمومية، التّجارة والرّي

إذا كانت القناطر المائية طريق الماء المصرَّف، فإن الجسور الرّومانية كانت سبلاً للجيوش فوق الماء. فمن خلالها، كان بوسع الكتائب الرّومانية التي كانت تقدم لإخماد ثورة ما للسّكان الأصليين أن تمشي بكل نظام. ولا بدّ أن الجيوش قد عبرت، بنظام تام، نهر الغواديانا El Guadiana و«التّاخو» (التاج) El Tajo، فوق الجسور الرّومانية لميريدا Mérida (ماردة) وألكونيتار Alconétar، أكثر من مرّة، وهي في طريقها لـ «تهدئة» المتمرّدين البُرتُغاليين.

كان لدى جنود روما، إلى جانب خبرتهم العسكرية، تأهيلٌ تقنيٌّ عالٍ في بناء المعسكرات، بل وحتى الطّرق والجسور – مستبقين بذلك هيئة مهندسي الجيش. وفي بعض الحفريات الأثرية، عُثِر على بقايا للآجرّ والقرميد نُقِش عليها رمز لفيلق معين.

أما بالنّسبة للحامَّات والحمّامات العمومية، فوجودها – الذي يسبق روما بكثير من الوقت – يعود إلى القرن الخامس ق. م. في «ديلوس» Delos و«أولمبيا» Olimpia (اليونان).

إلا أن الرّومان كانوا هم من أنشأوا عمارة حقيقية للحامّات، ليس بالاستناد إلى طابعها الصّحّي فقط، وإنما أيضاً إلى الانتشار والعلاقات الاجتماعية. كان مبنى الحامَّة يتشكل من بنية انتشرت في كل المتوسّط: مسبح من ماء بارد أو *frigidarium*، صالة بهواء دافئ تحت الأرضية أو *tepidarium*، صالة أخرى بحمّام من ماء ساخن وبُخار، *el caldarium*؛ وكانت هناك أخرى لخلع الملابس، *el apodyterium*.

حسب أهمّيّة المدينة وأهمّيّة نبلائها، كانت تضاف إلى مجمَّع الحامَّة صالات للتّدليك، والمسح بالزّيت، والاجتماعات – السّياسية والمتآمرة بوجه أو بآخر – وممرّات للتّجول وصالة للتّنشيف: *el laconicum*.

في شبه جزيرتنا، بنيت حامّات كثيرة، كحامّات «كونيمبريغا» Conímbriga (البُرتُغال)، وحامَّة إيطاليكا Itálica (إشبيلية). ما زال بعضها يستخدم إلى اليوم، مثل حامَّة «ألانخِه» Alange (إكستريمادورا)، التي تقدِّم مياهاً علاجية.

لا نستطيع أن نقول بأن الرّومان لم يهتمّوا سوى بالهندسة الهيدروليكية، الموجَّهة بالأساس للاستخدام العسكري والمحيط الحضري الذي كان يشكِّله العسكر. إن الحضارة الرّومانية، النّفعية بالأساس في مساعيها، لم تهمل استغلال الموارد الطّبيعية لأقاليمها. لقد كان استخراج المعادن والإنتاج الزّراعي هدفاً آخر من أهدافها الأساسية في «هِسپانيا»: الذّهب (في مياه إل دويرو el Duero، «لا بيتيكا» La Bética، وفي «أستوريكا» Astúrica)؛ النّحاس في «ريوتينتو» Riotinto، الرّصاص في قرطاجنّة Cartagena، الحديد من «مونكايو» Moncayo، «كنتابريا» Cantabria وطُلَيطُلة Toledo، الزّئبق من «ألمادين» Almadén، وكذلك الإنتاج المهم للقمح، والعنب والزّيتون مع زراعة إقطاعية، وكان له وجهة واضحة: حاضرة روما.

إلى ميناء «أوستيا» Ostia، القريب من مدينة روما، كانت تصل باستمرار السّفن الإسپانية–

الرّومانية وهناك، بين العديد من السّفن الأخرى القادمة من جميع أنحاء «بحرنا» Mare Nostrum، كانت تفرّغ لاستهلاك المدينة الإمپريالية الإنتاج الزّراعي والمعدني الوفير لأكثر أقاليمها غربية: «هِسپانيا» *Hispania*.

لكن، قبل الوصول إلى هذه النّقطة، كان قد تمّ تفعيل آليات، بمساعدة الماء، جعلت هذه الثّروة الإنتاجية ممكنة.

إذ أن «لولب أرخميدس» ومضخة «كتيسيبيوس» لرفع الماء، وبعض أنواع العجلات الرّافعة أيضاً، كانت تستعمل بكثرة، يشغِّلها العدد الكبير من العبيد في مناجمنا الإسپانية. قبل سنوات، تم العثور في المنجم الرّوماني بـ«تارسيس» Tharsis (أويلبا Huelva) على بنية بأربع عشرة عجلة مدرَّجة، بعضها في حالة جيدة، نستطيع اليوم أن نشاهدها في المتحف الإقليمي للعاصمة الأويلبية.

ولا بدّ أن العجلة التي يحرّكها التّيّار المائي، وهي ذات منشأ شرقي قديم أيضاً، كانت شائعة في كل المتوسّط الغربي في أواخر العصر القديم. ونرى سان إيسيدورو دي سيڤيّا San Isidoro de Sevilla (570—636 ق. م.)، في كتابه «الأصول» *Etimologías*، يذكر العجلات المائية الرّومانية كجزء لا يتجزّأ من المشهد النّهري لشبه جزيرتنا.

كان سان إيسيدورو الإشبيلي من عائلة إسپانية – رومانية بارزة، عاش في الفترة القوطية ويمثّل بمعرفته ومضمون أعماله امتداداً للثّقافة اللاتينية – الرّومانية في شبه الجزيرة الإيبيرية قبل وصول المسلمين.

لقد مارس الرّومان في «هِسپانيا» الرّيّ وتوزيع مياه السّقي من خلال قانون نظامي. وكانوا يحتكمون بـ«قانون المياه»، وهو مجموعة من القواعد التي كانت تتضمّن عادات توزيع السّقي، في كل بلدات الإمبراطورية.

هذا النّظام كان قد انتشر في العصر القديم على طول الحوض المتوسّطي جملةً، قادماً من الشّرق الأدنى، فقانون حمورابي (1730—1686 ق. م.) نفسه يتضمّن بعض القواعد حول الرّي.

لكن، وكما يؤكد كارو باروخا Caro Baroja، قليلة هي المعطيات التي وصلت إلينا مباشرة عبر كتابات المؤرِّخين الرّومان أنفسهم، حول الرّي في «هِسپانيا»، عدا بعض التّعليقات لسترابو Estrabón وأخرى لپلينيوس Plinio.

إلا أن سان إيسيدرو الإشبيلي كان أكثر توضيحاً. وفي كتابه «الأصول» سالف الذّكر، يحدِّثنا عن *rivi ad irrigandum*، تدابير الماء، وعن استعمال العمود المرفقي *Ciconia* والعجلات المائية *Las rotae* في الحقول الإسپانية. كل هذا يشير إلى أن نظام الرّي كان يطبّق، بالتّأكيد، في القطع الزّراعية الكبرى لمنطقة «لا بيتيكا» La Bética، خلال الاستعمار الرّوماني ولاحقاً مع القوط.

ويقدّم لنا القانون الرّوماني لأورسو Urso («أوسونا» Osuna) أيضاً، حول السّياسة الإقليمية للمياه، بالإضافة إلى مقتطفات من بعض المخطوطات، كتلك المتعلّقة بأرتشينا Archena (مُرْسِيَة Murcia) ودينيا Denia (أليكانتِه Alicante)، معطيات حول توزيع المياه بهِسپانيا.



سيغوبيا، القنطرة المائية الرّومانية المبنية بالحجر، التي كانت تحمل الماء على امتداد 16 كلم.

«هِسپانيا» أم الأندلس؟: الأرض الموعودة

كان تاريخ «هِسپانيا» منذ العصر الكلاسيكي القديم محاطاً بهالة من الأساطير والغموض. وقد سمّيت في البداية بـ«إيبيريا» Iberia لأن أرضها تضم نهر إيبيرو Ibero (إيبرو Ebro) العظيم، ويحكى أن أول سكانها كان ابن توبال Tubal، ابن يافث Jafet، وبالتّالي ابن نوح Noé.

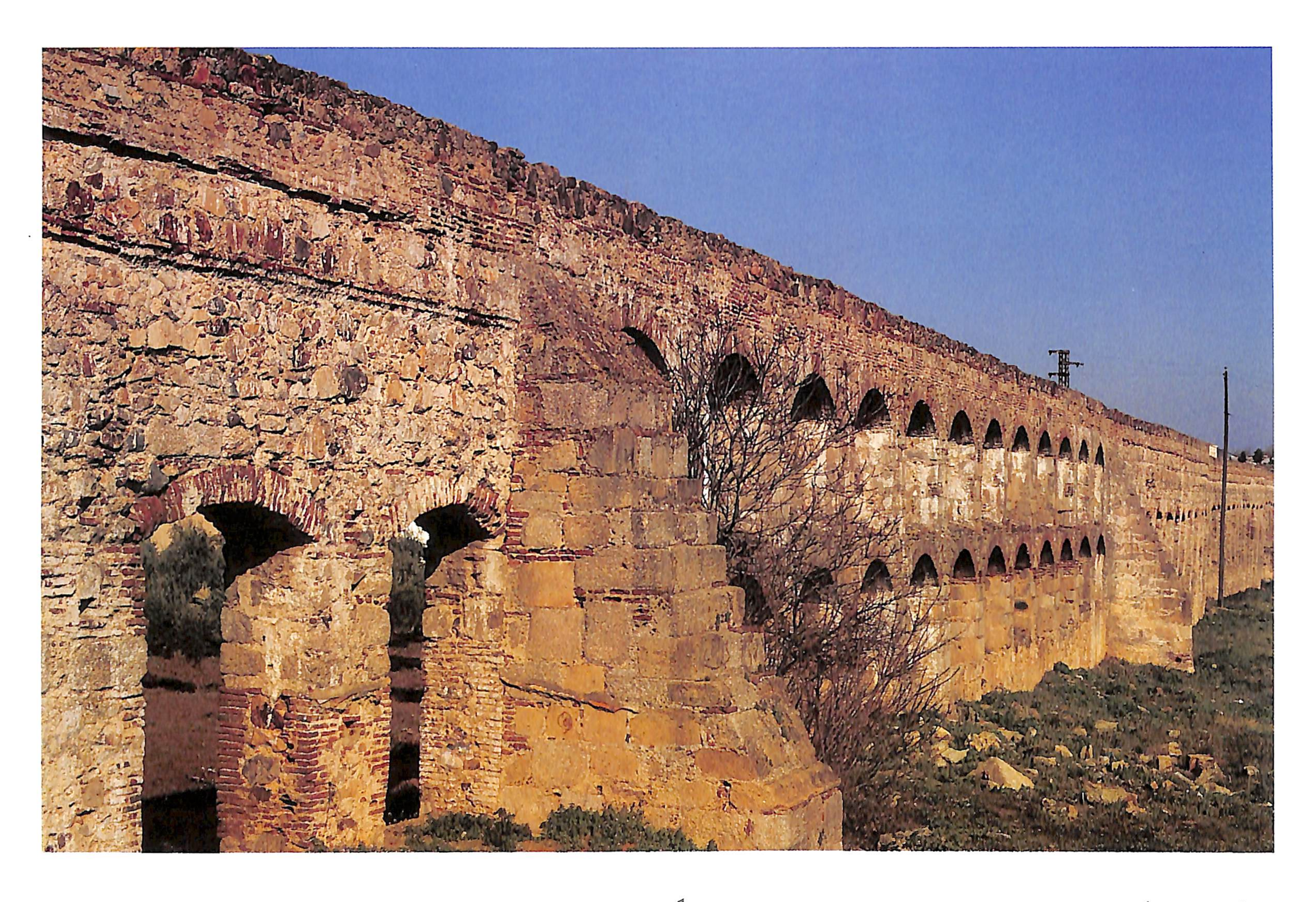
هناك بطل أسطوري، وهو الإغريقي هرقل Hércules، نراه مرتبطاً بأصول إيبيريا. لقد خلَّص هرقل الحوريات من أسرهن – وهنّ يُعرفن باسم «هسپيريديس» Hespérides – حارسات حديقة التّفاح الذّهبي، في أقاصي الغرب، واللائي كان قد خطفهن ملك مصر.

واعترافاً منه بالجميل، وعَد أطلس، والد الحوريات، هرقل بتلقينه معارفه في علم التّنجيم، فقد كان منجّماً خبيراً، ورافق هرقل خلال عبوره من أفريقيا إلى إيبيريا.

تروي الأسطورة أن هرقل، أو «هركوليس» Hércules، فصَل أراضي أفريقيا عن أوروبا، مُتيحاً بذلك اختلاط البحرين (في المكان الذي نعرفه اليوم بمضيق جبل طارق).

«لوسار دي لا بيرا» Losar de la Vera (كاسريس Cáceres). القنطرة الحجرية ذات التّصميم الرّوماني.





ميريدا، قنطرة لوس ميلاغروس Los Milagros المائية الرّومانية، بدعامات وتناوب الحجر والآجر.

يُحكى أيضاً أن هرقل أمر بتشييد برج عظيم، جعل فوقه تمثالاً من النّحاس ينظر باتجاه الشّرق، ويحمل في يده اليمنى مفتاحاً كبيراً وكأنه يفتح باباً - باب الغرب - بينما كانت يده اليسرى مرفوعة وممدودة باتجاه الشّرق. وكُتِب على صفحة يده: «هذان هما عمودا هرقل». هذا البرج، حسب البعض، كان موجوداً بقادس Cádiz. وبحسب البعض الآخر، كان العمودان موجودين على مدخل مضيق جبل طارق، على مرتفعين، وكانا يشيران إلى أقاصي الأرض.

عندما وصل المسلمون إلى شبه جزيرتنا، في سنة 711، أطلقوا عليها اسم الأندلس - أرض الوندال، حسب دوزي Dozy. كانت للمسلمين من قبل معلومات عن وجود أرض بعيدة بالغرب، تسمّى «الأندلس»، عبر سلسلة من القصص التّراثية الإسلامية والأساطير الطّريفة؛ ولهذا السّبب، كانت تلك الأماكن جدّ محبوبة لديهم، ولذلك قدموا إليها كالقادم إلى أرض ميعاد.

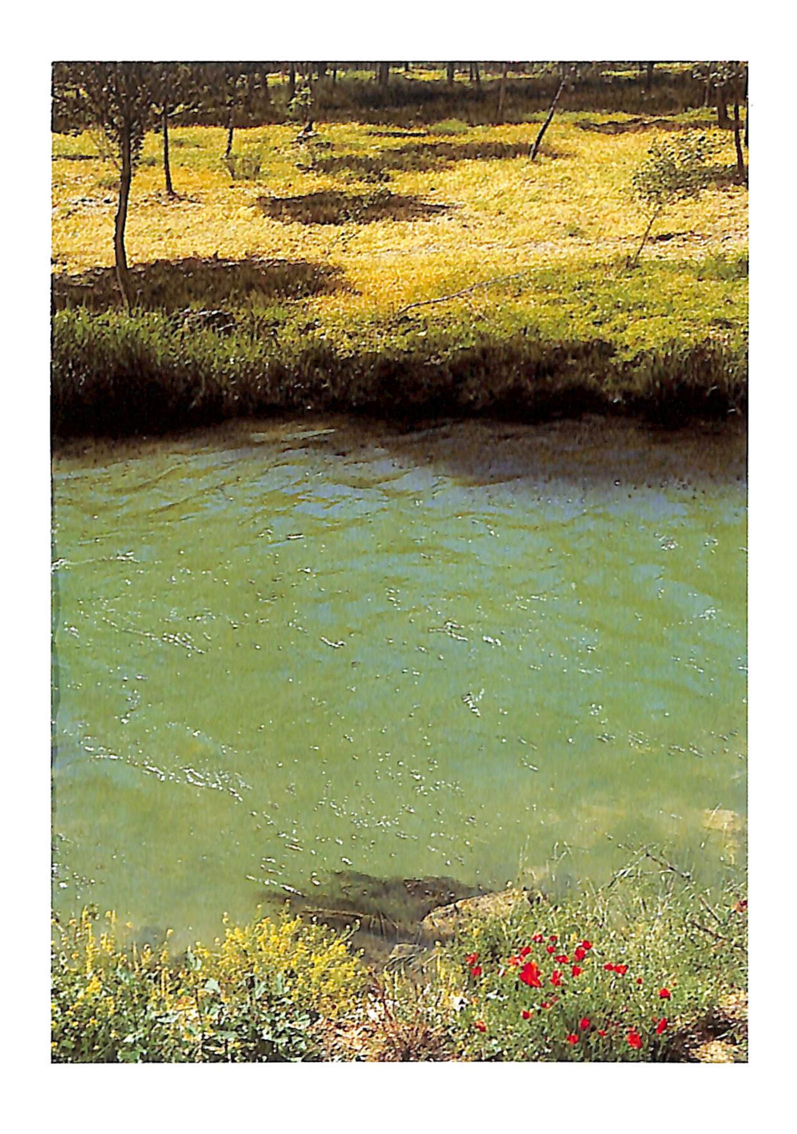


«مانثاناريس إل ريال» *Manzanares el Real* (مدريد). جدول.

على سبيل المثال، سنذكر قصتين من أجمل القصص وأكثرها مغزى: يُروى في أسطورة إسلامية تنسب إلى سليمان أنه، بينما كان على عرشه، مرّت سحابة، وعندما سألها النّبي من أين أتت، أجابته: «من أحد أبواب الجنّة، أرض تسمّى الأندلس وهي تقع في المغرب الأقصى».

وعندما سألها سليمان، مرّة أخرى، إلى أين تمضي، أجابته السّحابة بأنها قاصدة مدينة بفارس. فأراد الملك أن يعرف إذا ما كانت تلك المدينة تفوق الأندلس في شيء، فأجابت السّحابة: «يا نبيّ الله! على العكس تماماً. المكان الذي أنا قادمة منه هو أفضل من كل الأماكن، فضل السّماء على الأرض».

وهناك حديث شريف، حول أرض الأندلس يروي أن نبيّ الإسلام، محمّد، قال: «قال لي جبريل عليه السلام، إنه في أقصى الغرب (بالمغرب) جزيرة يقال لها الأندلس ستُفتح بعدي، حيُّهم مرابط، وميّتهم شهيد، يسكنها قوم من أمتي ويأمنون من الصعقة لكثرة فزعهم»[1].



نهر «التاج» El Tajo وهو يعبر «ثيفوينتيس» Cifuentes («وادي الحجارة» Guadalajara).

وبذلك نستطيع أن نقول بأن العرب والبربر، على إثر وصولهم إلى «هِسپانيا»، كانوا قد قدِموا، إلى حدٍّ ما، مدفوعين بحكاية الأرض الموعودة الشّعبية الشّهيرة. ولكنهم أيضاً كانوا مدفوعين بشكل أساسي بأحد شعاراتهم: «اطلبوا العلم ولو في الصّين»، ومن ثم احترامهم واستغلالهم لما وجدوه، سواء كانت معالم أو منشآت عمومية أو تقنيات.

استغلال الإرث الرّوماني

لقد وجد العرب والبربر الإرث الرّوماني في ثقافة شبه الجزيرة، والتي ظلّت محفوظة بالأساس في أعمال سان إيسيدورو، بما أن الفترة القوطية كانت قصيرة (545–711) وثقافياً لم تتمكّن من التّطور كثيراً.

كان المسلمون قد قدموا من السّاحل الحدودي، للمغرب، إلا أن موئلهم الأصلي كان أبعد بكثير عن مكّة. كانوا قد عبروا قفر الصّحراء العربية، وفي توسّع مدهش، كانوا قد استقرّوا في الشّام والعراق، ضمن أماكن أخرى.

في بلاد الشّام كانوا قد اتّصلوا بالجزء الشّرقي من الإمبراطورية الرّومانية الشّرقية الآفلة (بيزنطة)، بينما عن طريق العراق (ما بين النّهرين) كانوا قد توسّعوا باتجاه الإمبراطورية الفارسية. هناك تعلّموا تقنيات الرّيّ السّطحية والجوفية، بما أنهم كانوا يتطلّعون إلى امتلاك وإدارة ذلك السّائل الثّمين للغاية بالنّسبة إليهم، ألا وهو الماء.

وبذلك، فإن المهندسين المسلمين جلبوا معهم تجربة اكتسبوها من ذي قبل في الشّام والعراق. فيما يتعلّق بالبُنية التّحتية الرّومانية التي وجدوها، أدخلوا تحسينات على بناء السّدود وآليات جديدة للرّفع الهيدروليكي، مبيِّنين أن اهتمامهم الأساسي كان هو الرّي واستجلاب الماء، كأساس للاقتصاد المزدهر الذي يعتمد، بشكل أساسي، على الزّراعة المتعدِّدة.

أحد النّماذج لأولى أنشطتهم حال وصولِهم إلى «هِسپانيا»، تزوِّدنا به كتب الأخبار العربية التي تروي كيف أن المسلمين، عند وصولهم إلى قُرطُبة، اضطرّوا إلى خوض نهر «الوادي الكبير» (Guadalquivir)، لأن الجسر الرّوماني كان مدمّراً، وكيف أنهم دخلوا المدينة خلسة بالليل، من بابٍ بجانب النّهر، كان يسمّى «الصَّنَم» la Estatua – تمثال لأحد الآلهة الرّومانية – وقاموا بغزو المدينة.

وبذلك ندرك الحالة السّيئة التي كان عليها الجسر القُرطُبي، الذي كان المسلمون يعتبرون الحفاظ عليه أمراً أولوياً لضمان وصل الضّفتين. ولذلك الغرض، بعد ذلك بوقت قصير، طلب القادة المسلمون بقُرطُبة الإذن من الخليفة بدمشق، الذي كانوا يخضعون له، لإعادة بناء جسر فوق «الوادي الكبير» بحجارة سور قُرطُبة، إذ لم يكن في المنطقة كلّها مقلع حجارة يمكن استخراجها منه. وكان المسلك عبر النّهر أمراً مستعجلاً، أكثر من الدّفاع عن المدينة بحدّ ذاته.

وهم مع الوقت سينتهجون سياسة هيدروليكية تعتمد على جانبين: استغلال اندفاع ماء النّهر، خاصّة عندما كان يفيض، لإنتاج الطّاقة وأخذ الماء أيضاً إلى منابعهم، وقصورهم وبساتينهم، بالإضافة إلى استخدامات أخرى.

ما تزال في «الوادي الكبير»، في مساره عبر قُرطُبة، آثار لأحد أكبر السّدود التي بناها الإسپان المسلمون. باتجاه تيار النّهر للجسر الرّوماني القديم، بطول يصل 400 متر في خط متعرِّج، لا تكاد تظهر اليوم بقاياه فوق السّطح. وإلى جانب السّد، كان هناك ثلاثة مبانٍ، كل واحد منها بأربعة طواحين، وأيضاً عجلة رافعة ضخمة، ناعورة «أبو العافية» Albolafia الشّهيرة –والتي سنعود للحديث عنها فيما بعد – التي كانت ترفع الماء من «الوادي الكبير»، عبر قنطرة مائية،

إلى قصور الخلافة.

وقد ترك لنا عالِم الجغرافيا، الإدريسي (القرن الثّاني عشر) شهادة عن هذا العمل الهندسي العظيم، ولكن بوسع المسافر الملاحظ اليوم أيضاً أن يشاهد بقايا للطّواحين العربية ومصارفها، وكذلك دعامة البناء الحجري للنّاعورة وجزء من القناة–القنطرة المائية.

كذلك في نهر «توريا» Turia – أو «الوادي الأبيض» Guadalaviar – في مساره عبر بَلَنْسِية Valencia، نستطيع أن نجد إلى حدود ثمانية سدود كانت تحوِّل مجرى التَّيّار النّهري إلى غاية قناة كبيرة، لتزويد المدينة البَلَنْسِيّة. ونظراً لبنائها المتين، صمدت لفيضانات نهر «توريا» على مرّ عشرة قرون، وعلى ما يبدو، ما زالت تساهم في تزويد المدينة.

فيما يتعلّق بالرّي، وجد العرب والبربر في «هِسپانيا» إنجازات تقنية ومؤسّساتية عظيمة، حققها الرّومان لتوزيع مياه الرّي، كما أشرنا.

والإخباريون الأندلسيّون أنفسهم أشادوا بهذا الإرث الهيدروليكي الرّوماني، إذ يصفون أحياناً بكل تفصيل نظام التّوصيلات الذي بناه «الأُوَّل».

شهيرٌ هو وصف المؤرِّخ الحِمْيَري (القرن الرّابع عشر) لشبكة القنوات القديمة:

> «ويخرج من نهر مُرْسِيَة جدول على مقربة من «قنطرة اشكابة» قد نقر له الأُوَل في الجبل، وهو حجر صلد، وجابوه نحو ميل، وهذا الجدول هو الذي يسقي قبلي مُرْسِيَة. (...) ولهذين الجدولين مَنافس في أعلى الجبلين ومناهر إلى الوادي، تنقى الجدولان منه بفتحها وانحدار الماء ممّا اجتمع من الغُثاء فيهما»[2].

بذلك يُخبرنا المؤلف العربي عن نظام القنوات الرّوماني. لاحقاً، ستنشب في تاريخنا جدالات محتدمة لنَسبِ أصل نظام ريِّنا إلى الرّومان أو إلى العرب. مع الاحترام الواجب لكل نقاش يمكن أن يضفي ذلك بقعة ضوء على البحث، من البديهي أن أجدادنا في العصر الوسيط أقرّوا ما قد أكّدناه آنفاً وهو ثابت تاريخي: ألا وهو أن الثّقافة تورّث وتنتقل من شعوب لأخرى وليست حُكراً على أيٍّ منها.

وهكذا، تلي الاعترافَ العربي بالموروث الرّوماني الاعترافُ المسيحي بالإرث الهيدروليكي الذي تركه المسلمون. وحتى ملِك أراغون، خايْمِه الأول، الذي استعاد بَلَنْسِية للمسيحية، يعترف في «المواثيق» العائدة له بأنّ عادات الرّي في تلك المدينة تعود إلى زمن المسلمين. بل حتى إنه سيأمر بأن يبقى نظام الرّي الإسلامي كما كان عليه من قبل:

> «(...) بحيث تستطيعون السّقي منها وأخذ الماء دون أي تكليف أو خدمة أو ضريبة، وأن تأخذوا تلك المياه، كما كان ذلك قديماً، وكما كان ذلك مقرَّراً ومعروفاً في زمن المسلمين»[3].

الأندلس من الشّرق إلى الغرب: التّوسّع في شبه الجزيرة تبعاً للأحواض النّهرية

باتّباع مسار الغزو الذي قام به المسلمون ابتداءً من جنوب شبه الجزيرة، نستطيع أن نتحقق من أنهم سيطروا، بسرعة قصوى، على جُلِّ تراب «هِسپانيا» القديمة. وبعد ثلاث سنوات من وصولهم، كانوا قد أخضعوا لسيطرتهم تقريباً كل البلد، باستثناء منطقة جبلية صغيرة في الأراضي الأستورية، الكنتابرية والباسكية.

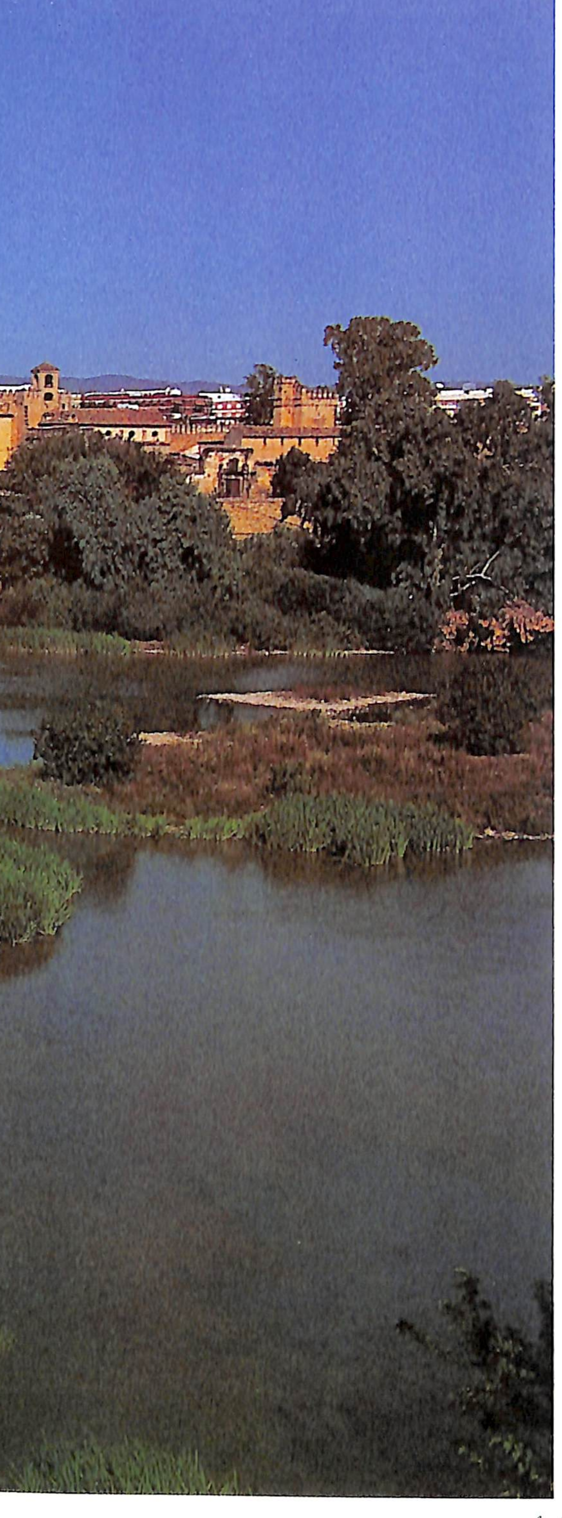
بدأوا يغزون المدن الرّومانية القديمة مثل إشبيلية، وقُرطُبة، وسَرَقُسطة، وطَرّاكونة وميريدا (ماردة)، والتي أبدوا تجاهها إعجاباً كبيراً. عن هذه الأخيرة يروي لنا إخباري عربي مجهول:

> «(..) مدينة ماردة، حيث كان يقطن بعض أهم أمراء إسپانيا، والتي كانت تضمّ عدّة معالم وجسراً، وقصوراً وكنائس تفوق كل وصف»[4].

لقد أقام العرب والبربر أيضاً معاقل جديدة، خاصّة في تلك المناطق التي كانت لها مسالك جبلية استراتيجية، أو التي كانت قابلة للاستغلال الهيدروليكي، نظراً لقربها من الأنهار، والتي كانت تستعمل أيضاً كسُبلٍ للتّواصل.

كانت منطقة «وادي الرّمل» Guadarrama و«وادي الحَجرة» El Jarama ونهرها الرّئيسي «التّاج» El Tajo، جدّ مأهولة بالمسلمين، وهو ظرفٌ بقي مطبوعاً في الأسماء، سواء منها الخاصّة بعلم المياه أو الأماكن. وهكذا، فإنّ أسماءً مثل «قلعة الخليفة» Calatalifa، «الأمين» Alamín، «القلعة» Alcalà، «فحص مجريط» Vaciamadrid، « الضّويعة» Aldovea، إلخ، واسم «مدريد» (مجريط) نفسه، تساعدنا على فهم الأهمّيّة التي كانت للمنطقة المركزية في الحماية الاستراتيجية للأندلس.

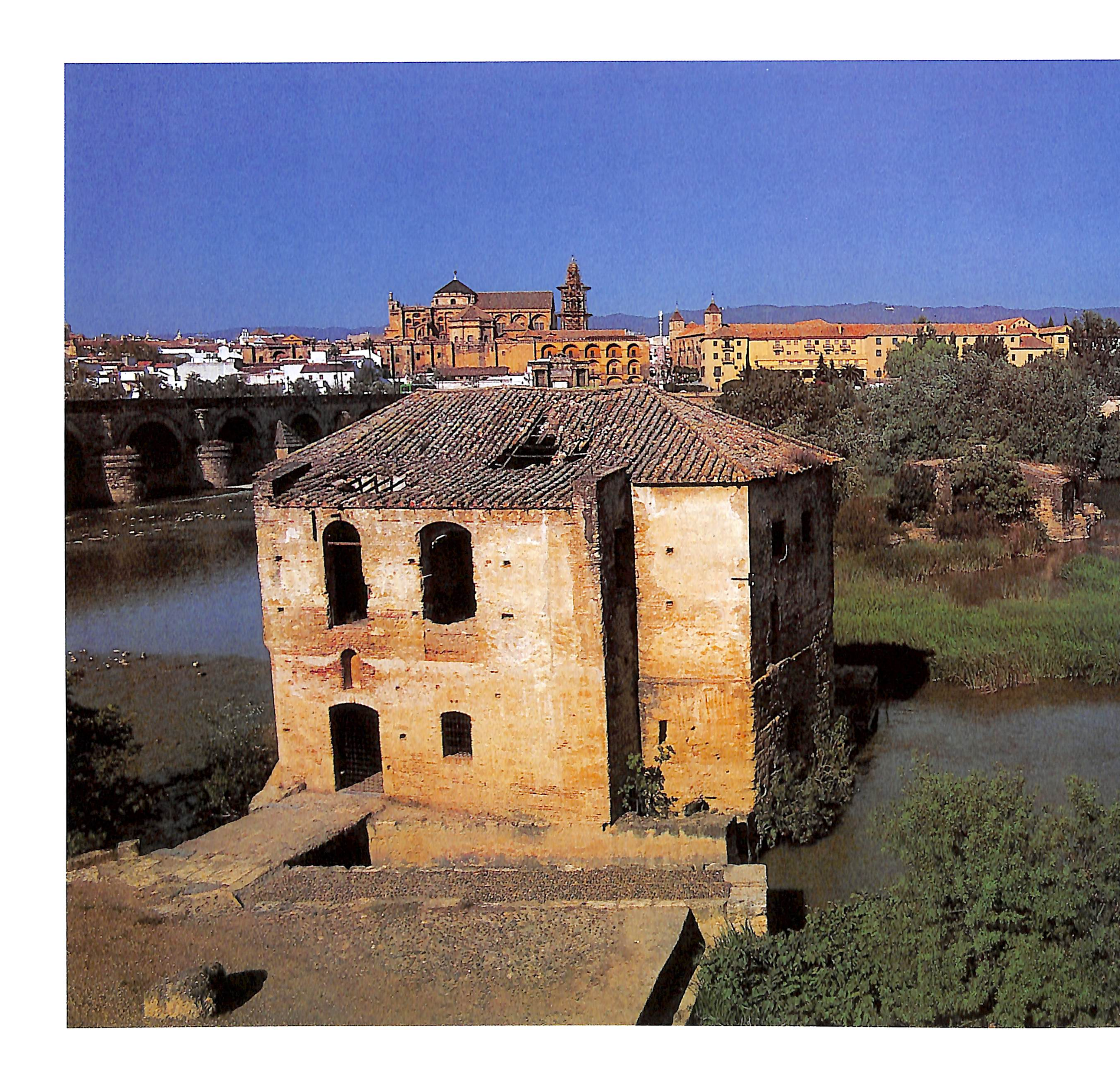
بدأت التّجمّعات الحضريّة، القاعدة الأساسية للتّطور الاجتماعي اللاحق، تحتاج إلى حمايات لكي تتمكّن من البقاء. ولذلك أقيمت عدّة أبراج عربية للحراسة كانت تراقب منطقة العبور إلى جبل «وادي الرّمل»، من خلال إنذارات بالتّسلسل، من خلال إضرام نيران بالليل





قُرطُبة. صورة پانورامية للمدينة وللمسجد، من الجسر الرّوماني القديم فوق «الوادي الكبير».

قُرطُبة. إحدى الطّواحين العربية بجانب السّد، في «الوادي الكبير».



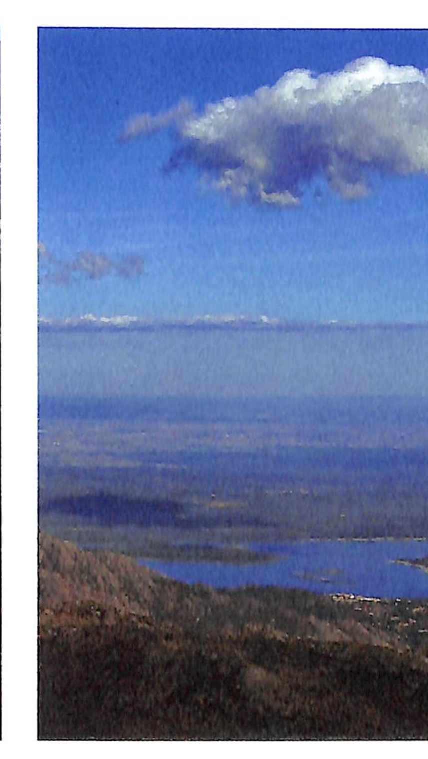
ومن خلال الدّخان بالنّهار. وهي أبراج الحراسة التي ربما تركت بصمتها حيث كانت موجودة في الأسماء اللاتينية اللاحقة لبعض المدن، مثل «تورّيلودونيس» Torrelodones أو «تورّيخون» Torrejón.

ثمّة معلومة مهمّة يذكرها خايْمِه أوليڤير أسين Jaime Oliver Asín في كتابه «تاريخ اسم مدريد» *Historia del nombre de Madrid*، وهي أنّ العرب دائماً أطلقوا على نهر «منثاناريس» Manzanares اسم «وادي الرّمل»، وإلى غاية القرن السّادس عشر لا يظهر باسم «منثاناريس»، الاسم الذي يعزى إلى كونه ينبع من «منثاناريس إل ريال» Manzanares el Real، ونظراً إلى أن تلك المنطقة كانت تشهد زراعةً مهمّة للتّفاح.

عبر طريق مفتوح، باتباع مجرى «إيناريس» Henares، وصل المسلمون، تحت قيادة القائدين العسكريين، طارق وموسى بن نُصير، إلى وادي الإيبرو El Ebro، إلى نابارا Navarra، وآلَبا Álava والسّهل الشّمالي. وباتجاه مجرى «التّاج»، وصلوا إلى لشبونة، وفي بعض الأجزاء، عن طريق السّاحل أو الجانب الدّاخلي للسّاحل الشّرقي، وصلوا إلى غاية كتالونيا Cataluña.

وهكذا، أفادتهم مجاري أنهار شبه الجزيرة التي كانوا يجدونها في طريقهم، للتّقدّم على طول ضفافها، والتّزوّد بما يكفي من الماء للجنود والجياد. وبهذا الشّكل، انطلاقاً من الجنوب، باب دخولهم، سرعان ما انتقلوا عبر الأحواض النّهرية والطّرق الرّومانية المرصوفة، عبر كل أنحاء شبه الجزيرة.

نهر «التّاج» El Tajo (إل تاخو) وهو يعبر طُلَيْطُلة Toledo. في الخلفية، قلعة «سان سرباندو» San Servando.

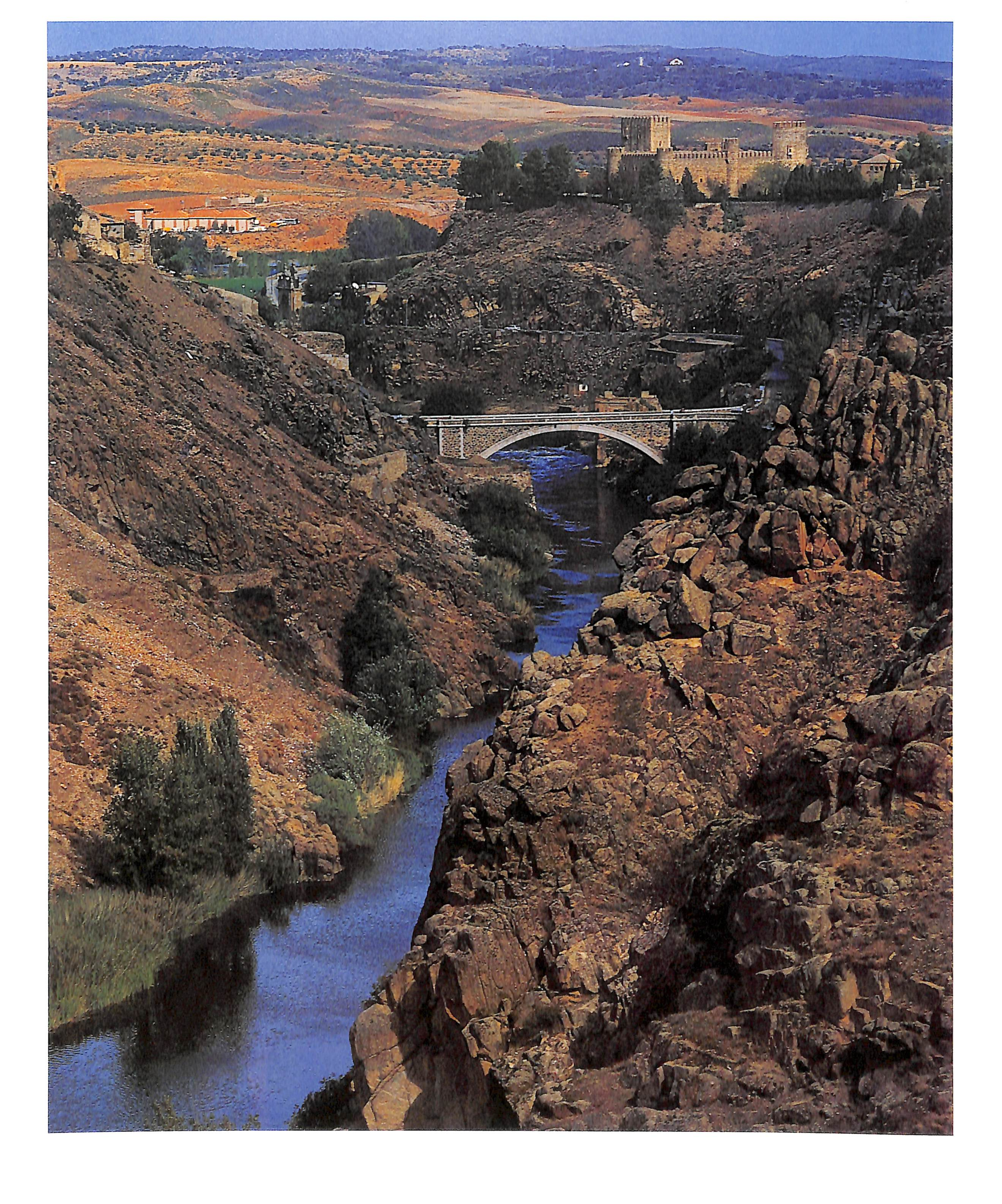


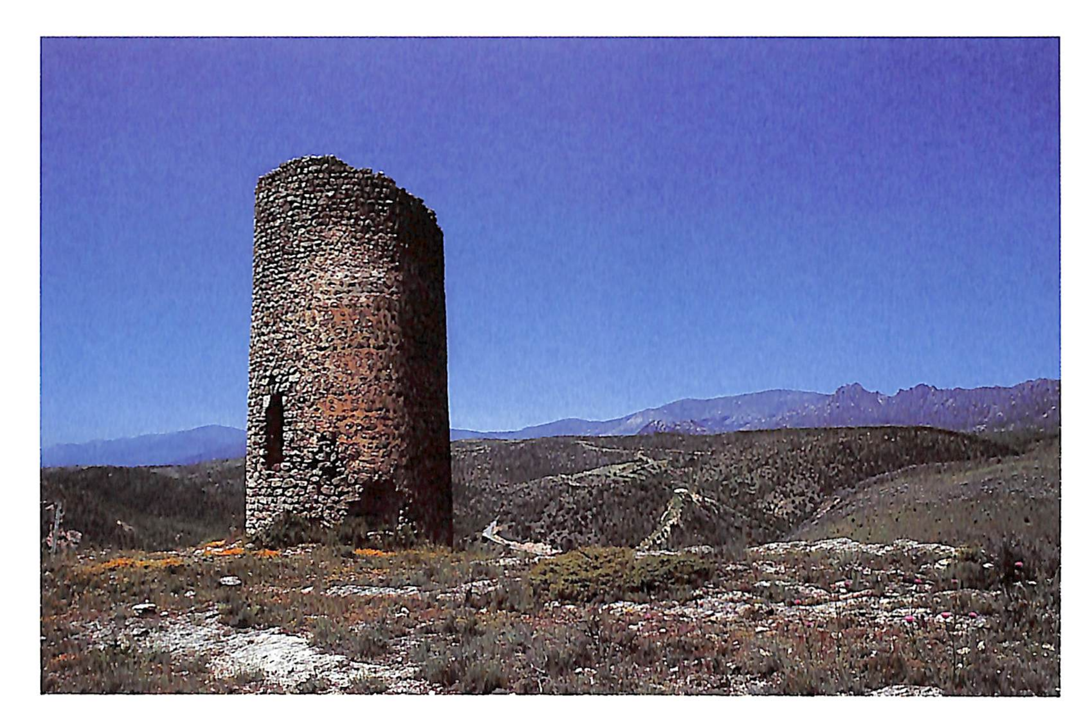
الصّورة على اليمين

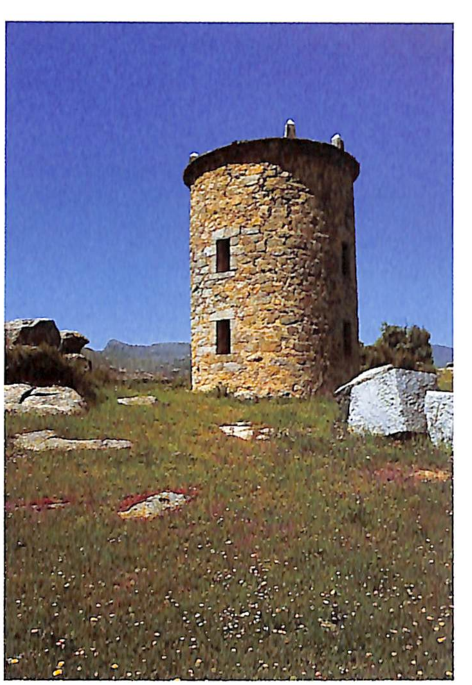
«لا پِدريثا» La Pedriza. منطقة منبع نهر منثاناريس Manzanares، الذي يسمّيه العرب «وادي الرّمل» Guadarrama.

الصّورة على اليسار

نابانْيرّادا Navacerrada (مدريد). فج جبلي واستراتيجي للعبور إلى شمالي شبه الجزيرة.







الصّورة على اليسار: إقليم مدريد. بقايا لبرج حراسة، تم استغلالها من جديد.

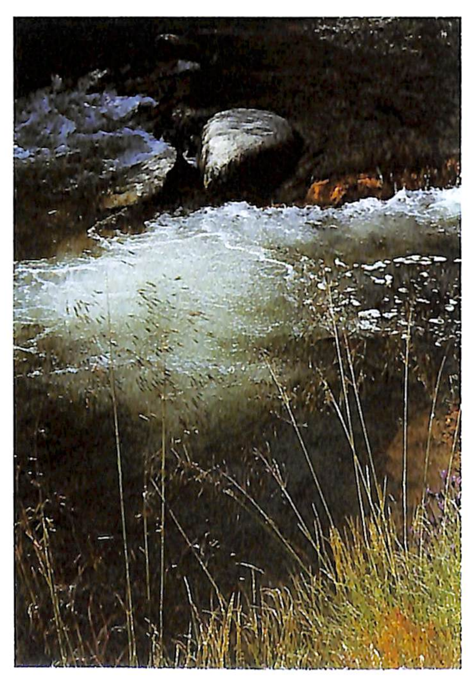
الصّورة على اليمين: «تورّيلاغونا» Torrelaguna (مدريد). بقايا لبرج حراسة أو «الطلاّية» Atalaya، كانت توجد في ممرّ استراتيجي، وقد منحت التّسمية للمكان.

ركّز الجغرافيون العرب، بوجه خاص، على وصف أنهار الأندلس (التي لا بدّ أنها كانت أكثر غزارة منها اليوم)، وذكروا بأنه كانت توجد سبعة أنهار مهمّة بالأندلس، كانت تصبّ في البحر: «مينيو» Miño، «دويرو» Duero، «تاج» Tajo (تاخو)، «وادي يانة» (غوادیانا) Guadiana، «الوادي الكبير» (غوادالكيبير) Guadalquivir، «شقورة» (سيغورا) Segura، و«إيبرو» Ebro.

ومن بين أهم الأوصاف التي وصلتنا من هؤلاء المؤلّفين العرب هناك وصف لـ «غواديانا» والإيبرو، وهي تعطينا أيضاً معلومات مهمّة عن المحيط. حسب الزُّهري (القرن الحادي عشر والثّاني عشر):

> «وفي الجوف من هذه المدينة بنحو ستين فرسخاً، مدينة بطليوس، وهي على النّهر الأعظم المسمّى «وادي يانة» المنبعث من محصر الرّيح، بالموضع المسمّى بالغدر أو الغدور. وهذا النّهر لا يعرف له أحدٌ أصلاً ولا مخرجاً غير أنه يندفع من الغور ويغيب في موضع ويجري في آخر متصلاً إلى مدينة قلعة رَبَاح. ثم يهبط حتى ينتهي إلى مدينة بطليوس، ثم ينتهي إلى حصن مربل، على مقربة من البحر الأعظم، فيقع فيه».

وعندما يصف «الإيبرو» يقول لنا:



لا پِدريثا La Pedriza (مدريد). تورِّينتيرا دِل منثاناريس Torrentera del Manzanares، على مقربة من منبعه.



منثاناريس إل ريال (مدريد). مجرى نهر منثاناريس Manzanares، الذي يسمّيه الأندلسيون «وادي الرّمل» Guadarrama.

«وهي (سَرَقُسطة) على النّهر الأعظم المسمّى بوادي أبرُه. وهذا النّهر ينبعث من جبال البُرتات إلى مدينة تُطيلة». ثم يهبط هذا النّهر إلى مكناسة. وهنا يقع في وادي لاردة، وهذا النّهر يوجد فيه الذّهب كثيراً (...) ثم يهبط هذا النّهر مع نهر أبرُه من مكناسة إلى طرطوشة حتى يندفع في البحر على عشرة فراسخ. وهو عذب لقوّة انجراره. وطرطوشة، مدينة كثيرة الثّمار والفواكه. وهي خلف هذا النّهر ممّا يلي جبل أطريجَرَش. وطول هذا النّهر من جبل أنبره إلى أن يقع في البحر خمسة عشر يوماً، يتعاطى النّاس عليه السّراج مسيرة مئة ميل. وكذلك يتعاطون السّراج عليه من حصن أفلَيس إلى مدينة طرطوشة. وهي على ضفته»[5].

يبدو أن الزُّهري يحدّثنا، فيما يتعلّق بوادي يانة، عن منطقة «بحيرات رويديرا»



«بالتابلادو دِل ريو» Valtablado del Río (غوادالاخارا). مجرى نهر التّاج العالي. حوض التّوسّع الإسلامي باتجاه النّصف الشّمالي.

Lagunas de Ruidera التي، إلى جانب المجرى الخفي للنّهر، الذي يظهر على السّطح ثم يختفي، لا بدّ أنها قد أدهشت الجغرافيين العرب.

كما يشير لنا أيضاً إلى دِلتا الإيبرو، فقد لاحظ بدقة دخول مياهه في البحر وكيف أنها تبقى عذبة على طول مسافة مهمّة.

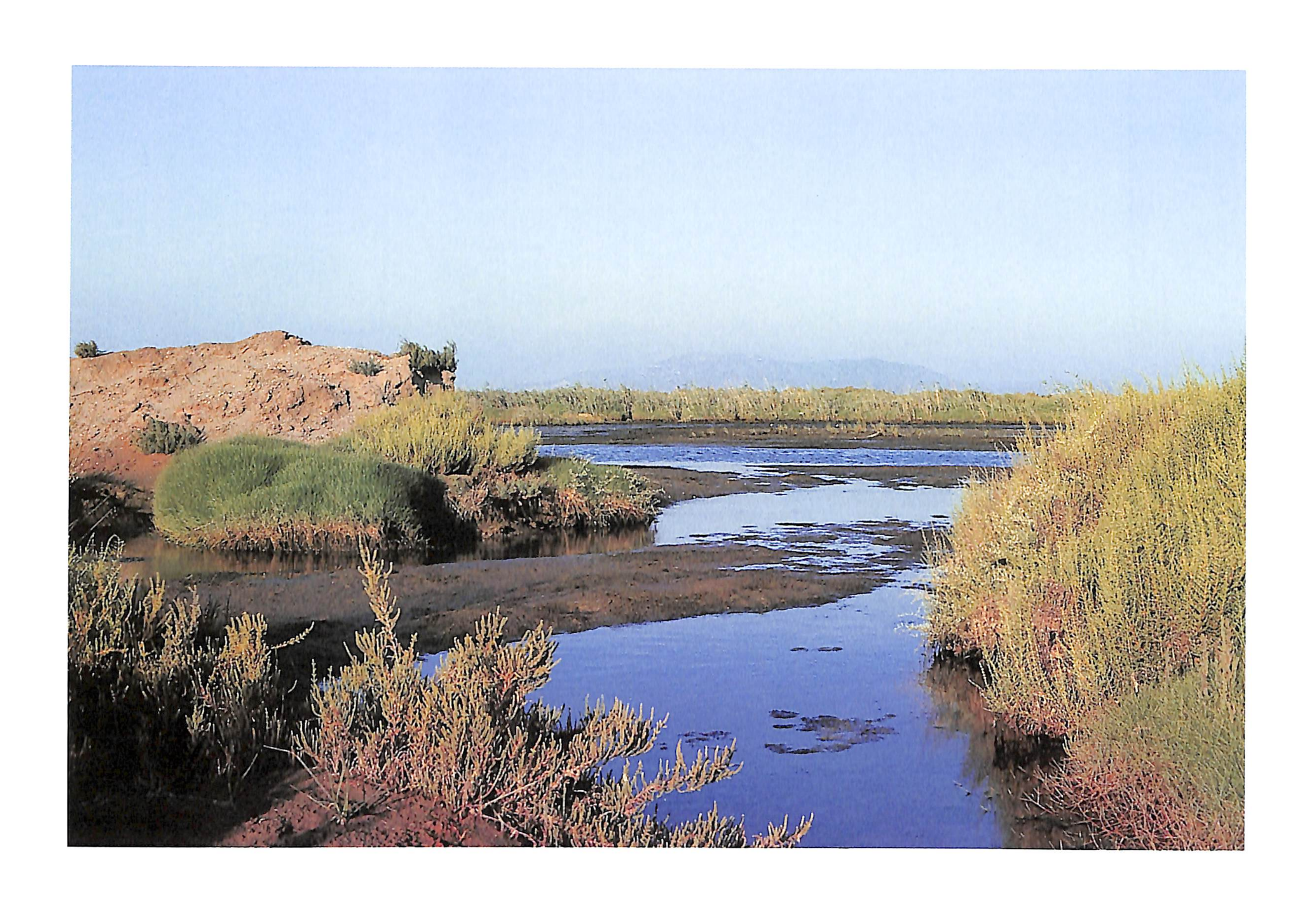
في وادي الإيبرو، أقام المسلمون مستقرّاً كاملاً وشاملاً، سيتجسّد مع الوقت في ثروة فلاحية - هيدروليكية مهمّة.

في الوادي، قرب ضفتي النّهر، استقرّت الإثنيات العربية، بينما في الجبل استقرّ البربر، الذين كانوا أكثر تعوُّداً ونزوعاً إلى قساوة الجو الجبلي البارد.

وهذه التجمّعات الحضريّة يمكن ملاحظتها إلى الآن، فقد تركت بصمة في أسماء الأماكن الأراغونية، بوجه خاص، أسماء من أصل بربري. فاسم «ميكينينثا» Mequinenza يحدِّثنا عن أهمّيّة قبيلة «مكناسة» التي استقرّت هناك؛ و«أوسيخا» Oseja عن بربر «أوشج»، الذين قدموا من مناطق بعيدة بالمغرب. وستسنح لنا لاحقاً فرصة تحليل عالم أسماء الأماكن هذا المذهل.

بحيرات «رويديرا» Lagunas de Ruidera (لا مانتشا La Mancha)، التي أدهشت العالم الجغرافي الزُّهري.





«طَرّاكونة» *Tarragona*. دلتا الإيبرو *El Ebro*، التي كان الزُّهري قد لاحظ أنها تلج في البحر لأكثر من عشرة فراسخ.

الفصل الثّاني

الماء المقدس

الماء، مصدر للحياة وعنصر للطّهارة

بالنسبة للعالم الإسلامي، الماء هو مصدر الحياة التي خلقها الله. وسورة الأنبياء من القرآن الكريم، الآية 30، تذكّر الإنسان بهذا الأصل:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يعتبر الماء دائماً «نعمة من الله». ونظراً لطابعه الخاص، فهو يُوصف مجازاً بـ«شراب الحكمة».

للماء معانٍ عديدة في الإسلام. إذ ليس هو مصدر الحياة فحسب، بل يكتسب معنى مطهِّراً للإنسان، لأنه يطهِّر وينقِّي، سواء الظّاهر (الجسد) أو الباطن (الروح)، وهذا معنى في غاية الرّوحانية.

إن تقديم الماء لآخرين، أو حتى لكائنات أخرى، كالحيوان والنّبات يعتبر زكاة. وبالماء يتطهّر المسلم، قبل صلواته وبعد العلاقة الجنسية، وبه يطهِّر الأعضاء الحميمة أيضاً بعد قضاء الحاجة، طلباً لحالة طُهر جسدي.

وطلب نظافة البدن هذا يقتضي بُنية تحتية ضرورية وتوفير خدمة الماء، كما يقتضي مجّانيته فيما يتعلّق بالمرافق العمومية.

ولذلك، ففي الأندلس، كما في أي مكان بالعالم الإسلامي، كان لا بدّ للمدن والبيوت أن تحصل على الماء الكافي احتراماً لهذه المبادئ. كما سنرى من خلال هذا العمل، كان تزويد المدن بالماء أحد أكبر غايات الملوك الأندلسيين، بجلبه عبر قنوات، ليجري في الأسبلة العمومية.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ مفهوم الطّهارة هذا المهمّ فيما يتعلّق بالماء، اختلط بأفكار أخرى جمالية وحتى شاعرية، متمظهراً في «هندسة الماء»، التي ملأت الأندلس بقصور كأحلام الخيال، بعيدة نوعاً ما عن المفهوم الأصلي. وقد أسهمت في ذلك بعض التّطلعات المُترفة والسّياسية.

ومن جهتهم، كان الإسبان المسلمون المتديّنون يحاولون القيام بفروض الطّهارة، إما بجِباب أو آبار خاصّة في بيوتهم، وإما بتزوّدهم من الأسبلة العمومية.

وإذا كان الماء ضرورياً في الشّوارع والبيوت الأندلسية، فخدمة الماء في المساجد كانت لا غنى

غرناطة، قصر الحمراء. البِركة وفناء الآس، كما يُشاهدان من بهو قُمارِش. تمازُج ما بين الماء والفنّ المعماري.

عنها البتّة، وهو المكان الوحيد الذي لم يكن ليفتقر إليه.

في المساجد الكبرى كان – وما يزال – إجبارياً إنشاء منهل كبير ذي ميازيب، حيث يستطيع المؤمنون أن يتوضّأوا للصّلاة التي آن موعدها، وتجهيز مراحيض مزوّدة بالماء.

وبما أن هناك خمس صلوات على مرِّ اليوم، وفي ساعات متفرقة، فقد كانت هذه المناهل تُستعمل بكثرة طيلة النّهار.

كانت هناك مساجد كثيرة في جميع المدن الأندلسية؛ مساجد صغيرة في الأرباض، ومسجد رئيسي، يسمّى «الجامع»، أكبر بكثير، لاستقبال مؤمني المدينة في صلاة الجمعة. وبذلك، كان يُسعى إلى تحقيق مفهوم «الأمّة» الإسلامية، الأساس الاجتماعي والنّواة الأساسية للإسلام.

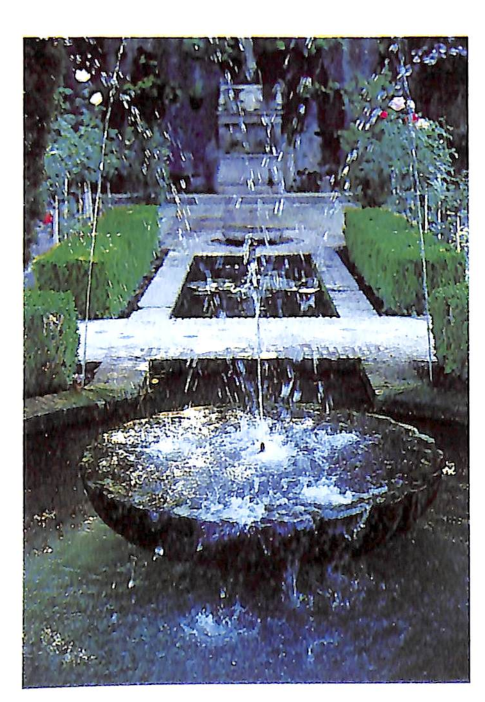
الماء في مسجد قُرطُبة

إنّ أكبر مسجد جامع لكل الأندلس، وحتى لكل الغرب الإسلامي، كان مسجد قُرطُبة. في القرن السّابع، عندما تم بناء المسجد على يد الأمير الأموي عبد الرّحمن الدّاخل (756–788 م)، كانت مساحته أقلّ، بحسب عدد المؤمنين في تلك الفترة. كما أن صحنه الأساسي كان أصغر من الذي نعرفه اليوم.

وفيما يتعلّق بالصّحن، يُروى أنّ الإمام (وهو من يتقدّم الصّلاة في المسجد) سلام الشّامي، في القرن الثّامن، غرس بعض الأشجار، ممّا أثار، بعد قرن من الزّمن، سلسلة من الجدالات القانونية حول شرعيّتها.

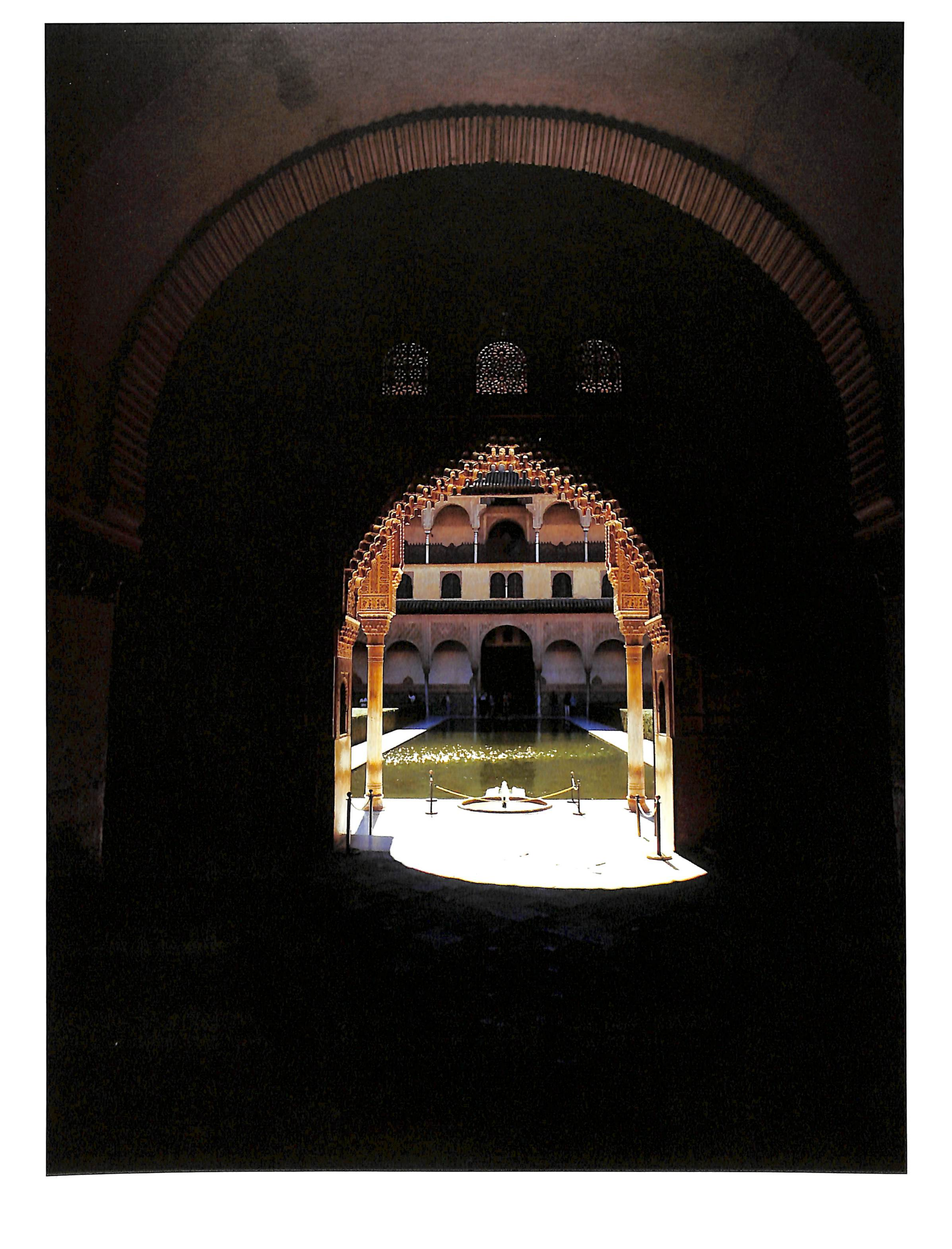
في نفس هذه الفترة، أمر الأمير هشام الأول (788–796 م)، ابن عبد الرّحمن، ببناء أروقة حيث يمكن للنّساء أداء الصّلاة: كما أمر ببناء رواق للوضوء (ميضأة)، وحوضٍ شرقي المسجد. وعلى ما يبدو، كان الماء الذي يصل إلى الحوض يستنبط بواسطة ناعورة. لاحقاً، تم توسيع المسجد والصّحن عبر عدّة فترات، لتصل إلى الأبعاد المهمّة التي بوسعنا أن نشاهدها اليوم بإعجاب.

غرناطة. الحمراء. الفكرة الجمالية متمثّلة في هندسة بديعة للماء.



في أواخر القرن العاشر، كانت في الصّحن الذي يوجد به اليوم شجر البرتقال – وما تزال – أروقة ذوات أقواس على أعمدة، في ثلاثة من جوانبها. وفي هذه الأروقة، الظّليلة والباردة نسبياً، كان يجلس العديد من المعلّمين لتدريس القرآن الكريم للصّبية، الذين كانوا يكرّرونه بصوت مرتفع مراراً، بألواحهم الخشبية على رُكَبهم، وعليها كانوا يكتبون الآية القرآنية التي كانوا يحفظونها، إلى أن يتمكّنوا من قراءة القرآن الكريم بنُطق عربي سليم. ولعلّ أصواتهم كانت تختلط بصوت الماء الملطِّف للجو وهو يقع في حوض الوضوء القريب.

كما كان يجتمع في تلك الأروقة الرّحبة الشّيوخ الرّوحيون مع مريديهم الذين كانوا يتبعون تعاليمهم. وقد ارتاد الصّوفي الكبير، ابن عربي المُرسي (القرنان الثّاني عشر والثّالث عشر)، هذه



الحلقات القُرطُبية للتّعليم الرّوحي أكثر من مرَّة.

وفي مناسبة، قام الخليفة الحَكَم الثّاني (961–976 م) بإيفاء نِذر قطعه على نفسه، بأن أدّى مالاً لمجموعة من المعلّمين ليلقّنوا القرآن الكريم لأبناء المرضى والفقراء، وأقيمت ثلاث من هذه المدارس في المسجد، وأربع وعشرون منها في المدينة.

وكما هو الشّأن في مناسبات أخرى، كان لابدّ من شاعر طامح إلى الشّهرة كالمعتاد، ليشيد بهذا العمل الصّالح للخليفة في بضعة أبيات:

وساحة المسجد الأعلى مُكلّلة مكاتبَ لليتامى من نواحيها
لو مُكِّنَت سُورُ القرآن من كَلِمٍ نادتكَ يا خير تاليها وواعيها[1]

كما نرى، كان هناك مُقابلٌ لتديُّن هذا الشّاعر. كما تحدِّثنا الكتب الإخبارية للمؤرّخين العرب أن هذا الخليفة أيضاً، الحَكَم الثّاني، وهو صاحب أجمل توسعة للمسجد القُرطُبي، أمر ببناء أربع مقصورات للوضوء: اثنتين على جهة الشّرق، واثنتين على جهة الغرب. فاثنتان للرّجال، والاثنتان الأُخريان للنّساء.

خلال هذا الإصلاح، أمر بجلب الماء إلى المسجد. إلى ذلك الحين، كان الماء يُستخرج من بئر أو جب، بواسطة ناعورة، كما ذكرنا. أمر الحَكَم الثّاني بتفكيك النّاعورة وبناء سلسلة من التّوصيلات الرّصاصية، والمغلَّفة بمجاري أخرى من الحجر. هذه المجاري كانت تتزوّد بالماء الذي كان يُجلَب من الجبل، بواسطة قنوات جوفية إلى غاية خزَّانات كبيرة، كانت توصل الماء إلى حوضين حجريين كبيرين للوضوء. حوض في الجهة الشّرقية، وآخر في الجهة الغربية. ويخبرنا مؤرِّخ مَرَّاكُش، ابن عذاري عن هذا الحدث بتفصيل:

> «356هـ: وفيها، أجرى الماء إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين مع جانبيه: شرقيه وغربيه، ماءً عذباً جلبه من عين بجبل قُرطُبة، خرق له الأرض، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء، محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرّصاص لتحفظه من كل دنس. وابتدى جري الماء من يوم الجمعة لعشر خلون لصَفَر من السّنة...».

وفي هذه المناسبة أيضاً، ألَّف شاعر القصر قصيدة مديح للسّلطان[2]:

وقد خرقتَ بطونَ الأرضِ عن نُطَفٍ من أعذبِ الماء نحو البيتِ تُجريها
طُهر الجسوم إذا زالت طهارتُها ريّ القلوب إذا حرّت صواديها
قرنت فخراً بأجر قلّ ما اقترنا في أمة أنت راعيها وحاميها

قُرطُبة. في الأروقة الرّحبة للمسجد كان يجتمع الشّيوخ الرّوحيون مع مريديهم.

إشبيلية ومسجدها الجامع

عندما حكمت الأندلس السّلالتان القادمتان من مَرَّاكُش: المرابطية (1056–1147) والموحّدية (1121–1269) – إثر ضعف وأزمة ملوك الطّوائف – اختارتا إشبيلية كعاصمة أندلسية.

لقد وجدوا ذواتهم تماماً في إشبيلية. إذ كان أفقها الواسع، وشمسها السّاطعة ولطف جوّها، يذكرّهم بموطنهم الأصلي.





فاس. جامع «القرويين» (المغرب). لحظة الوضوء في فناء المسجد.



لقد زيَّن الملوك المرابطون إشبيلية، على وجه الخصوص، بتوسعة قصورها وحدائقها، وحفِّها بأسوار عظيمة وأبراج حصينة، كبرج «الذّهب»، بجانب «الوادي الكبير».

وعن المسجد الجامع الإشبيلي، الذي بُني في القرن التّاسع في عهد الأمويين بقُرطُبة، يحدّثنا ابن عبدون، وهو إشبيليٌّ من أوائل القرن الثّاني عشر وصاحب رسالة مهمّة هي «رسالة الحِسبة» (قوانين المدينة).

فيقول لنا إنّه في المسجد لا بدّ أن يكون هناك مهندس بصفة دائمة، يهتم بما ينبغي أن يُصلح، ويقوم بإصلاحه. وبوجه خاص، يهتم باستمرار ويزور مقصورة الوضوء لتبقى على أحسن وجه (أي معاينتها إذا ما كانت هناك أضرار في مواسير الماء، أو تسرُّب، إلخ).

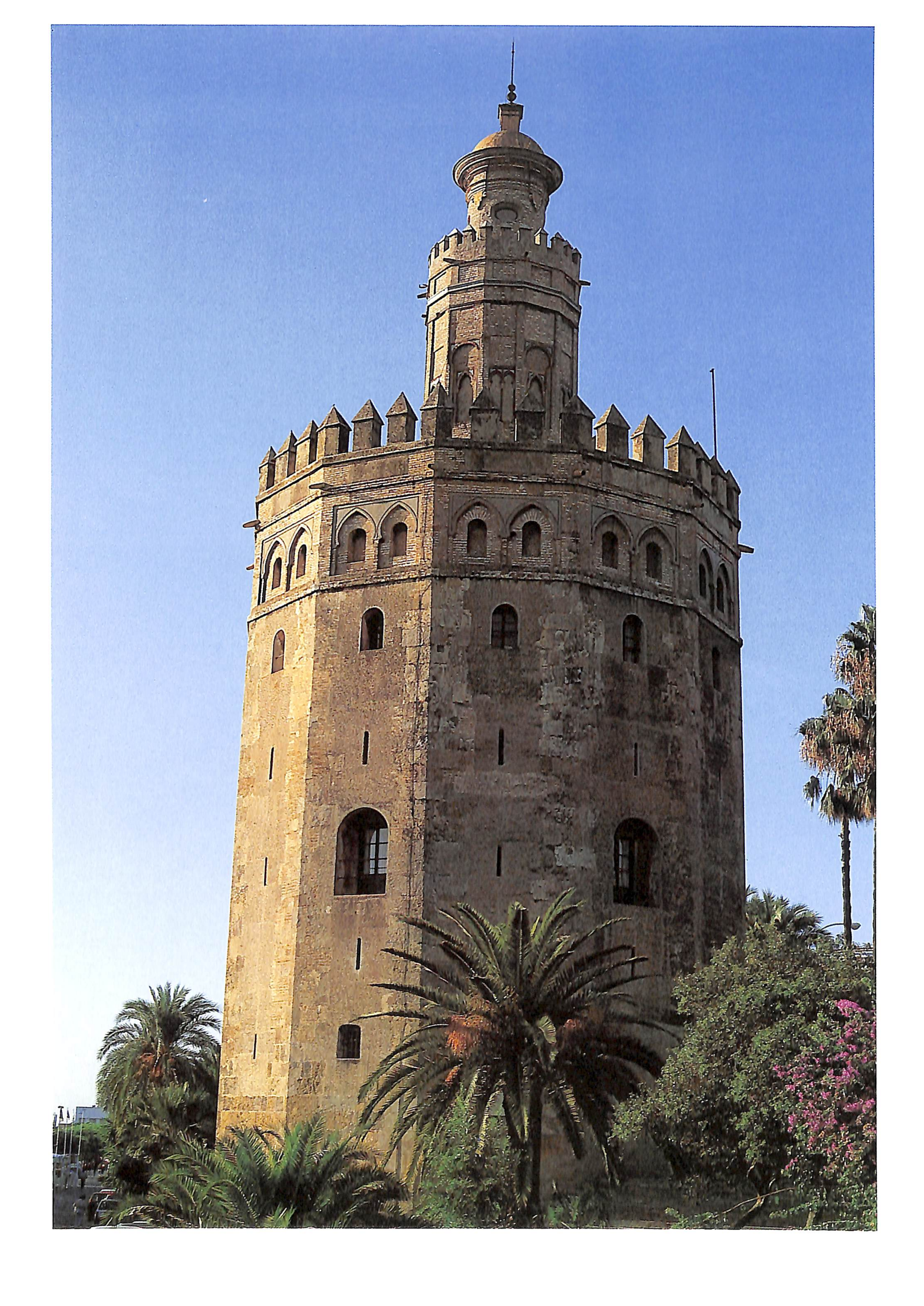
ونعرف أيضاً، بفضل ابن عبدون، أنه كان هناك في المسجد الإشبيلي ستة أشخاص للخدمة، غير الأئمة والمهندس. وهؤلاء الخدم كانوا يتكفَّلون بالنّظافة والإنارة بالمسجد. لكن، بالإضافة إلى ذلك، كان للمسجد سقَّاء يزوِّد الخزّانات بالماء، التي كانت بدورها تزوِّد نافورة الوضوء والمراحيض. ولكي يقوم السّقّاء بواجبه، كان ينبغي للقائمين على المسجد أن يقدِّموا له زاملة، حتى يجلب عليها الماء كل يوم، من الظّهر إلى المغرب. وكان على السّقاء أن يتكفّل بكل ما يتعلّق بالأواني التي يُنقل فيها الماء (على وجه التّأكيد، الحفاظ على نظافتها التّامة).

كان المسجد يؤوي الوافدين الذين كانوا يصلون إلى إشبيلية، من عابري السّبيل أو الغرباء. وكانوا ينامون على حُصُر مفروشة في الأروقة أو على مصاطب كانت توجد في مقصورات الوضوء. ففيها كان المسافرون المُجهدون يضمنون قسطاً من الرّاحة، يُتيحه لهم هدوء المكان، كما كانوا يضمنون نظافة البدن وطهارته، بفضل مرافق الماء. إلا أن هذا النّظام التّام لا بدّ أنه قد اختلّ في أكثر من مناسبة، فابن عبدون يدعو إلى عدم السّماح لأيّ شخص بالأكل أو النّوم في حَرَم المُصلّى، أو بالحديث بصوت مرتفع داخله. كما يدعو إلى إبعاد الباعة المتجوّلين الذين يستقرّون بأروقة الصّحن، في يوم الجمعة إلى أن تنتهي صلاة الظّهر، فهم بخلاف ذلك يضايقون المؤمنين. وينتقد بشدّة الباعة الذين يزجون «بَسْطاتهم» على المصاطب الحجرية للسّور الخارجي للمسجد، ويعرضون عليها بضاعتهم، ثم ينتهي المطاف بهؤلاء الباعة إلى ممارسة حق الملكية على ذلك المكان.

وربما بسبب هذا الحركة الدّؤوبة، الصّاخبة بوجه أو بآخر، للباعة والمتفرّجين على البَسطات، التي لا بدّ أنها كانت تجمع الكثير من الإشبيليين الأندلسيين حول المسجد، وحتى داخل الصّحن، يبدو ابن عبدون أقلّ تسامحاً من أئمة مسجد قُرطُبة، ويدعو إلى عدم السّماح بقراءة القرآن في الصّحن، وإنما في حَرَم المُصلّى فحسب، حيث يتوفّر الهدوء.

إلا أنه، فيما يتعلّق بشيوخ العلوم الإسلامية، يطلب من القاضي أن يكلِّف رجلاً صالحاً وفقيهاً بالعلوم الإسلامية، بتفقيه النّاس في أروقة المسجد بشؤون الدّين، والأمر بالمعروف، إلخ. كما يطلب من المحتسب (الموظف والقاضي الذي يراقب احترام القانون والعادات الطّيبة)

إشبيلية. البرج المسّمى ببرج «الذّهب». «طلاَّية» Atalaya بجانب «الوادي الكبير».



أن يمنع ربط الدّواب – التي كان يأتي بها التّجار – في الأروقة، فوجود الرّوث الذي تطرحه عن كثب، من شأنه أن ينقض طهارة المؤمنين بعد وضوئهم. ويؤكّد على ضرورة احترام هذه التّوصية لأهميّتها القصوى.

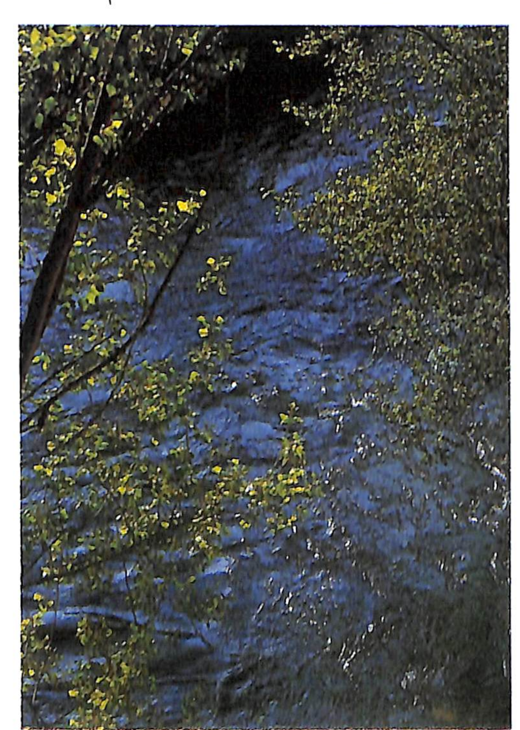
بعد نصف قرن من ذلك، أصبح ذلك المسجد غير كافٍ لاستقبال العدد الكبير للمؤمنين الذين كانوا يأتون لصلاة الجمعة. ولهذا السّبب، أمر السّلطان الموحّدي، أبو يعقوب يوسف (1163–1184)، في سنة 1172 م بتشييد مسجد عظيم وصومعة بحجم يضاهي حجم المسجد (وهذه الصّومعة هي البرج الذي نسمّيه اليوم «لا خيرالدا» La Giralda).

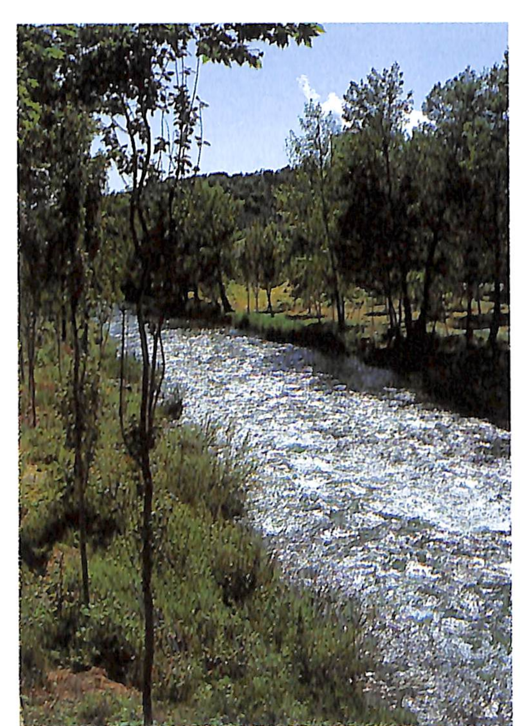
ولربما أثّرت في نفس الخليفة الموحّدي، بالإضافة إلى ضيق المكان، الرّغبة في تقليد إنجازات الخلفاء الأمويين القُرطُبيين السّالفين، وذلك بتشييد مسجد وصومعة تنافس تلك الموجودة بقُرطُبة.

كان صحنها – الذي لا يزال محفوظاً إلى الآن، ويعرف باسم «صحن البرتقال» – كبيراً كصحن قُرطُبة، كما كان يضمّ ميضأةً وماء متدفّقاً بشكل دائم في الأحواض.

عذوبة الماء وجودته

كان الاهتمام بنقاء الماء أمراً ثابتاً في العالم الإسلامي، حتى في المناطق التي لم يكن من السّهل فيها الحصول عليه. وبالنّسبة للمسلم، خلق الله الماء عذباً، دون زيادة أو دَرَن.





الصّورة على اليمين

«تريّو» Trillo (غوادالاخارا). نهر التّاج.

الصّورة على اليسار

«بالتابلادو دِل ريو» Valtablado del Río (غوادالاخارا). مجرى التّاج العالي.



حمّة أراغون. تشتهر بعيونها الساخنة، التي كانت ذات قيمة كبيرة في الأندلس.

فماء المطر عذبٌ ما لم تكن به بقايا أو أجسام غريبة؛ ولذلك، فإنّ الأندلسيين كانوا يخزنونه في الجباب التي كانت ببيوتهم، عبر مزاريب كانت تستقطب ماء المطر لحظة هطوله، لتمرّ، عبر مصافٍ سميكة، إلى حوض الجُبّ.

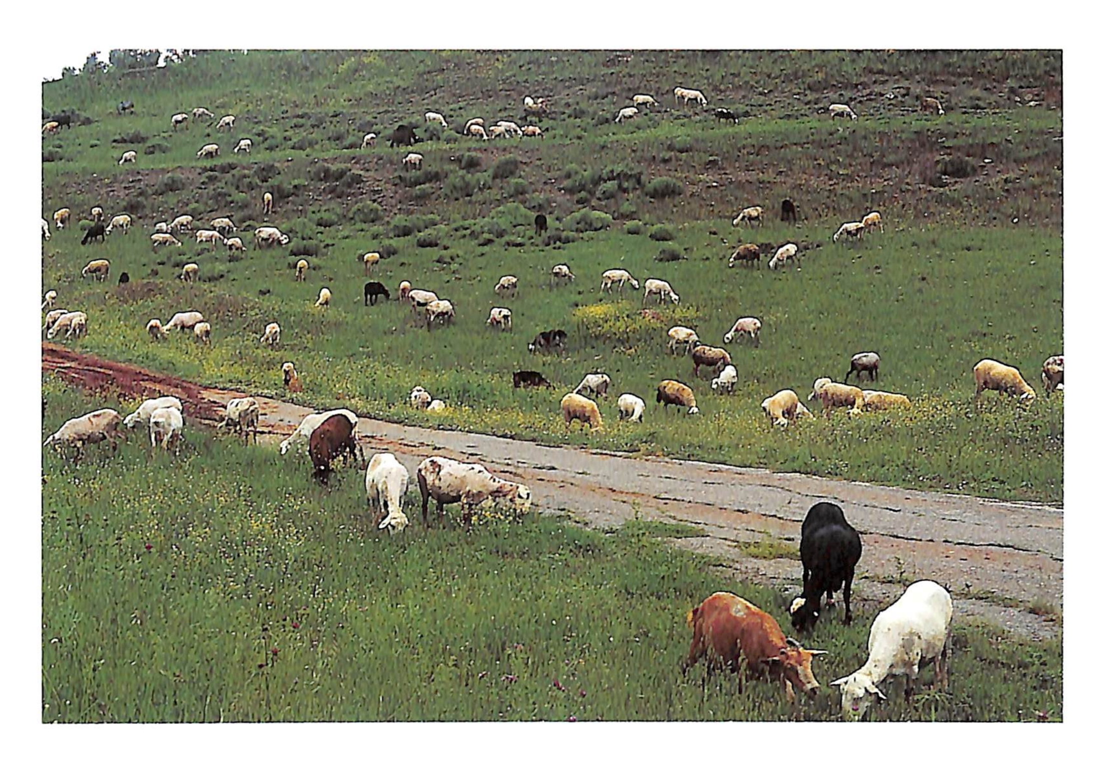
أمّا المياه الجارية، غزيرة الدّفق – حوالي 300 لتر – فهي مياه عذبة ما لم تطرأ عليها تغيّرات في المذاق أو الرّائحة أو اللون على طول المجرى.

يتم التّأكيد على انتباذ الماء الذي يكون مصدره من المناطق التي تُربَط بقربها المواشي والدّواب، والتي تُسقى فيها الحيوانات، ذلك أن دوسها المستمرّ لمحيط الضّفاف، وروثها ودخولها في الغدير لكي تشرب، يكدّر الماء ويلوّثه.

ومّما يعتبر عذباً الماء الذي ينبع من عين ويتدفّق دون توقف على قاعدة من الأحجار المكوّرة. وكذلك الماء الذي، على طول تياره، يتدفّق على مجرىً نقيّ؛ لكنه ليس يعتبر كذلك إن كان بالمجرى وحلٌ أو وسخ.

وكذلك لا تعتبر المياه الرّاكدة عذبةً ولا نقيّة، بل تُعدّ فاسدة عموماً. أمّا المياه المخزَّنة في

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (القرآن، النحل، 10).



أحواض نظيفة فيمكن أن تعتبر صالحة، ما دام يُتأكد باستمرار من أنها لم تشهد أيّ تغيير.

والماء الطّهور، إذن، عنصرٌ أساسيّ لتأدية الواجب الدّيني على أكمل وجه بالنّسبة للمسلم المتديّن. وفي هذا الصّدد، هناك قصة طريفة:

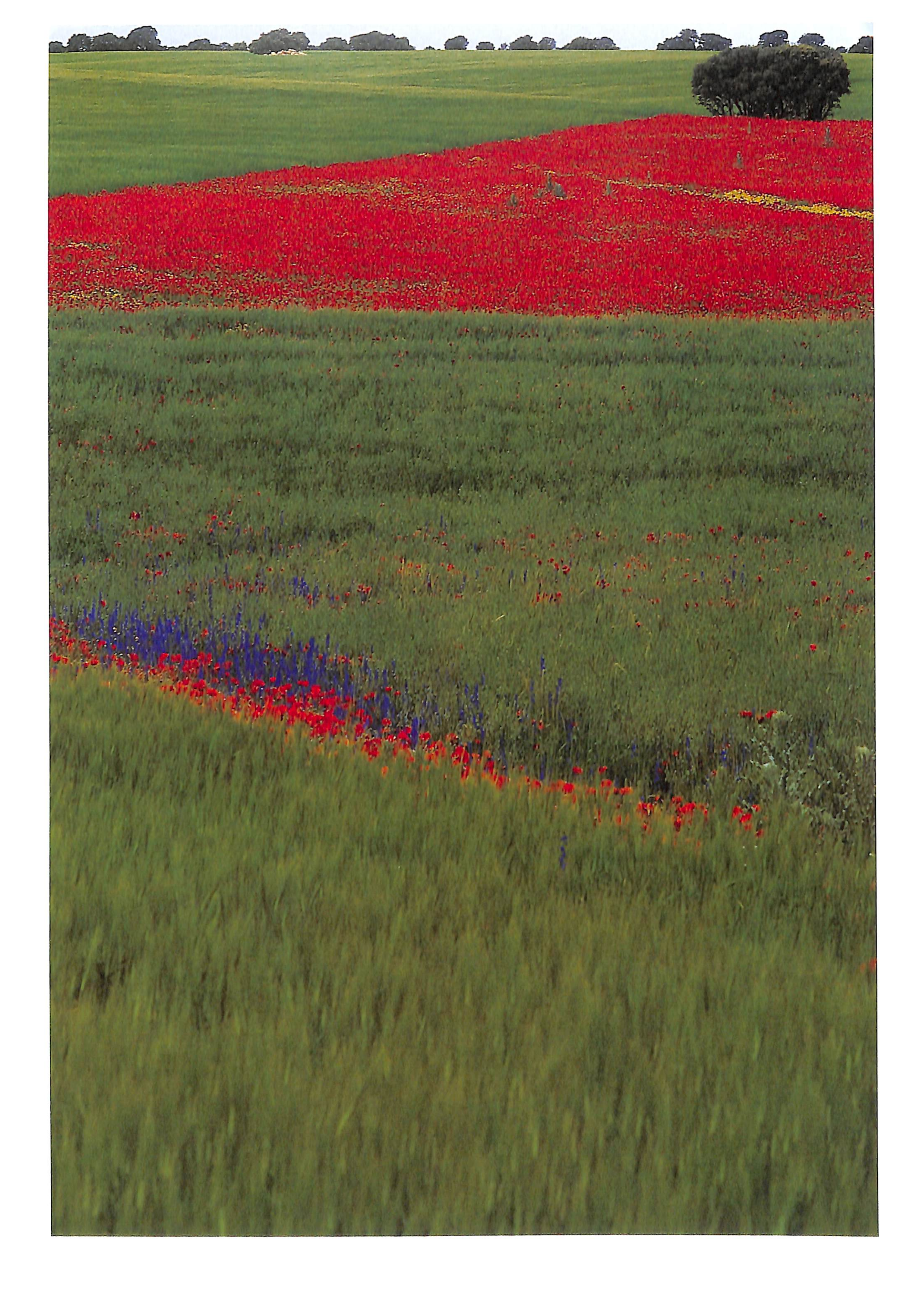
في إحدى المرّات، ذهب رجل ثري من المدينة، لم يكن تامّ الحرص على تأدية واجباته الدّينية، وإن كان يتظاهر بالورع، إلى قرية ليقضي بعض الأعمال.

وعندما حان وقت الصّلاة، انصرف أهالي الضّيعة الطّيبون عن أعمالهم للذّهاب إلى المسجد الصّغير بذلك المكان. فالتزم ذلك البورجوازي بالواجب، وإن كان فقط درءاً للحرج. وعندما وصل إلى المسجد، سأل عن الميضأة لكي يتوضّأ؛ فأجابه إمام المسجد ببساطة أن لا وجود لميضأة هناك ولا حتى لحوض، وبأن الماء يُجلب في جِرار من عينٍ غير بعيدة؛ ثم أعطاه دلواً نظيفاً مليئاً بالماء لكي يتوضّأ قبل الصّلاة.

بدأ الرّجل الطّيب بوضوئه منحنياً على الدّلو أمام باب المسجد، بينما كانت مجموعة من الصّبية تراقبه، عن كثب، بفضول كبير. ظنّ البورجوازي، وقد أخذه العجب بنفسه، أنّ حضوره الجذّاب قد أبهر صبية الضّيعة. فذكر ذلك للإمام. صمت هذا الأخير قليلاً، ثم أفهم البورجوازي بهدوء بأن ما قد أدهش الصّبية هو أن رجلاً من المدينة مثله لا يعرف كيف يتوضّأ، فقد كان وهو يقوم بذلك يترك قطرات الماء التي تتقاطر من وجهه وساعديه ورأسه تسقط داخل دلو الماء، فيفسده بذلك، ويجعله غير طاهر للوضوء.

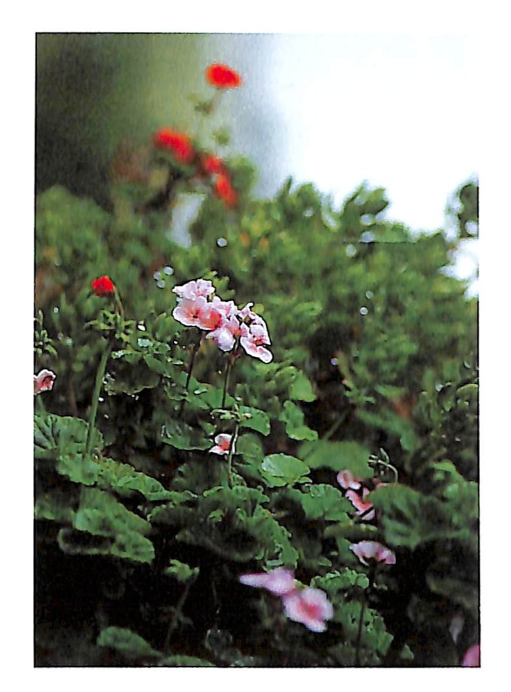
فنحسب أنّ هذا البورجوازي الطّيب قد تعلّم الوضوء خلال حياته، بأخذه الماء من الدّلو دون أن يصبَّ شيئاً داخله، مثبتاً بذلك مهارته.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ ﴾ (القرآن، النحل، 11).



الصّورة على اليمين
حقل زيتون في «ألباثيتِه» Albacete (البسيط).





الصّورة على اليسار
المطر، الذي يُنبِت الأزهار، كان يعتبر هبة إلهية في الأندلس.

من خلال الأوصاف الجغرافية للأندلس، التي دوّنها الجغرافيون العرب، يتأكد لنا هذا الاهتمام بجودة الماء؛ وحتى بجودة المياه السّاخنة. ويصف لنا المُصنِّف الحِمْيَري (القرن الرّابع عشر) حمّة للمياه السّاخنة (حَمَّة ألمِريَّة)، على مقربة من مدينة «بِتشينا» Pechina (مدينة بيانة)، التي كان ميناؤها أشهر ميناء في الأندلس بأسره:

> «وبشرقيّ «بَجانة» على ثلاثة أميال (...) الحمَّة العجيبة الشّأن ليس لها نظير في الأندلس في طيب مائها وعذوبته وصفائه ولدونته ونفعه وعموم بركته، يقصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النّواحي فلا يكاد يخطئهم نفعُها، وعليها بناء للأُول صهريج إلى جانب العين مربع واسع (...) واتخذوا على ذلك الماء قرية كثيرة الزّيتون والأشجار وضروب الثّمار يسقى جميعها من ذلك الماء تعرف بقرية الحمّة»[3].



قرمونة Carmona (إشبيلية). منظر بانورامي. في الخلفية، حقول الزّيتون، التي يحييها ماء المطر، كما تشير الآيات القرآنية.

ماء المطر كهبة من السّماء

سبق وأن ذكرنا بأن الماء الذي يكون مصدره المطر، بالنّسبة للعالم الإسلامي، هو هبة ربّانية بامتياز. فالعديد من السّور تشير إلى المطر كنعمة من الله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ ﴾.

(القرآن الكريم، سورة النّحل، الآيتان 10 و11)

وكانت الأمطار في الأندلس تُستقبل بِبهجة، وكان هذا الحدث، مع أخبار أخرى مثيلة، يدَّون بعناية لدى الإخباريين:

«وفي آخر ليلة بقيت من سنة ستين وثلاثمئة المنسلخة (23 من أكتوبر 971 م) هبّت رياح عاصفة ولاحت بروقٌ لامعة وقصفت رعودٌ مفزعة وتنزّل مطرٌ وابلٌ روى البسيطة وتنزَّلت في عَقِب المحرَّم منها (العشر الأواخر من نوفمبر) أمطارٌ ثرَّة امتدّت الزّراعة بها من كل جهة».

(...)

«ثم نزل الغيث من أول يوم الجمعة لعشرٍ خلون منه (محرّم) فاتصل يومئذٍ (11 أكتوبر 973 م) ومكَّن من الاحتراث، فشرَع النّاس في حرث القصيل، وتوقف السّعر وكان فارعاً مرتقاً. واتّصل نزول الغيث المروي إلى النّصف من محرَّم، فانطلق الحرث وابتدر العام بكل جهة، واستبشر النّاس بالخصب والرّحمة»[4].

لكن، كما هو الشّأن الآن، عانت الأندلس من فترات جفاف طويلة دمَّرت الحقول. وكما هو في الفترات القريبة، كذلك في الأندلس كانت تنظّم صلوات جماعية لطلب أمطار الخير:

«غاب المطر في آخر دجنبر الشّمسي عن قُرطُبة وضواحيها. جفّت الجباب، وتوقفت الزّراعة وزاد القحط. ورأى النّاس أن لا بدّ من صلاة الاستسقاء لطلب الغيث (بالمسجد)... لكن القحط استمرّ فخرج النّاس لصلاة الاستسقاء، وكان أول خروج لهم في مصلّى الرّبض».

وبعد عدّة صلوات جماعية:

> «أكثر (القاضي أبو عيسى القُرطُبي) الدّعاء فاستجاب الله لدعائه، فجاء المطر يوم السّبت بعد الصّلاة، فارتوت أرض البلاد، وبادر النّاس بالاحتراث، ونزل السّعر، واطمأن العِباد»[5].

كان في الأندلس، خاصّة في الفترة الموحِّدية (القرن الحادي عشر إلى الثّالث عشر)، مجموعة من المسلمين الأتقياء المعروفين بحياة التّقوى والوَرَع، تُنسب إليهم سلسلة من الكرامات التي منحها الله إياهم؛ ومن ضمنها، سُقيا المطر.

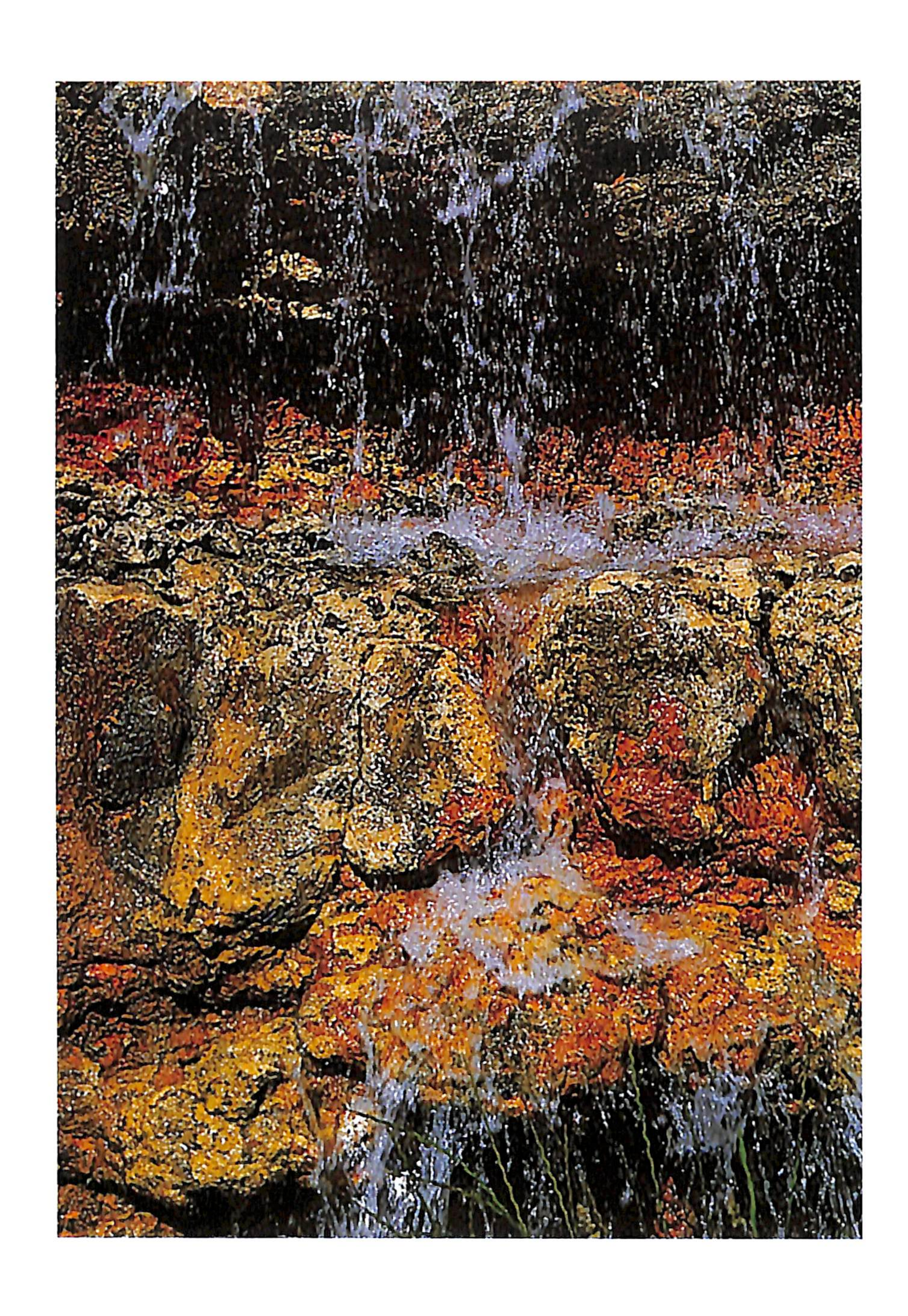
ويخبرنا الصّوفي الكبير، ابن عربي المرسي (1165–1240 م)، وقد عاصر بعضهم وتتلمذ على يدهم، عن أولئك الرّجال والنّساء الذين عاشوا في الأندلس، في كتابه «رسالة القُدُس».

وقد تمّت ترجمة هذا العمل وتحقيقه بشكل بارع، في سنة 1933، على يد أحد أكبر المستعربين الإسبان، وهو ميغيل أسين پالاثيوس Miguel Asín Palacios.

في الكتاب المذكور، يخبِّرنا ابن عربي المرسي، من ضمن شخصيات أخرى، عن أحد أوائل شيوخه في الكمال الرّوحي، واسمه أبو جعفر العريبي، وكان قاطناً بإشبيلية، ويروي لنا ذلك كشاهد عيان:

> «وكان بدوياً أمياً لا يكتب ولا يحسب، وكان إذا تكلّم في علم التّوحيد فحسبُك أن تسمع، كان يقيّد الخواطر بهمّته ويصدع الوجود بكلمته (...) أكثر دهره صائماً (...) ومن أخباره أنه قيل له وهو بإشبيلية عندنا: إن أهل قصر كُتامة يحتاجون إلى المطر فسِرْ إليهم فاستسقِ لهم لعلّ الله أن يسقيهم، فخرج لذلك وخرج معه خادمه محمّد، وبيننا وبينهم البحر ومسيرة ثمانية أيام، فقال له بعض أصحابه: ادعُ الله لهم من هنا، قال: أُمِرتُ بالخروج إليهم، فخرج من عندنا، فلما وصل قصر كُتامة وأشرف عليه، مُنِع من دخوله فاستسقى لهم وهم لا يشعرون، فسقاهم الله في الحين، فرجع من ذلك الموضع ولم يدخل البلد حتى وصل إلينا، فقال لنا محمّد خادمه الذي مشى معه: لمّا سقاهم الله ونزلت الأمطار، كان الغيث ينزل عن يميننا ويسارنا وخلفنا. ونحن نمشي لا يصيبنا منه شيء، فقلت للشّيخ: عزَّ علي حيث لم تصبك رحمة الله عز وجل، فصاح وقال: فُزتُ بها يا محمّد، يا حسرةً لو تذكَّرتها هناك»[6].

أي أنّ أبا جعفر ما كان يحتاج الخروج من إشبيلية.



«تريّو» *Trillo*. «وادي الحجارة». ماءُ منبعٍ، بين حجر الصّلصال.

الفصل الثّالث

المياه الخفيّة والتّقنيات السّحرية

معجزة الماء

توجد تحت الأرض مفاجآت، خزَّانات للمياه الجوفية مصدرُها تسربات المطر، الذي بعد أن يعبر الطّبقات النّفوذة، يتجمّع عندما يصل إلى مستوى كتيم للماء؛ أو أحواض ألفية حقيقية متجمّعة في حُفَر كبيرة حجرية تحت الأرض، تسعى للجريان، كأنهار في عالمها بلا نور، تحاول الخروج إلى السّطح على شكل عينٍ أو نبع.

والتّاريخ مليء بأحداث تكاد تكون مُعجزة، والتي فيها دائماً، بعد التّدخل الإلهي المباشر أو غير المباشر، تتفجّر عينٌ أو نبع، لتعطي بذلك للمكان صبغة مقدسة. ولعلّ الإنسان، من خلال هذه القصص، يستوضح بجلاء المغزى الإعجازي الذي يمتاز به كل لقاء مع انبثاق للمياه الجوفية.

وصورة «الزّهري» zahorí أو المستنبئ – من الكلمة العربية «زُهَري» – وهو يحمل عصا الاستدلال بيده، لمحاولة استكشاف المياه الجوفية، كانت مألوفة دائماً. وفي وقتنا الحالي ما يزال هذا النّظام موجوداً بالشّكل العصري لُمستكشف المياه الجوفية.

لكن، سواء تعلّق الأمر بمعجزة أم لا، فما هو حقيقي أنّ العرب كانوا ذوي خبرة كبيرة بتقنية القنوات، أو المجاري الباطنية التي تعلّموها في فارس، وبلاد ما بين النّهرين والشّام، ليصبحوا بذلك معلّمين مُحنّكين، ونشروها في شمال إفريقيا والأندلس بأسرهما.

شبكات القنوات العربية

لعلّ ما يسمَّى بـ«القناة» نشأ، في العصر الآشوري القديم، كتقنية منجمية مساعِدة، لاستغلال المياه الجوفية بواسطة أنفاق للصّرف، باستخدام آبار المناجم.

كانت قنوات الرّي الباطنية توصل الماء من الخزّان الموجود تحت الأرض إلى حيث يُحتاج إليه. وكان تخطيطها أفقياً أو مع انحدار بسيط، وقد يقتصر الأمر على قناة واحدة أو يتعقّد، عندما ستصبح التّقنية أكثر تطوّراً، في شبكة من التّوصيلات، ومتاهة حقيقية تحت الأرض. وكانت أبعاد النّفق مهمّة، بمتر في العرض، و1.80 في الارتفاع، وبالتّالي كان بإمكان شخص

واقف أن يمرّ بطوله. كانت قناطر باطنية حقيقية، مغلّفة بالآجرّ من الدّاخل، خاصّة في المناطق التي كان الحجر فيها قابلاً للتّصدّع.

وعلى مسافة كل قطعة (حوالي 50 متراً)، كانت تُعمل حُفَرٌ للتّواصل مع السّطح، وكانت هذه الحُفر تستعمل، في الوقت ذاته، لنبذ الأنقاض المتجمّعة في التّجويف إلى الخارج من خلالها، وتشكيل تيّار للتّهوية، يمنع تجمُّع الغازات وتلوّث الماء. بل إن تيار الهواء، إذا ما كان مُهماً، كان يساعد الماء على الجريان بسرعة أكبر. وكانت هذه الحُفَر أحياناً تُشكّل آباراً عمودية عميقة، يصل عمقها إلى غاية 55 متراً، في تلك الأجزاء الأكثر قرباً من خزّان منبع المياه الأم.

من العجيب مشاهدة منظر القنوات ببعض المناطق في إيران، حيث كثرة الآبار المحفورة مع بقايا متجمّعة على سطحها، حول فم البئر، تعطي انطباعاً بأنها مسكن للمناجِذ. كما أنها تكثر في منطقة جنوب المغرب، على وجه التّحديد في تافيلالت ومَرَّاكُش والنّواحي، حيث تعرف باسم «الخُطَّارة». ولقد نشأت، على ما يبدو، لأول مرّة في عهد المرابطين (القرن الحادي عشر) على يد مهندس يدعى ابن يونس، الذي جلب الماء بهذه الطّريقة إلى المدينة، ثم بدأت بالانتشار في الحدائق. وفي الوقت الرّاهن، توجد 350 قناة، يبلغ طول كلٍّ منها 5 كلم.

وفي الأندلس، انتشرت القنوات في عهد الأسرة الأموية، خلال القرن الثّامن، ومن ضمن شبكة القنوات بإسپانيا التي بوسعنا أن نشاهدها إلى الآن، توجد قنوات مدريد، التي كانت تسوق الماء من عيون نهر «وادي الرّملة» إلى غاية البلدة، وقنوات «كريبيّنتِه» Crevillente (أليكانتِه Alicante)، وطول هذه الأخيرة يصل إلى 1500 متر، ولها تسع عشرة بئراً للتّهوية.

وهناك العديد من المؤلِّفين العرب الذين تركوا رسائل قد تطول أو تقصر، حول هذه التّقنية الهيدروليكية. وأحد النّماذج أبو بكر بن وحشيّة، مؤلف كتاب «الفلاحة النّبطية»، وهو عمل قيّم من ضمن هذا الجنس، كان في القرن العاشر قد اشتهر كثيراً في الأندلس، ومكَّن من انتشار هذه التّقنيات القديمة للرّي. لقد كان، إذا ما صحَّ لنا القول، دليلَ الاستشارة لكل المهندسين المسلمين -المُقَنِّين أو القنَّائين - ولقد ألهم بالفعل باقي المؤلفين.

القانون المهني ومنهجية البحث عن الماء

ألّف أحد هؤلاء القنَّائين، الكرَجي، وهو عالم رياضي عجمي مشهور، يعود أصله إلى الكرج (بالقرب من طهران)، حوالي سنة 1010 م «كتاب إنباط المياه الخفية»، الذي يتألف من ثلاثين فصلاً.

وفي محتواه، يصف الكرجي بشكل تفصيلي - كما جرت العادة بين المؤلفين العرب - جميع التّقنيات التي يجب تطويرها حول شبكة القنوات. ويشرح لنا في المقدّمة سبب تأليفه لهذا الكتاب:



عين بجبال الأطلس، في المغرب.

«فلست أعرف صناعة أعظم فائدة وأكثر منفعة من إنباط المياه الخفيّة التي بها عمارة الأرض وحياة أهلها».

بالإضافة إلى ذلك، يحلّل الكتاب عناصر تجعله ذا حداثة علمية طليعية لذلك العصر، إذا ما أخذنا بالاعتبار أن الأمر يتعلّق بمؤلّف من مؤلّفي القرن الحادي عشر. فإلى جانب دراسة الجغرافية الطّبيعية للأرض - البحار والأنهار والجبال - يحلّل خواص التّحتُربة التي تجري فيها القنوات الجوفية: الصّلابة، والطّابع الرّملي، والهشاشة، إلخ.

كما أنه يلقّن الطّريقة والمواد التي يجب أن تُبنى بها المجاري: الفخّار، أكثر اتساعاً عند المدخل منه عند المخرج، حتى يتسنّى تركيبها فيما بينها؛ وفي نقطة الالتحام ينبغي وضع طبقة من المِلاط، ومن الدّاخل، دهنها بشحم الثّور أو زيت الزّيتون حتى تغدو صلبة.

ثم إنه يعطي تعليمات حول سبل الوقاية ولباس عمّال المجاري، مستبقاً بذلك القانون الاجتماعي للسّلامة والصّحّة المهنيّة بقرون: فعلى عمال المجاري أن يلبسوا سترة من جلد العجل



بحيرات «رويديرا» Lagunas de Ruidera (لا مانتشا). انبثاق الماء من منبع للمياه الجوفية من بين أحجار كلسية نفوذة.

المخيط، مدهونة بشحم الثّور المذوّب حتى تصبح غير نافذة. وينبغي حماية الرّأس والوجه بغطاء رأس أيضاً من الجلد غير النّفّاذ.

كما أن المؤلف يحذّر من خطر الغازات في داخل الآبار - البُخار - ويعطي نصائح لعمال المجاري، ليأخذوا معهم الخلّ وقِطعاً من البطّيخ الأندلسي لوضعها في الدّاخل، وإذا لم يكن ذلك كافياً، ينصح بفتح قنوات للتّواصل بين الآبار لزيادة التّهوية.

وهو يصف بكل تفصيل كيفية تحديد ارتفاع الأماكن التي ستمرّ بها المياه الجوفية؛ وكيفية استكشاف وجود المياه الباطنية من خلال دراسة النّباتات الموجودة في المنطقة.

ويضع تصنيفاً للأنواع المختلفة للمياه: العسِرة، اليسِرة، العكرة، السّاخنة، العذبة، والكدِرة. وبشكل يثير الدّهشة، يتحدّث عن طريقة لتطهير الماء، في إطار ذلك الطّلب لجودة الماء الذي تدعو إليه مختلف مجالات النّظام الاجتماعي الإسلامي: يمكن تنقية الماء الفاسد بإضافة تربة الخزّاف المطحونة إليه - الطين الحُرّ - أو الفخّار. وبذلك يزول طعمه المُرّ أو عُسره. وهي عادة



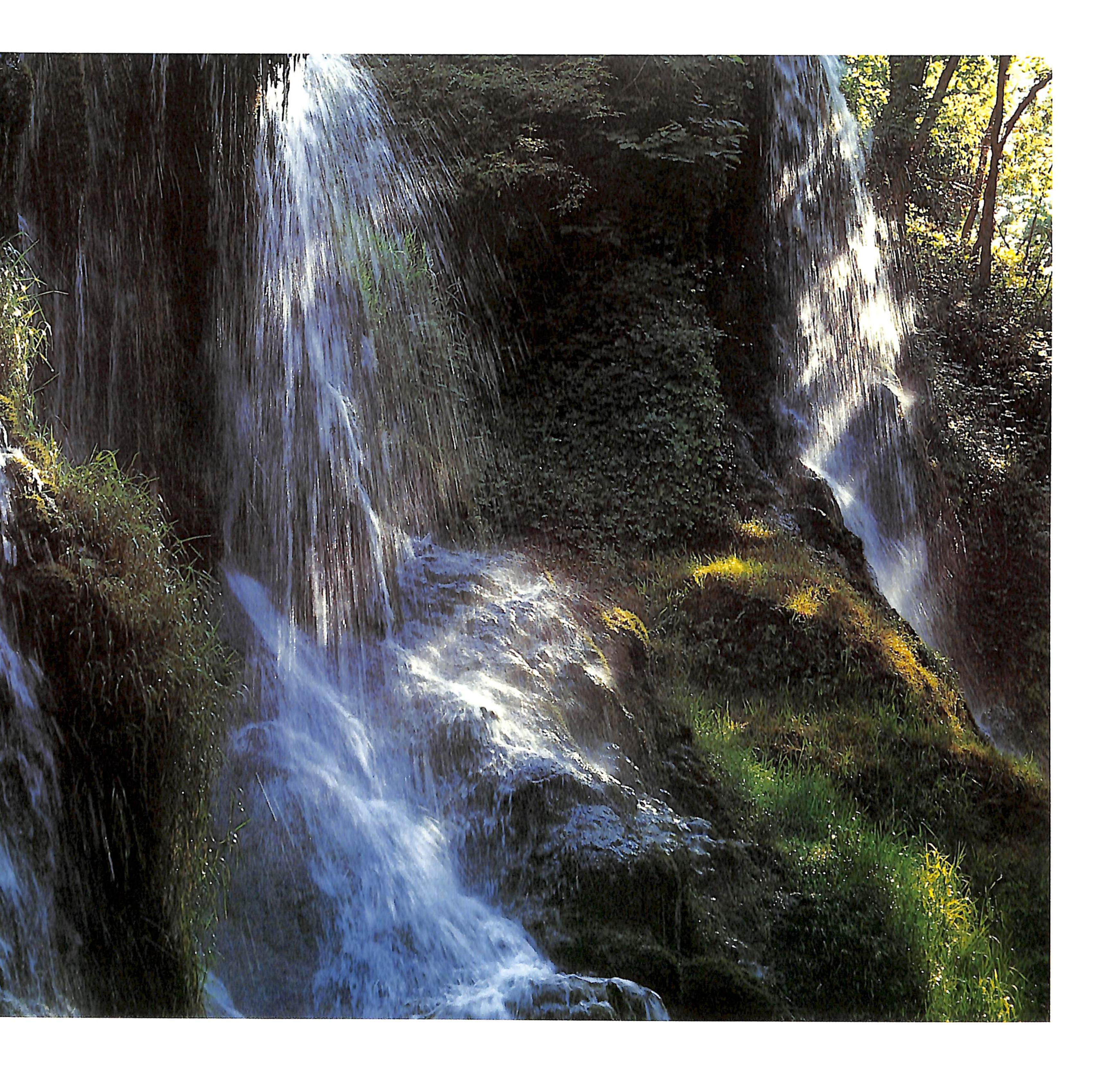
منظر من بحيرات «رويديرا».

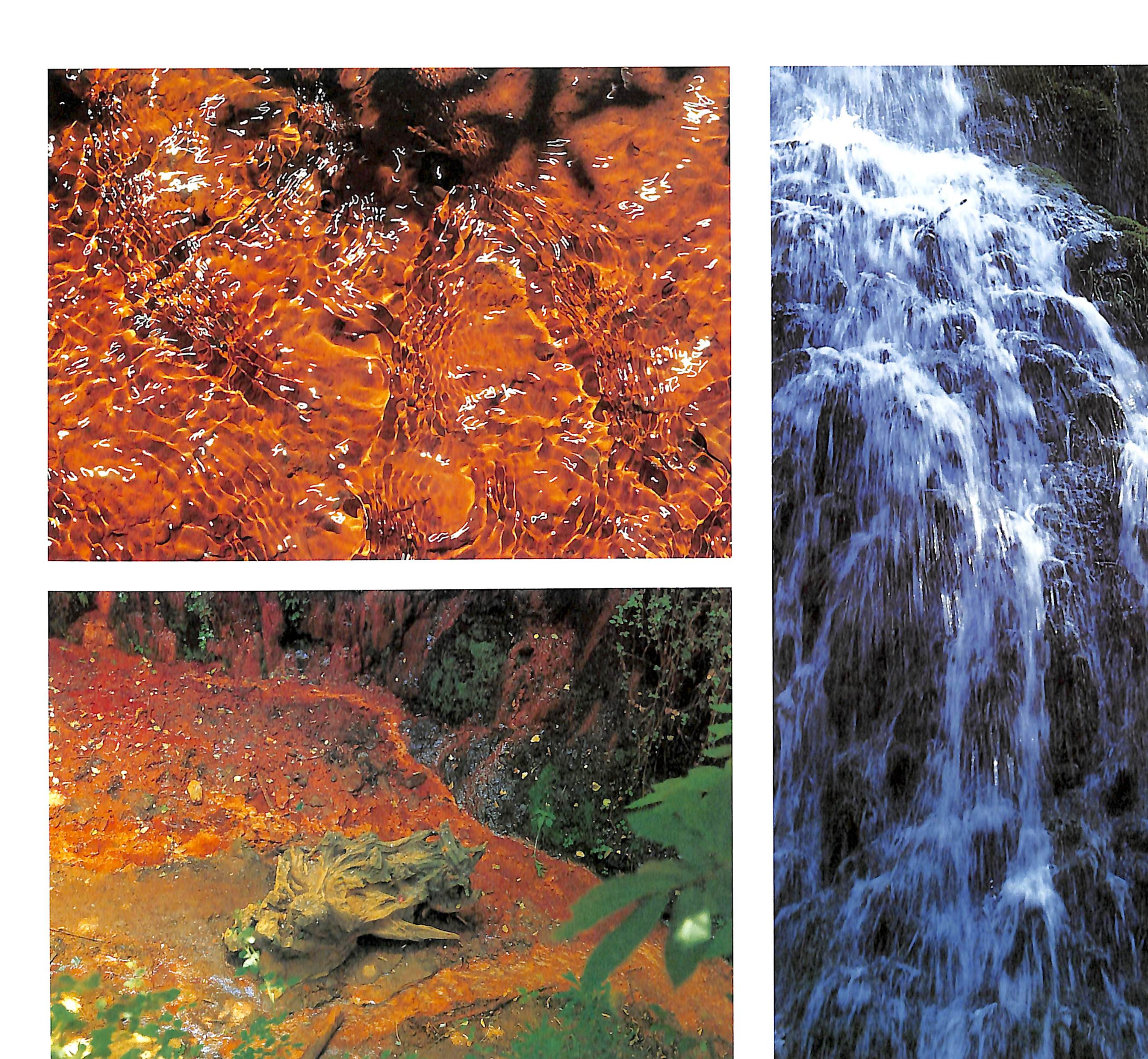
للتّنقية، على ما يبدو، لا تزال موجودة إلى اليوم في بعض المناطق القروية.

لكن محتوى كل هذه الكتب لم يكن يقتصر على كونه ببساطة أدباً للمثقفين، وإنما كان ينتقل إلى التّطبيق في الحياة اليومية: فقد كان مالك الأرض بالأندلس - أو في أي مكان بالعالم الإسلامي - إذا ما اعتبر أنه يحتاج إلى الماء في جزء من أجزاء حقله، يكلف قنّاءً - مهندساً للقنوات الجوفية. وكان هذا الأخير يبدأ بالاختبار الدّقيق للأرض لمعرفة إذا ما كان الماء قريباً من السّطح أم لا، من خلال نباتات المحيط، ونوعية الأرض، إلخ.؛ كما كان يفحص انحدار الأرض، إلى أن يقرّر النّقطة التي يجب أن يحفر فيها البئر عمّال الحفر.

وإذا ما عُثِر على ماء وافر، تكون تلك هي البئر - الأم، ومنها، إلى أن تصبّ في المكان الذي يُحتاج فيه الماء، كانت تُخطُّ قناة بتقنية متقنة.

ومن المهم أن نفحص ما يقوله ابن العَوَّام، عالم الزّراعة الإشبيلي المشهور الذي عاش في القرن الثّاني عشر - والذي سنعود للحديث عنه - في «كتاب الفلاحة»، حول طريقة فتح الآبار في





«موناستيريو دي پييدرا» *Monasterio de Piedra* (سَرَقُسطة). كانت منابع الماء أحياناً تُربط بشكل من أشكال المعجزة.

الصّورة في الأعلى: «لا ألپوخارَّا» *La Alpujarra*. منبع للمياه الحمضية. جزءٌ من المياه الحديدية، التي تعتبر مياهها مياها عسرة.

الصّورة في الأسفل: «لا ألپوخارَّا» *La Alpujarra*. «بورتوغوس» *Pórtugos*. منبع للمياه الحمضية.

الحدائق والبساتين الأندلسية، والعلامات التي يُعرَف بها إذا ما كان الماء قريباً من السّطح أم لا:

الصّورة في الأعلى
قصبة مالقة Málaga. بئر في إحدى الأفنية.

«من أحبَّ أن يفتح بئراً، قالوا يُستدلّ على ذلك بأنواع النّبات وبلون وجه الأرض وبطعمه وريحه وغير ذلك ممّا يُذكر بعد إن شاء الله تعالى (...) فاعلموا ذلك وانظروا إلى وجه الأرض، فإن كانت دسمة التّربة، سوداء اللون أو شديدة الغُبرة، سدمة في المِجسَّة، إذا أصابها أدنى ماء، فاعلموا أنها أرضُ ماء، وأنّ الماء في غورها وفي عُمقها كثيرٌ ممكن (...) فإذا نبَع الماء يؤخذ منه في كوز ويُذاق، فإن كان حلواً فيُتمادى في العمل، وإن كان متغيّر الطّعم فيُمسك عن العمل قليلاً ثم يذاق مرّة أخرى، فإن كان على الحقيقة متغيّراً إلى الملوحة، فيُستمرّ على العمل»1.

بهذه الطّريقة، كانت للمالك الزّراعي الأندلسي كل الضّمانات بأن الماء، سواء للاستهلاك المنزلي أو للرّي، سيكون ذا جودة، ولا يضطرّ إلى اللجوء بشكايته إلى سلطات الإدارة الإسلامية، ففي ذلك الحين، كما سنرى لاحقاً، كانت حماية المستهلك أمراً فاعلاً موجوداً.

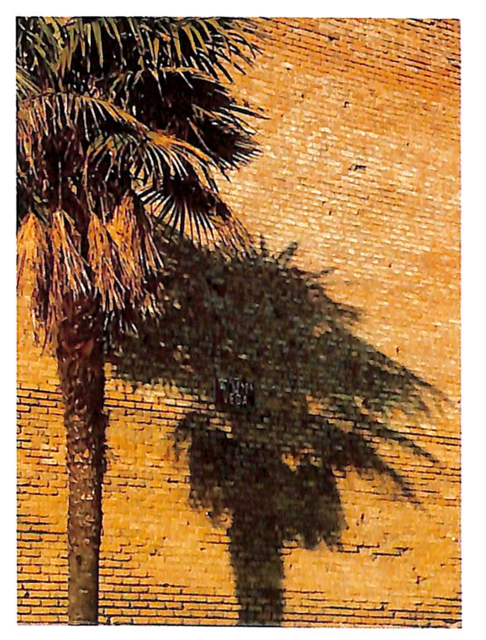
القنوات المدريدية

لم تكن شبكة القنوات تصلح للفلاحة فقط، بل أيضاً لسَوق الماء إلى المدن، كما كان الشّأن في مَرَّاكُش. وفي الأندلس، كان كذلك الشّأن بالنّسبة لـ «وادي الحجارة» Guadalajara، وكريبيّينتِه Crevillente، وقادس Cádiz ومدريد.

كانت شبكة القنوات الشّهيرة بمدريد (وهي مدينة يشير اسمها إلى الماء: «مجريط» من الأصل العربي «مجرى» أو «قناة للماء») موضع ثناء بقدر ما كانت موضوع نقاش من قِبل الكتّاب المعاصرين. إلا أن العمل الذي خصّصه لها الأستاذ أوليڤير أسين Oliver Asín، في كتابه «تاريخ اسم مدريد» *La historia del nombre de Madrid*، إثر اكتشافها، يستحق كل تقديرنا.

كانت «مجريط» التي أسّسها الأمير الأموي محمّد الأول، في سنة 871 م، ساحة صغيرة بين ما يُعرف اليوم بموقع «القصر الملكي» Palacio Real، و«ساحة المشرق» Plaza de Oriente، وشارع «سان نيكولاس» San Nicolás و«ساكرامِنتو» Sacramento. وقد تم تأسيسها كساحة دفاعية في الطّريق إلى جبل «وادي الرّمل»، التّابع لطُلَيطُلة. وفي تخطيطها، تتكرّر جميع المرافق المعتادة للمدينة الإسلامية: القَصَبة («المُدينة» Almudena)، المسجد الجامع، الحمّامات، الأسواق وعدّة أحياء أو أرباض.

الصّورة في الأسفل
مدريد. «عقبة لا ڤيغا» Cuesta de la Vega، التي كانت تؤدّي إلى الحصن العربي أو «المُدينة».



كانت، وهي جاثمة على مرتفع ينبع على سفحه نهر «منثاناريس» Manzanares، بعيدة بعض الشّيء عن مياهه، بحيث يتسنّى لها استغلالها. ومع ذلك، وعلى مرّ التّاريخ، كانت مدريد دائماً تُعرف بـ«المدينة المشيّدة على الماء»، ويعزى ذلك إلى أن الأسطورة كانت تقول بأنه، تحت أرض مدريد، كانت توجد العديد من مجاري الماء. وبكل تأكيد، كان الأمر يتعلّق بشبكةٍ للقنوات.

وهو لُغز، كما قال لوپه دي ڤيغا Lope de Vega وهو على حقّ تام، ولأسباب أخرى، رافق دائماً تاريخ مدريد: نعني «لُغز الماء».

طبّق العرب المؤسّسون لمدريد تقنية شبيهة بتلك التي يصفها الكرجي، ولا بدّ أنهم عثروا على الخزّان – الأم. لبناء القنوات، كما أنهم استعملوا الآجرّ في الأنفاق المحفورة، التي كانت بالارتفاع الكافي الذي يسمح بمرور شخص واقف على رجليه؛ والمواسير كانت من الفخّار. على ما يبدو، فإن مجموعة القنوات المدريدية تتضمّن شبكة من الأنفاق يبلغ طولها ما بين 7 و10

أمتار، أما آبار التّهوية إلى السّطح أحياناً فيتجاوز عمقها الخمسين متراً. كل ذلك موزَّع ما بين أنفاق أساسية، وأخرى ثانوية، أطلق عليها اسم «سيقان» canillas، لارتباطها بالقنوات، وهي المعروفة باسم «أنابيب الماء» المدريدية.

كانت الأنفاق الرّئيسية الأكثر أهمّيّة هي أنفاق «أبرونيغال» الأعلى El alto Abroñigal و«أبرونيغال» الأسفل El bajo Abroñigal، والتي ما تزال بعض أجزائها موجودة إلى الآن. ينطلق الأول، الذي ما يزال صالحاً للاستعمال، من «كانييخاس» Canillejas ويصل إلى مركز البلدة، مروراً بـ«لا ثيبيليس» La Cibeles. على ما يبدو، فإن النّافورة (سبيل الماء) الموجودة في شارع «ألكلا» Alcalá (القلعة)، بزاوية شارع ثيبيليس Cibeles، والتي يَنسب إليها أهل مدريد خاصّيّات شفائية، هي نافورة الماء الوحيدة التي قد بقيت من تلك التي كانت تزوِّدها القنوات.

لقد زار أوليڤير أسين هذه «الأنابيب» المدريدية على أجزاء، كالذّاهب من «كولون» Colón باتجاه شارع سيرَّانو Serrano. في كتابه الآنف الذّكر، ويصف لنا بأن عرض الأنفاق يبلغ 90 سنتيمتر، وارتفاعها 1,90 متراً، مغلّفة بطبقة من الآجر على شكل قوس مقبّب، وبعضها غير مغلَّف، على شكل «ظهر حصان». ويؤكد المؤلف أنه، في هذه الأنفاق، ما تزال توجد ينابيع من الطّين، وما زال عمال الآبار يطلقون عليها اسم «الينابيع البرتقالية أو اللّيمونية» كما كانت تسمّى في القرن السّابع عشر. وتوجد الأنفاق، خارج المدينة، على عمق 50 متراً، أمّا بداخلها فلا توجد سوى على عُمق 4 أو 5 أمتار.

وشبكة الرّي الباطنية هذه بأكملها هي التي سمحت بتوافر عدد كبير من البساتين في محيط مدريد الوُسْطَوي، التي جعلت المدينة أكثر ثراء، وليس فقط في العصر الوسيط، وإنما أيضاً في عصر فيليبِه الثّاني Felipe II، الذي اختارها عاصمة لممالكه في سنة 1561. ولا بدّ أنه قد كان لوفرة وجودة الماء بمدريد وزن حاسم في هذا الاختيار الملكي، كما يشير إلى ذلك هنري غوبلو Henri Goblot.

ظلّت شبكة القنوات تزوّد مدريد على مرِّ القرون إلى غاية عام 1860، عندما أنشئت قناة «إيسابيل الثّانية»، وهو رقم قياسي حقيقي لأولئك المهندسين الأندلسيين، «المقنِّين»، الذين يُعرفون أيضاً بـ«القنَّائين».

التقنيات السّحرية للأندلس

لقد اقترن المعنى النّفعي للهندسة الهيدروليكية الأندلسية بتقنية مُترفة، بشكل حكيم. ومن خلال كتب الحوليّات التّاريخية والأدب، يمكننا أن نكتشف، بشكل وافٍ، تقنيّات الماء التي كانت تزيّن ردهات وحدائق الأمراء والخلفاء، والتي كان هدفها بوجه خاص، عدا الجمالي

المحض والتّقني، إثارة دهشة صادمة لدى حاشية البلاط والسّفراء الذين كانوا يأتون لتقديم احترامهم للسّلطان.

ولا بدّ أن القصور العديدة التي كانت موجودة في الأندلس، والتي معظمها لم يُحفظ للأسف، كانت تضمُّ في أرجائها ساعات مائية clepsidras، وآليات وأجهزة مصدرُ قوّتها المحرِّكة مزيجٌ من الزّئبق والماء.

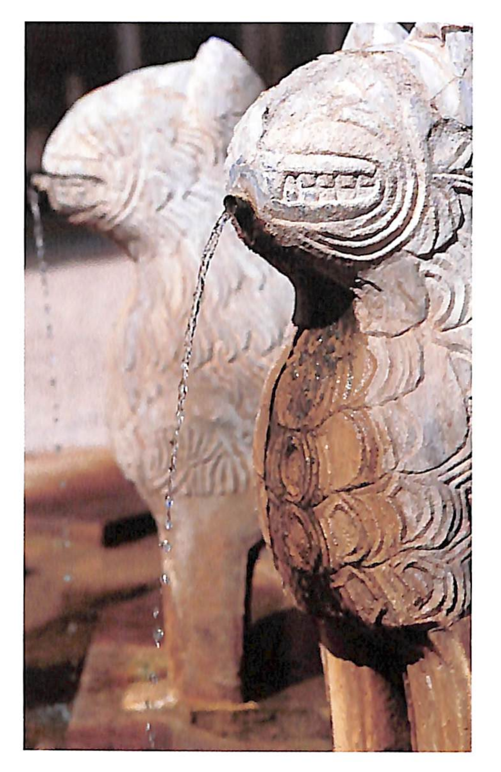
يعود اختراع أو تحسين تقنية السّاعة المائية، ذات الأصل المصري، إلى «أمينيمحات»، من عصر الفرعون «أمنوفيس الأول» (القرن السّادس عشر ق. م.). وهذا الجهاز، البسيط في أصله، كان عبارة عن حوض بمقياس زمني، يمتلئ شيئاً فشيئاً بالماء، ومع مرور السّاعات، كان هذا الماء يمر بثقب يوجد في قاعدة الحوض. كانت الصّعوبة الوحيدة تكمن في ضمان مرور نفس حجم الماء، باستمرار. ولهذا السّبب، أعطيت السّاعة المائية المصرية شكلاً أكثر اتساعاً من الجهة العلوية. انتقل استعمال السّاعة المائية – المفيد للغاية لقياس الزّمن بالليل أو عند غياب الشّمس – إلى اليونان مع المدرسة الإسكندرية لِهيرون Herón وفيلون Filón، ثم لاحقاً إلى الإمبراطورية الرّومانية، لتستعمل في منطقة روما مع بعض التّعديلات.

وأدرك العرب علم هذه الهندسة، من خلال ترجمات المؤلفات العلمية، ذات الأصل البيزنطي، باللغة اليونانية أو الفارسية، التي كانت تنجز في بغداد فيما يُعرف بـ«بيت الحكمة»، خلال عهد خليفةِ «ألف ليلة وليلة»، العبّاسي المشهور، هارون الرّشيد، وابنه المأمون (القرن الثّامن والتّاسع).

ومن بين العلماء الأكثر نبوغاً الذين عملوا بهذه المدرسة متنوّعة العلوم، كان ثلاثة إخوة يُدعون ببني موسى، كرَّسوا جهودهم لدراسة آليات الماء، وسواها، واخترعوا نظاماً للتّعديل الآلي لحجم الماء، لتنظيم التّدفّقات غير الثّابتة لدخول وخروج السّائل من السّاعة المائية.

والساعة الآلية التي أهداها هارون الرّشيد لشارلمان Carlomagno أشهر من نار على علم. كانت هذه الآلة عبارة عن ساعة فنية برونزية تتحرّك على مرّ الاثنتي عشرة ساعة بواسطة ساعة مائية؛ كانت تحتوي على مجموعة من الكرات البرونزية التي تقع كل ساعة، فتقرع جرساً، كما أنها كانت تشتمل على اثنتي عشرة صورة لفرسان، كانوا يخرجون، في آخر كل ساعة، من نوافذ، عندما تفتح هذه الأخيرة.

سرعان ما بلغت أخبار معرفة بني موسى إلى قصر قُرطُبة، الذي كان، نوعاً ما، ذا صبغة شرقية، بفضل الأمير الأموي صاحب الذّوق الرّفيع، عبد الرّحمن الثّاني (822–852 م)، فشاعره ومهندسه، عبّاس بن فرناس، في إحدى قصائده التي قالها في ولي عهد الأمير، يشير إلى ساعة مائية في الأندلس[2]:


نافورة الأسود، التّابعة لقصور الحمراء.

ألا إنـنـي لـلـدّيـن خـيرُ أداة إذا غـاب عـنكم وقـتُ كـلّ صـلاةِ
ولم تُـرَ شـمسٌ بـالـنّـهار ولم تُنر كـواكـبُ لـيـلٍ حـالِـكِ الظّـلـماتِ
بـيُـمـن أمـيرِ المسـلمـين محـمّـدٍ تجـلّـت عـن الأوقـاتِ كـلُّ صـلاةِ

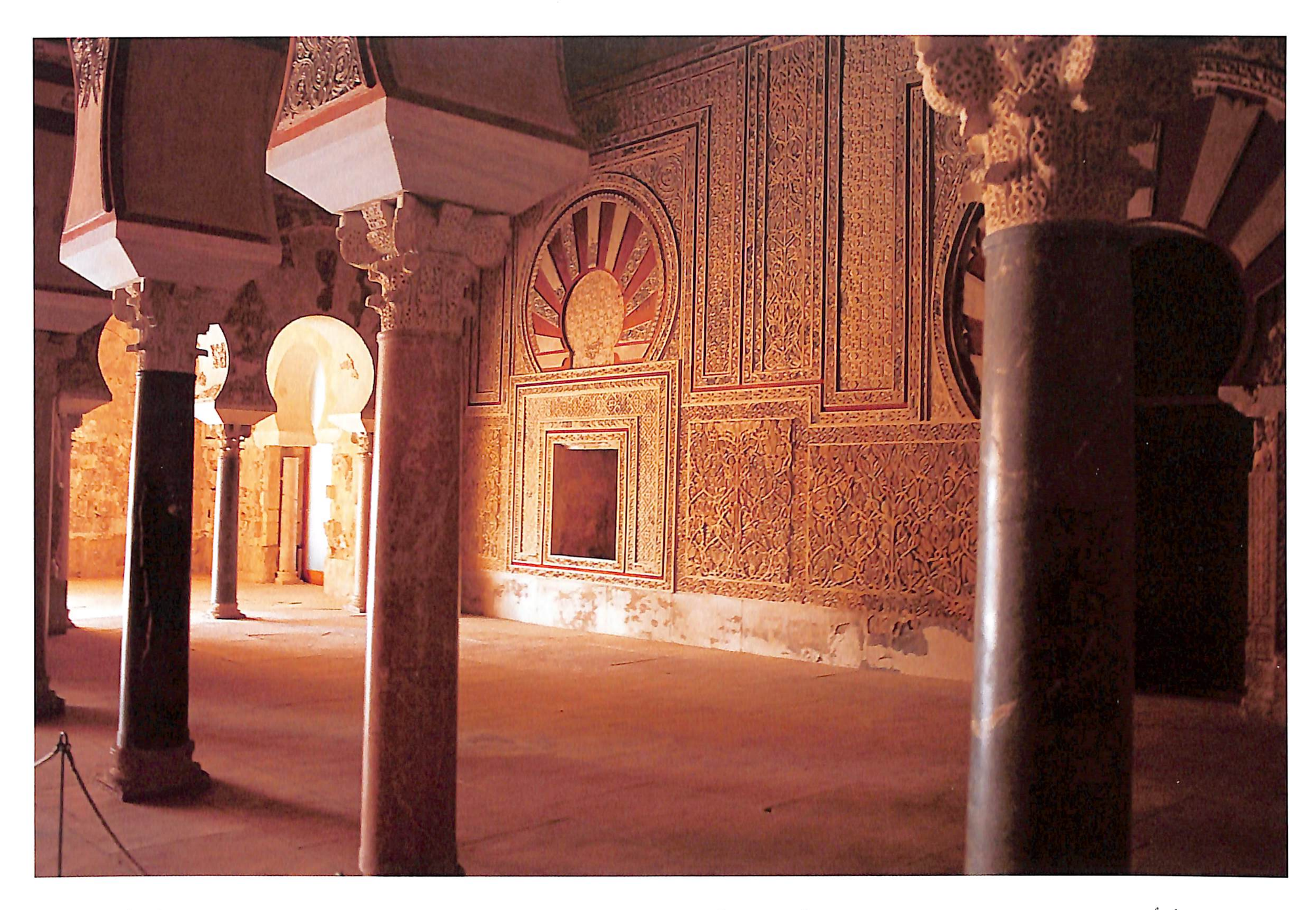
بالأسلوب المجازي الذي يتميّز به الشّعراء الإسبان – المسلمون، يخبرنا ابن فرناس عن ساعات شمسية وعن الماء بالقصر الأندلسي العائد لمحمّد الأول، مؤسّس مدريد.

ألعاب الماء في القصور الأندلسية

كانت تقنيات الماء، وحتى الزّئبق، مألوفة، كما أسلفنا الذّكر، في قصور الخلفاء والملوك الأندلسيين. وثمّة فقرة مهمّة للمؤرّخ المَقّري، يشير فيها إلى ترف وبذخ الزّهراء، المدينة البلاطية (بقُرطُبة)، وهو يصف فيها بدائعها، ويحدّثنا، ضمن روائعها، عن مجلس الخلفاء الذي كان سقفه من ذهب وفضّة، مع حوض واسع في الوسط، مليء بالزّئبق. وكان للمجلس ثمانية أبواب، من كل جانب، مزينة بالأبنوس والذّهب. وحسب ابن بشكوال الذي يستند المَقّري إلى نصّه:

«قامت (الأبواب) على سوارٍ من الرّخام الملوّن والبلّور الصّافي، وكانت الشّمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان النّاصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرّك ذلك الزّئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النّور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيّل لكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم، ما دام الزّئبق يتحرّك. وقيل: إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشّمس، وقيل: كان ثابتاً على صفة هذا الصّهريج، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنّما تهيأ له لكثرة الزّئبق عندهم (...) وكان المتولّي لهذا البنيان المذكور ابنه الحَكَم، لم يتّكل فيه النّاصر على أمين غيره»[3].

وعلى ما يبدو، كان حوض الزّئبق السّداسي الشّكل لمدينة الزّهراء يحدّد ساعة بعينها، كلّما كانت أشعة الشّمس تدخل من باب أو آخر من أبوابه الثّمانية.



مدينة الزّهراء (قُرطُبة). جزء من «المجلس الثّري» Salón Rico أو «مجلس الخلفاء»، حيث كان يوجد حوض الزّئبق الشّهير.

إلا أن هذا الأمر كان وارد الحدوث في خضمّ القرن العاشر. في القرن الموالي، أنشأ «الزّرقلي» Azarquiel، فلكي شهير من طُلَيطُلة، وهو شخص عصامي، ساعتين مائيتين بهذه المدينة، بجانب نهر التّاج. وكانتا عبارة عن إناءين دائريين ضخمين داخل بناء معيّن على ضفّة نهر التّاج، يشيران إلى ساعات النّهار والليل، وإلى أطوار القمر.

ولقد أشاد كُتّاب هذه الحقبة أيّما إشادة بهاتين السّاعتين المائيتين، وظلّتا تعملان إلى غاية سنة 1133 م، وهو التّاريخ الذي أمر فيه الملك المسيحي، ألفونسو السّابع – إبان استرداد طُلَيطُلة – الفلكي اليهودي «ابن زبارة» Ben Zabara، بتفكيكهما لمعرفة الطّريقة التي يعملان بها؛ إلا أن ابن زبارة لم يتمكّن لا من اكتشافها، ولا من إعادة تركيب السّاعتين من جديد.

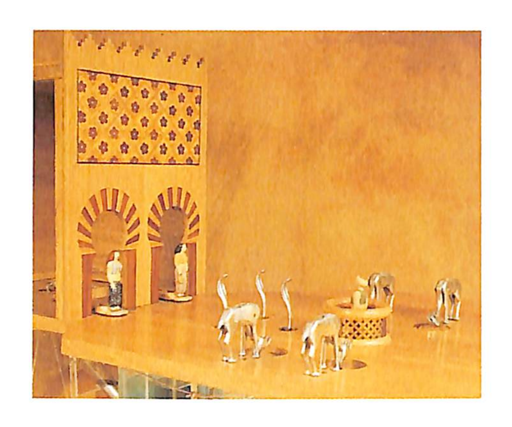
وكذلك في طُلَيطُلة، خلال القرن الحادي عشر، ورغبةً منه في تقليد الخلافة القُرطُبية القوية التي كانت قد اندثرت – وهي كانت أمراً متلازماً بين ملوك الطّوائف – أَمَر السّلطان المأمون ببناء قصور على مقربة من نهر التّاج، في المكان المعروف بـ«بستان الملك» Huerta del Rey، حيث

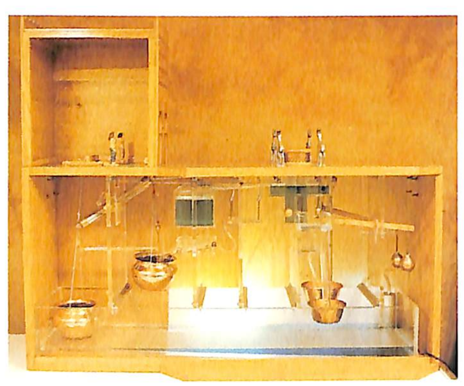
توجد اليوم بقايا قصور «غاليانا» Galiana، التي سنتطرّق لها لاحقاً.

وقد ترك لنا السّرد الأدبي من جديد، هذه المرّة بقلم ابن حيّان، إشارة باهرة إلى ذلك التّرف والدّور المهمّ الذي قامت به ألعاب الماء، كعنصر فعّال لرسالة العظَمة السّياسية.

> «ولهذه الدّار بُحَيْرَتَان، قد نُصَّت على أركانهما صُوَرُ أسودٍ مَصوغَةٌ من الذّهب الإبريز (...) وقد وُضع في قعر كلِّ بحيرة منهما حوضُ رخام (...) قد أُبرزتْ في جَنَبَاتِه صُوَرُ حيوانٍ وأطيارٍ وأشجار، وينحصرُ ماؤهما في شَجَرَتَيْ فضَّة عاليتي الأصلين، غَريبتي الشّكل، مُحكمتي الصّنْعة، قد غُرِزَتْ كل شجرة منها وَسَطَ كل مَذبحٍ بأدقِّ صناعة، يترقّى فيهما الماءُ من المذبحين، فيَنْصَبُّ من أعالي أفنانهما انصبابَ رذاذ المطر أو رَشَاش التّندية، فتحدُثُ لمَخْرَجه نَغماتٌ تُصبي النّفوس، ويرتفعُ بذرْوَتها عمودُ ماء ضخم مُنضغط الاندفاع، ينساب من أفواهها ويُبَلِّل أشخاصَ أطيارها وثمارها، بألسنةٍ كالمبارد الصّقيلة، يُقَيِّد حُسْنها الألحاظَ الثّاقبة، ويدع الأذهانَ الحادَّةَ كليلة»4.

ولا بدّ أن أشجار الفضّة هذه كانت الهيكل المعدني لآلة ميكانيكية لرفع الماء.





ساعة الغزلان المائية. جزء (مؤسّسة التّعاون مع العالم العربي).

الأجهزة الآلية، مؤشرات للزّمن

كانت هناك أيضاً ألعاب للماء لتسلية السّلاطين وحاشية بلاطهم، بأجهزة آلية متمثلة بصور رمزية لرجال أو حيوانات، تشير إلى الوقت، أو ببساطة، تُحدِث، عند حركتها، بهجة احتفالية. ولقد ألَّف شخص يدعى محمّد بن خلف المرادي، والذي لا يُعرَف عنه شيء سوى أنه كان أندلسياً، كتاباً حول الأجهزة الآليّة بعنوان «كتاب الأسرار في نتائج الأفكار»، تحتفظ بنسخة منه «المكتبة الميديتشية اللّورنزية» Biblioteca Medicea Laurenziana في فلورنسا (فيرنتزِه) Florencia.

يشرح المُرادي، في المقدّمة، أن ما يهدف إليه كتابه هو تسليط الضّوء على علم كان قد نُسي بعض الشّيء، وهو على مدى النّص، يصف أجهزة متنوعة: ألعاباً كبيرة بتماثيل متحرّكة، ساعاتٍ بأجهزة آلية تحدّد الوقت، آلات حربية ورافعات للماء. ولتوثيقها، يرسم سلسلة من المعدّات (عجلات مسننة، عربات منزلقة، موازين، إلخ)، تنقل الحركة من كل تلك المعدّات إلى الجهاز الآلي. وكانت القوة التي تُنتِجها الحركة تولَّد بالماء والزّئبق، اللذين يُسكبان بدفق منتظم على الموازين، وكانت هذه تتحرّك بشكل متقطّع، بفضل الانفتاح أو الانغلاق، بواسطة صمَّامات، ومن خلال مرور السّائل المحرِّك، تنقل بدورها الحركة إلى كل جهاز آلي على حدة.



طُلَيْطُلة. قصر «غاليانا». بقايا ساعة شمسية.

في أبريل من عام 1992، في معرض حول الموروث العلمي الأندلسي، في مجسّم – بأقصى طريقة تقريبية ممكنة، لأن النّص غير كامل – تمّت إعادة بناء ساعة مائية جميلة سمّيت «ساعة الغزلان»، وهي تلك التي وصفها المُرادي في الفصل الأول من مؤلَّفه.

والساعة المائية تمثِّل رواقاً للقصر حيث توجد ثماني فتيات؛ أمام الرّواق، تمتدّ حديقة ببئر في الوسط، وحوله، أربعة أحواض للماء. وفي الحديقة ترعى الغزلان، التي، وهي عطشى، تحني رؤوسها في الأحواض لكي تشرب. في اللحظة التي تبدأ فيها الغزلان بالشُّرب، تتفتح مشربيات الرّواق وتخرج ثمان فتيات إلى الحديقة لمشاهدتها. وفجأة يُطلُّ خادم أسود، كان مختبئاً بخرزة البئر، لكي يتلصّص على البنات، لكن في الحال تخرج ثلاث أفاعٍ تقف بين الفتيات والخادم. تختبئ الفتيات في الرّواق ويُغلق بابه؛ ويدخل الخادم في البئر؛ ثمّ تختبئ الأفاعي في الأرض، وتتوقف الغزلان عن الشّرب، برفع رأسها.

هذه السّلسلة كلها ترافقها حركات متسلسلة، تنقلها آليّة خفيّة متّصلة بتلك الأشكال

ومتموضعة في الجهة السّفلى. وهي آليّة مركّبة من ثلاثة موازين، تمتلئ أوانيها بالماء بشكل متناوب، بمساعدة أنبوب من الزّئبق في حركتها المتأرجحة. والسّلسلة كلها تحدِّد فترة من الوقت هي التي تشير إليها السّاعة المائية.

ويصف المُرادي في كتابه، إلى جانب السّاعة المائية المذكورة، آليّات عديدة أخرى لأجهزة ذات شكل واحد أو عدّة أشكال.

فعلى سبيل المثال، هناك واحدة تظهر فيها أشكال لفلكيٍّ، ولرجل وفتاة: يجلس الفلكي على كرسي، وبيده أسطرلاب ينظر من خلاله؛ وعلى يساره، يوجد الرّجل واقفاً وهو ينظر إليه؛ أمّا الفتاة، بإكليل في رأسها، فتوجد في رواق. وعندما تصل السّاعة إلى تمامها، ينظر الفلكي إلى الرّجل، فيتوجه هذا الأخير إلى باب الرّواق وينادي، ويترك كرة في يد الفتاة ويعود إلى مكانه؛ ثم ترمي الفتاة الكرة في حوض فيعود الفلكي إلى النّظر إلى السّاعة الموالية.

كانت الآليات على شكل أسطرلاب بمجسّم يُسقِط كرة كل ساعة، معروفة في الأندلس وشكلّت سابقة واضحة لساعة ستراسبورغ (في فرنسا).

نحو سنة 1204 م، ألّف مهندس مسلم وُلِد بالجزيرة (ما بين النّهرين) «كتاب معرفة الحيل الهندسية». هذا العالِم كان يسمّى بديع الزّمان إسماعيل بن الرّزّاز الجَزَري، وفي كتابه، الذي عَرف بعض الانتشار، يصف ساعة ضخمة، تعمل بالزّئبق، تقترن بأسطرلاب لتشير إلى الأربع وعشرين ساعة في اليوم.

بل على ما يبدو، كانت هناك حتى آليّات بمكمِّلات شعرية، فعندما كانت تصل السّاعة إلى التّمام، كانت تخرج من الجهاز قطعة شعرية تُقرأ أمام القصر المبتهج، تشير مجازاً إلى السّاعة التي تحدِّدها.

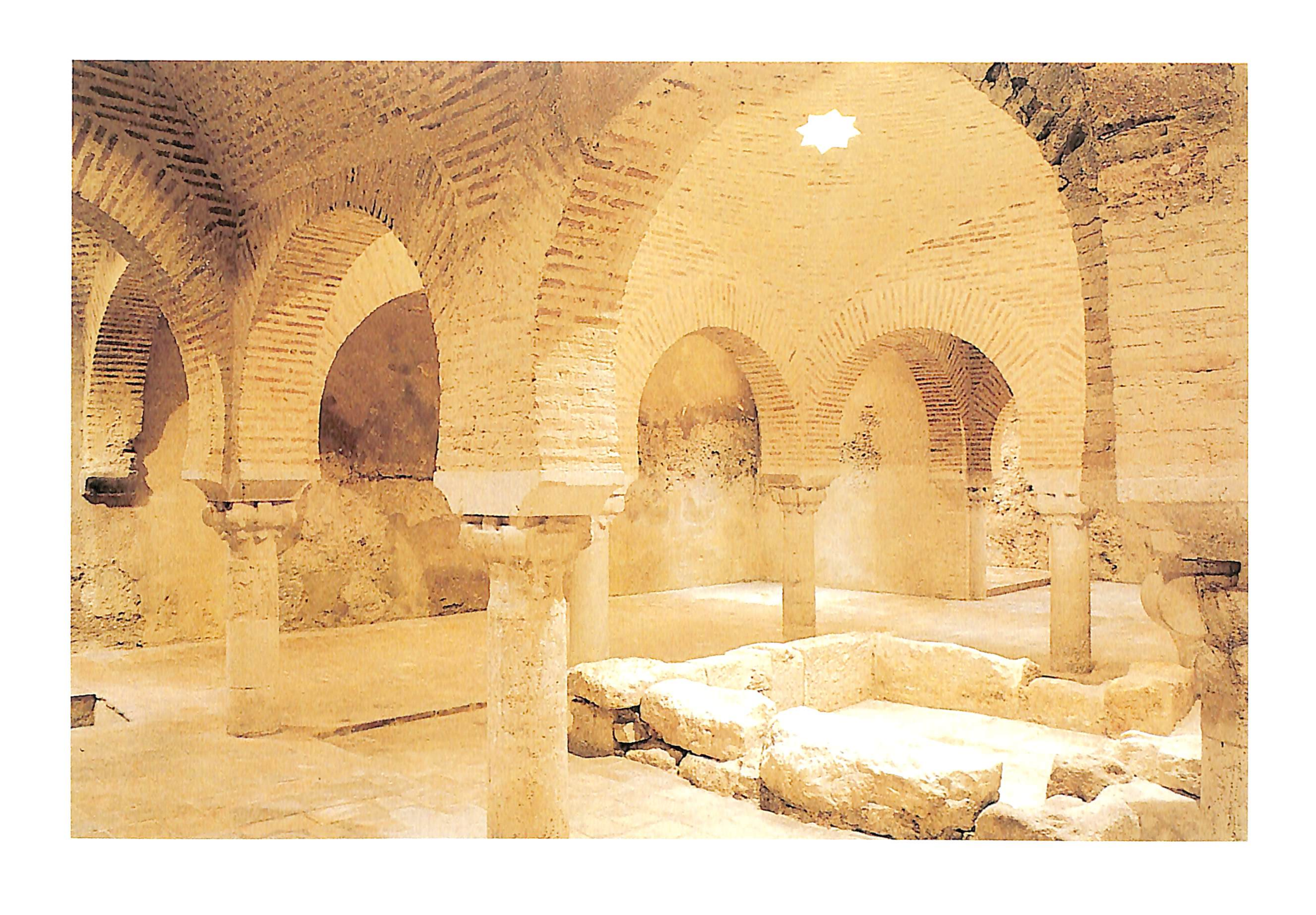
وكدليل على النّجاح الذي لقيه هذا النّوع من المصنَّفات حول الميكانيك الهيدروليكي، أنّ ألفونسو العاشر الحكيمAlfonso X el Sabio ، في قشتالة، أمَر الفلكي اليهودي الرّابي زاغ Rabí Zag في 1266 بنقل وترجمة كتاب المرادي، فيما سمِّي بالمدرسة الثّانية للمترجمين بطُلَيطُلة.

وبعد ذلك بسنوات، في عام 1277 م، تم تأليف «كُتب علم الفلك»Libros del Saber de Astronomía، تحت إدارة الملك ألفونسو بنفسه. وفي أحد أجزائه الأخيرة، توصف خمس ساعات إحداها مائية، ومن الملاحَظ أن مصدرها العلمي يعود إلى التّقنية المتطورة للعالم الإسلامي في تلك الفترة.

أخذت معارف قياس الزّمن للعالم الإسلامي بالانتشار في أوروبا عن طريق التّرجمات من العربية إلى اللاتينية. وقد لعب دير ريپول Ripoll (كتالونيا)، كريادِيٍّ حقيقي، دوراً مهمّاً في هذا النّقل، ذلك أن المصنّفات الأولى حول علم الأسطرلاب واستعماله ظهرت على أيدي رُهبان متمرِّسين مترجِمين للغة العربية، ينتمون إلى هذا الدّير.

وحتى جيربير دورِيّاك Gerbert d'Aurillac، الذي سيدخل التّاريخ لاحقاً بشخصيّة البابا سيلڤستر الثّاني Silvestre II، عندما لم يكن قد أصبح بابا بعد، كان في ريپول نحو سنة 987 يتلقّى علم الأسطرلاب.

كل هذه المدارك، وقد كُتِبت باللاتينية، أخذت بالانتقال إلى أوروپا منذ أواسط القرن الثّاني عشر، بل قبل ذلك تم إدراجها في الجامعات الأوروپية، مع جهل أصلها الحقيقي. والواقع أنّ الباب كان قد فُتِح أمام الاختراعات النّهضوية الكبرى.



خايين *Jaén*. حمّام عربي.

الفصل الرّابع

الوظيفة الاجتماعية للماء

يقول ابن خلدون، عالِم الاجتماع التّونسي المعروف، ذو الأصل الأندلسي، في القرن الرّابع عشر، في كتابه المشهور «المقدّمة»، إنه، لكي تكون الحياة رغيدة في مدينة ما، لا بدّ، عند تأسيسها، من الالتزام بعدّة شروط: أولاً، وجود نهر أو عيون ماء عذبة ووافرة في الأرض. فالماء، الذي هو «نعمة من الله»، أمر ذو أهمّيّة أساسية، ووجوده عن قرب من شأنه أن يجنِّب السّكان العديد من الصّعوبات.

والماء في العالم الإسلامي يتطوَّر لأداء مهمّة اجتماعية لنظافة المسلمين، والاستهلاك المنزلي أو الاستعمال في البلاطات والاستعمال الدّيني. وبما أننا قد تناولنا هذه الوظيفة في الفصل الثّاني، فسنتطرّق هنا إلى المدينة الإسلامية وخدمة الماء فيها، من خلال منازلها، وقصورها ومناهلها العمومية أو حمّاماتها، وكذلك من خلال خزّاناتها وقنواتها الحضرية.

المدن الأندلسيّة

عندما وصل المسلمون إلى شبه جزيرتنا، كما أسلفنا في هذه الدّراسة، وجدوا مدناً إسپانية -رومانية ببنية تحتيّة تشكِّلها شبكة القنوات، لكن في حال تدهور وتلفٍ واضحين. وعلى هذه الآثار، شرع العرب في بناء مدن جديدة، مع الحفاظ على ما هو صالح، وخلق الشّكل النّهائي للمدينة الإسپانية- الإسلامية. إلى هذا الصّنف تنتمي أهم مدن الأندلس: قُرطُبة Córdoba، إشبيلية Sevilla، طُلَيطُلة Toledo، سَرَقُسطة Zaragoza، ماردة Mérida، إلخ. ومواصلين سُنَّة الإعمار لدى الإمبراطورية الرّومانية، أسّسوا نحو عشرين مدينة جديدة: مدريد Madrid، قلعة أيوب Calatayud، ألمِريَّة Almería، قلعة رَبَاح Calatrava، مُرْسِيَة Murcia...

كلّ هذه المدن خضعت لتصميم مشابه: منطقة دينية - قضائية (مكان المسجد والمدرسة)، منطقة تجارية (حول السّوق والقيسارية)، منطقة للقصر والإدارة (قصر السّلطان وملحقاته)، منطقة عسكرية (القَصَبة)، وهي تتموضع في أعلى جزء من المدينة، منطقة سكنية (دور نبلاء البلاط)، منطقة شعبية (الأحياء أو الأرباض)، مناطق عمومية للاستراحة أو الاجتماع (المُصلَّى والمُسرَّى)، وهي ساحات للاجتماعات الحضرية الكبرى، وأيضاً المقابر.

كان كل من المسجد الكبير أو الجامع والمدرسة (القرآنية)، كما السّوق والقيسارية (وهو

سوق للسّلع الفاخرة) تتموقع في قلب الحاضرة المتشابك، أي في «المدينة». وكانت القصور الملكية تتواجد غالباً قرب الجامع الكبير، وإن كانت، بين الحدائق والأسوار، بعيدة عن متاهة شوارع المدينة. كان الأعيان يشيّدون منازلهم، أيضاً بحدائق، خارج مركز المدينة، لكن داخل أسوار الحاضرة. وكان هناك حمّام عمومي على مقربة من المسجد الجامع، مع إمكانية وجود حمّامات أخرى في الأحياء العديدة.

أما بالنّسبة للطّبقات الوسطى والمتدنّية، فغالباً ما كانت تعيش في «المدينة» أو في أحياء معيّنة كانت تتخذ أسماء قاطنيها («ربض اليهود»، «ربض المرابطين»، إلخ). وبعض هذه الأحياء، كنتيجة لنمو المدينة، كانت توجد خارج الأسوار، كما كانت توجد خارجها السّاحات الكبرى، حيث كانت، سواء في الاحتفالات الدّينية أو غيرها، تؤدّى صلاة الجماعة في الهواء الطّلق، وحيث كانت المحطات العسكرية الكبرى، عندما كانت جيوش السّلطان تنطلق للدّفاع عن الإمبراطورية الأندلسية. في هذه الفضاءات الرّحبة أيضاً كانت تقام صلوات الاستسقاء الحاشدة لطلب الغيث، والمخصّصة للمحاصيل، في زمن الجدب.

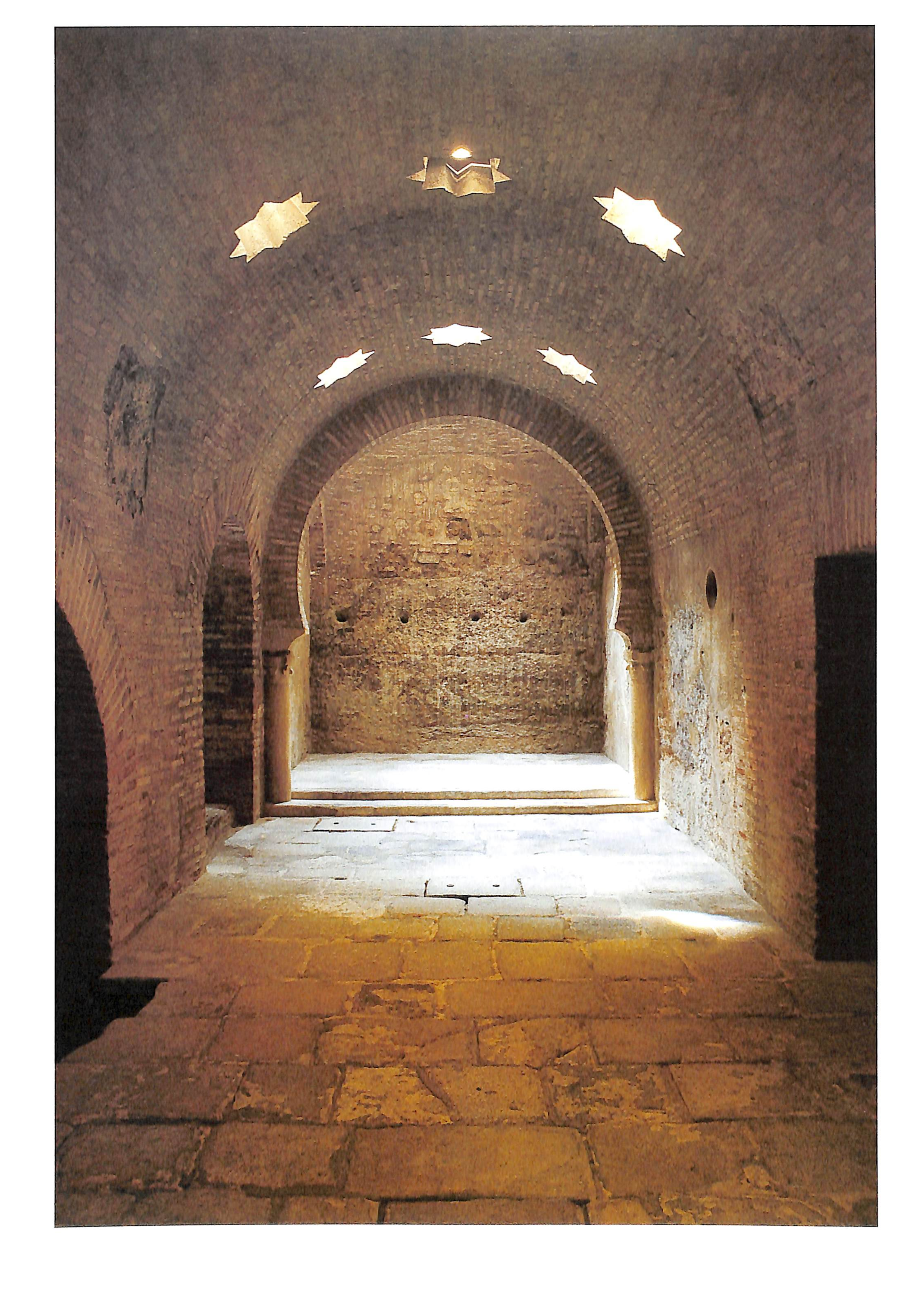
كانت الحاضرة تشكّل، في يومها المعتاد، نظاماً اجتماعياً حقيقياً في حراك مستمرّ؛ ولعلّ ذلك الذّهاب والإياب المستمرّ لأهالي الأندلس في الشّوارع الضّيقة والسّاحات الصّغيرة للمدينة، لزيارة المسجد أو السّوق، لأعمالهم اليومية أو لدسائس الحُكم، يعطي انطباعاً، ربما، بصعوبة التّحكُّم الإداري فيها. لكن الأمر لم يكن كذلك بالفعل؛ فكان للمدن الأندلسية عدّة موظفين يراقبون التّنفيذ الصّحيح للقوانين العُرفية، التي تتضمّنها مصنّفات «الحِسبة»، كتلك التي وصلت إلينا من أصحابها، كمصنف ابن عبدون من إشبيلية أو السّقَطي من مالقة.

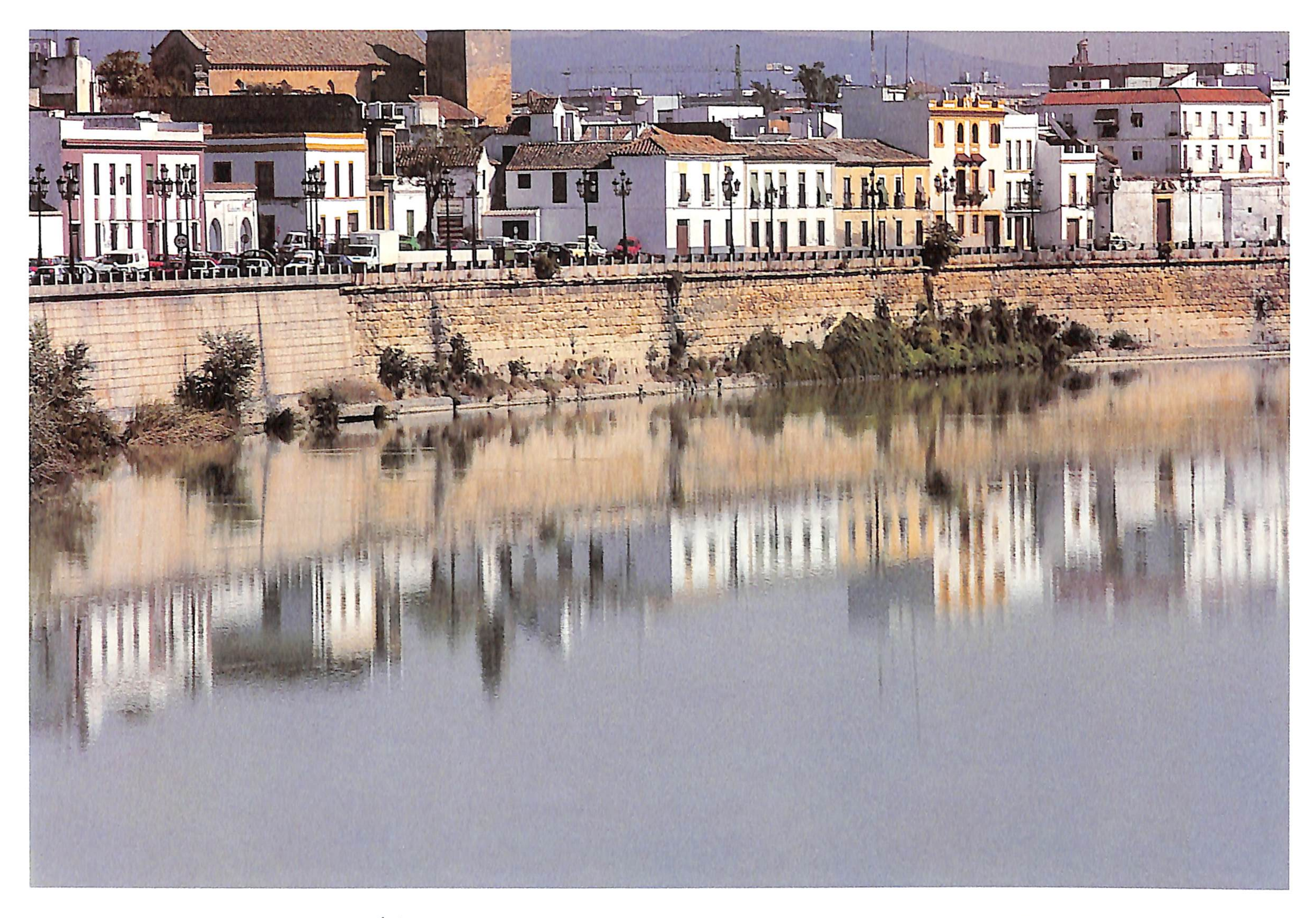
كانت هذه القوانين تنظّم كل ما يتعلّق بالتّعايش المدني، والسّوق أو نشاطه، وإدارة أهل الحِرَف والتّجار، وتصرُّف هؤلاء في السّوق؛ كما كانت تهتم بالوزن والمقاييس بالسّلع، بل وحتى بالفضاء الطّبيعي للسّوق، بتجنيب الاكتظاظ المفرط للدّكاكين، ومراقبة تنظيف نفاياتها.

كانت الشّخصية التي تعمل على مراقبة السّير الجيد هي شخصية el zabazoque أو «صاحب السّوق»، التي استُحدِثت في عهد الأمويين، ثم لاحقاً شخصية «المحتسِب»، الذي كان يخضع للقاضي.

في هذه المدن الصّاخبة، لم يكن الماء، تلك «النّعمة الإلهية»، يُنسى أبداً، فقد كان تزويد المسلمين بالماء عملاً مبروراً وصالحاً، يستحقّ الثّواب الإلهي. الماء الذي يعتبر دائماً في غاية الأهمّيّة لتلبية حاجيات الجسد والرّوح لدى الإنسان، ولا غنى عنه لكل الخليقة.

خايين (جيان) Jaén. حمّامات عربية. منطقة استرخاء، مع كوى في السّقف.





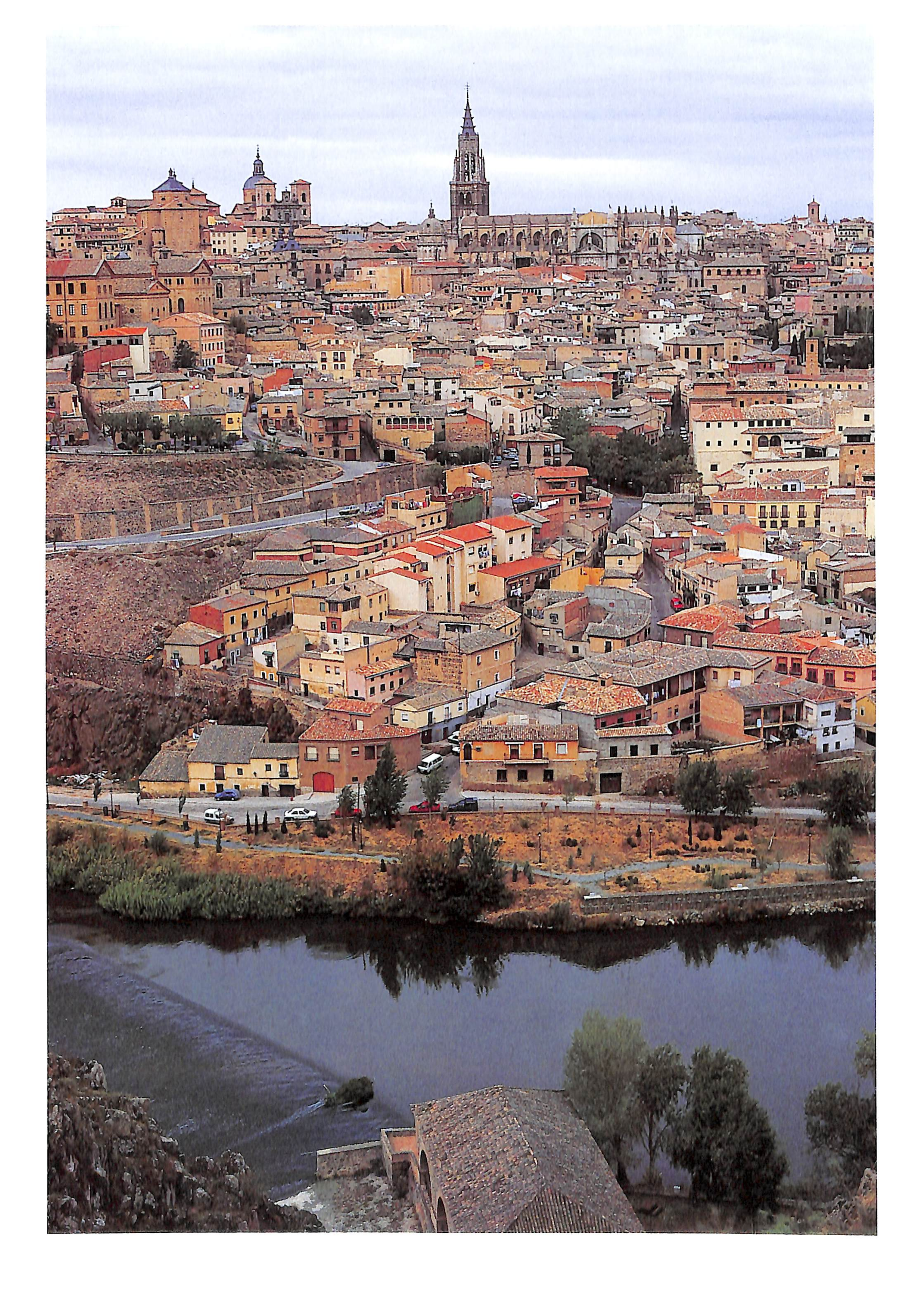
قُرطُبة. مشهد جزئي بجانب «الوادي الكبير» Guadalquivir. كانت قُرطُبة عاصمة الخلافة الأندلسية الكثيفة بالسّكان.

الماء العمومي والسّقّاؤون

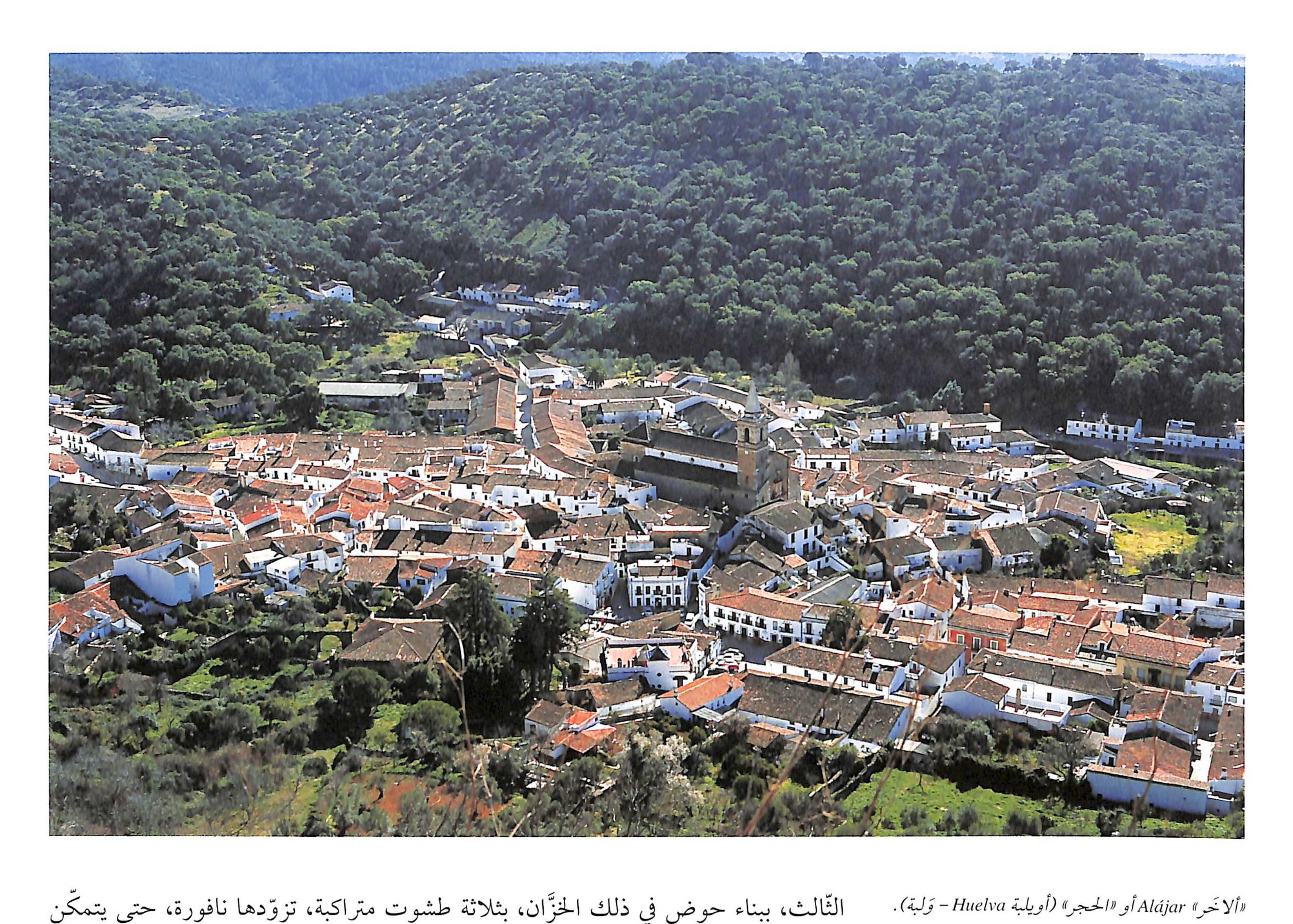
وهكذا، داخل بنية المدينة، كانت هناك مناهل عمومية (سَبَّالة)، متصلة بالمنازل ومزيَّنة بزلِّيج مزركش، تزوِّد عابري السّبيل المرهقين بماء الشّرب أو الوضوء، أمّا نساء وأطفال البيوت المتواضعة، الذين لم يكونوا حائزين لهذه الإمكانية، فكانوا يقدمون لملء أوانيهم إلى أقرب سبيل. كانت هذه الينابيع توجد بالقرب من المسجد أو المدرسة وعلى أبواب الدّخول أو الخروج من المدينة، حيث كان يتجمّع المسافرون القادمون والحشود التي كانت تأتي إلى أسواق الماشية، والتي غالباً ما كانت تقام خارج أسوار المدينة، أمام أبوابها الرّئيسية.

في قُرطُبة، خلال القرن التّاسع، أمر الأمير عبد الرّحمن الثّاني ببناء خزَّان كبير يجمع الماء الفائض بعد تزويد قصوره، لكي يستغلَّه أهل قُرطُبة، وجعَل هذا الخزَّان على مقربة من الباب المسمّى «باب المُشبَّك» Puerta de la Celosía. وبعد ذلك بقرن، أمر خَلَفُه، الخليفة عبد الرّحمن

طُلَيطُلة. منظر جزئي من نهر «التاج» Tajo. مدينة ذات تخطيط حضري إسلامي نموذجي.







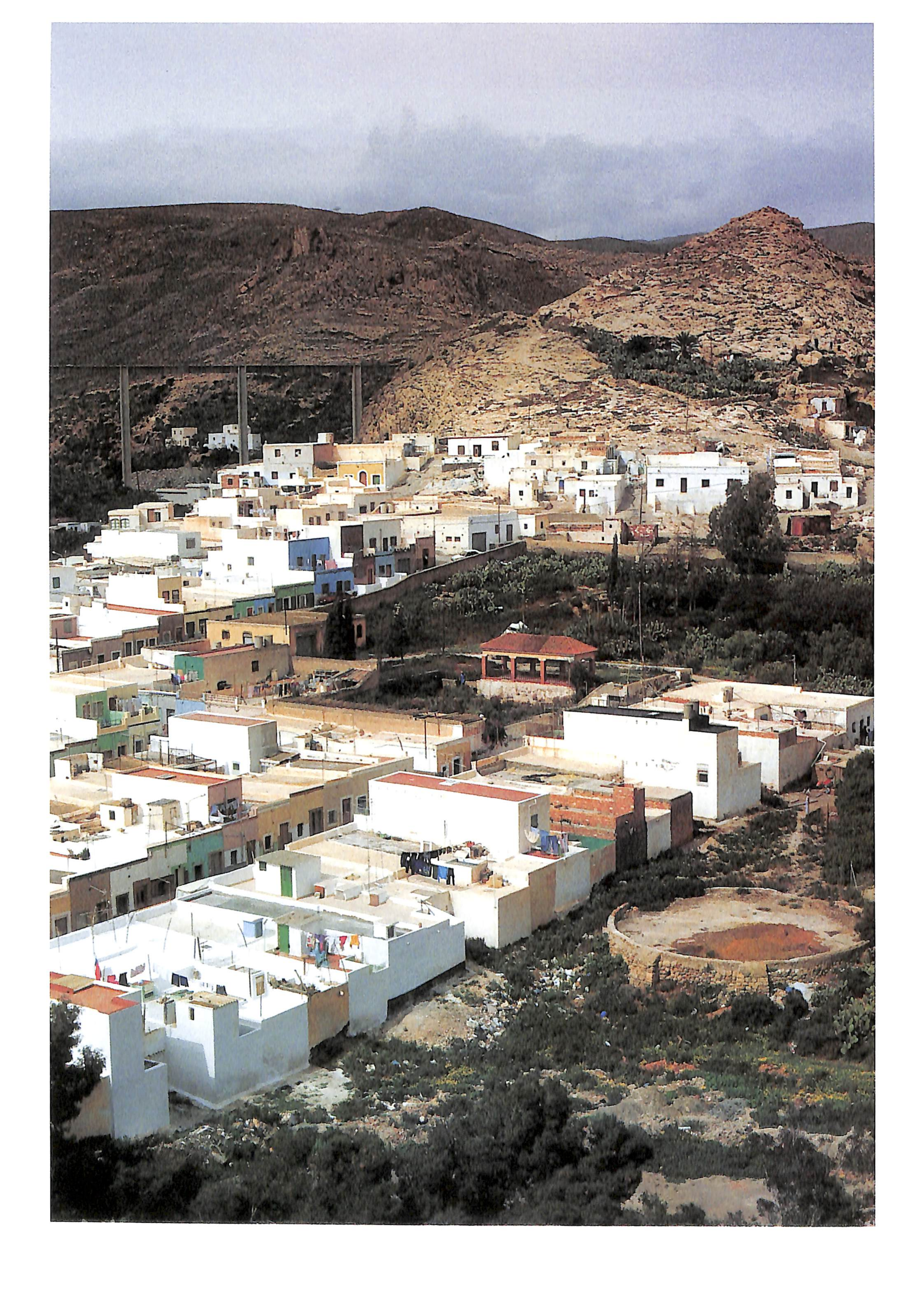
«ألاخَر» Alájar أو «الحجر» (أويلبة Huelva – وَلبة). في قلب جبل «أراثينا» Aracena، قرية ذات أصل أندلسي.

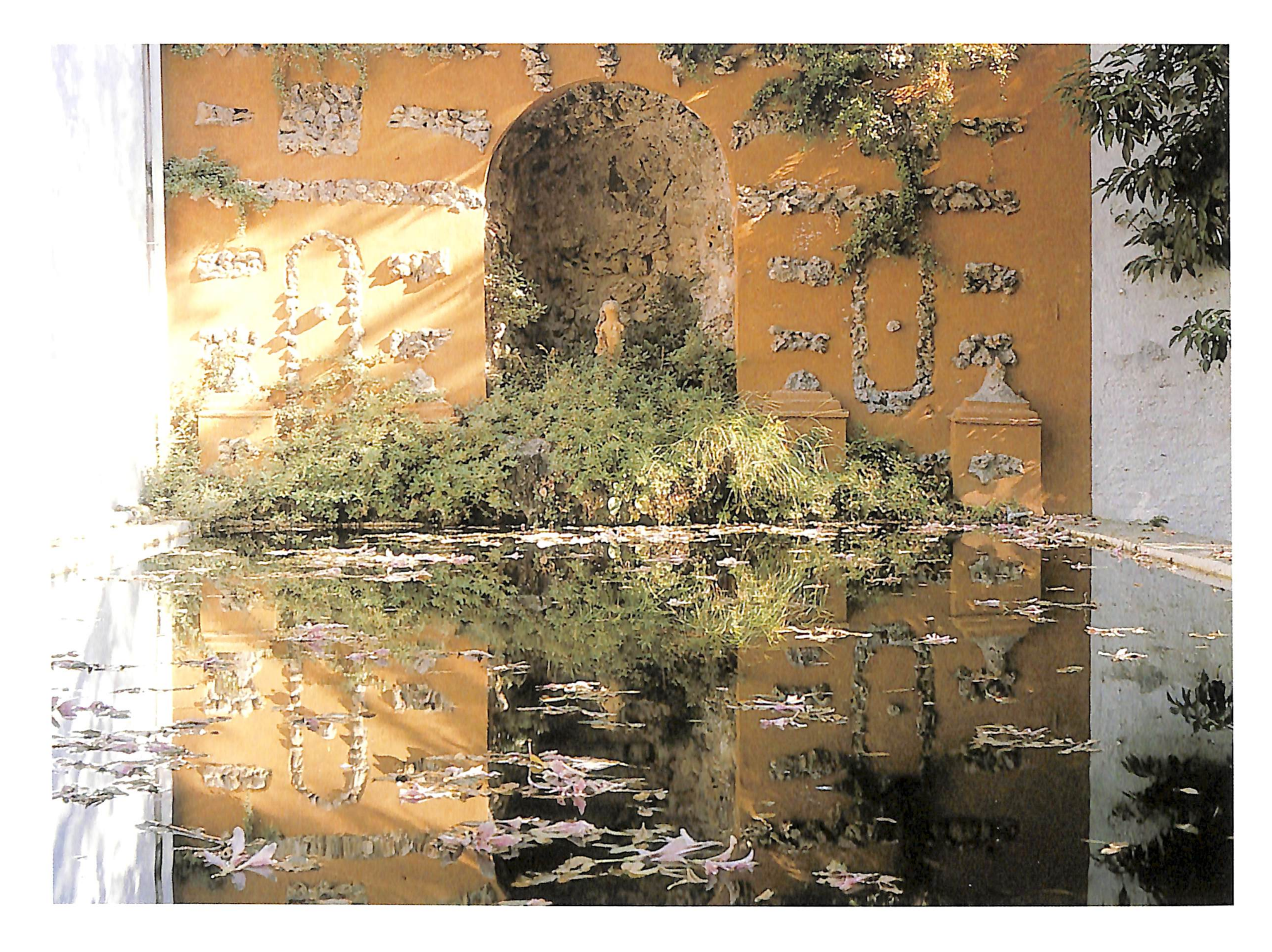
الثّالث، ببناء حوض في ذلك الخزّان، بثلاثة طشوت متراكبة، تزوّدها نافورة، حتى يتمكّن القُرطُبيون من التزوّد بالماء بسهولة أكبر.

كان الماء العمومي أيضاً مادة لتجارة صغيرة، فقد كان العديد من السّقّائين يجوبون الشّوارع بقعقعة كؤوسهم المعدنية، وهم يحملون ذلك السّائل الثّمين في قِرَب جلدية. كانوا ينادون بأصواتهم لعرض الشُّرب في الأمسيات الحارّة، أو يصِلون إلى المنازل حتى لبيع تلك السّلعة في البيوت، مقابل بعض النّقود.

كانت صورة السّقّاء المتجوّل ذي الصّوت الجهير مألوفة لدينا إلى غاية بضع سنوات قبل اليوم، على الأقل في منطقة الشّرق و«أندلوثيّا» Andalucía (الأندلُس)؛ بل وحتى وفي مدريد – «مجريط» العربية الشّهيرة – كان السّقّاؤون يجلبون الماء الصّافي للقنوات من المناهل إلى البيوت، وينقلونه على ظهور الحمير، حتى خلال العصر الذّهبي، مثيرين استغراب الأجانب الذين كانوا يزورون العاصمة في تلك الفترة.

«قلعة أيوب» Calatayud (سَرَقُسطة). مدينة أسّسها المسلمون. منظر من «حي المسلمين» Morería أو «حي المدَجنين» Barrio de los mudéjares.



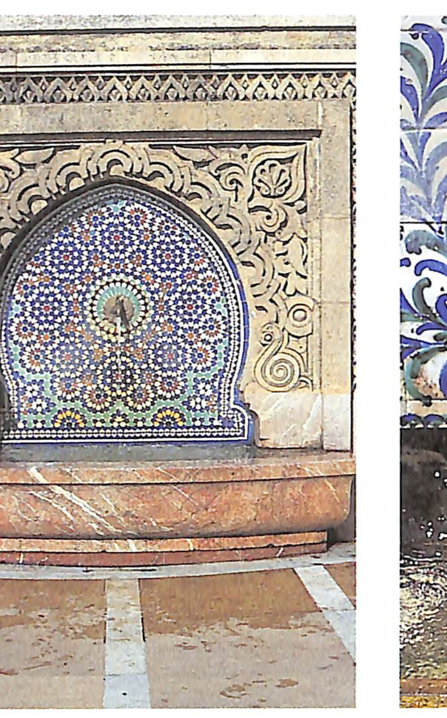


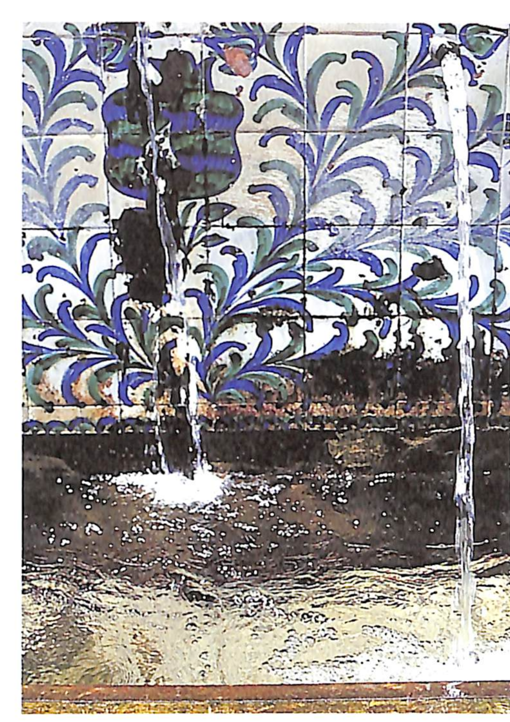
إشبيلية. «القصور الملكية» Los Reales Alcázares. بركة موجودة في الحدائق.

لكن - بالعودة إلى الأندلس - في إشبيلية خلال القرن الثّاني عشر، كان السّقاؤون الإشبيليون المعروفون ينقلون الماء على ظهور الدّواب، من «الوادي الكبير»، لبيعه في أحياء مدينتهم.

كان هنالك قانون حقيقي ينظِّم عمل هؤلاء السّقَّائين، ينقله ابن عبدون، بكل تفصيل، في كتاب «الحِسبة». وكان ينصّ على أن للسّقائين مكاناً مخصَّصاً على ضفّة نهر «الوادي الكبير»، على رصيف صغير أو منصّة خشبية، عكس مجرى النّهر، حيث التّيّار أقل اندفاعاً. وكان محظوراً على أصحاب المراكب أو على أي شخص آخر منافسة السّقائين في التّمتّع بهذا الحق. كما كان المكان الذي ينبغي للسّقائين أن يجلبوا منه الماء محدّداً بدقة في القانون: وهو الحدُّ ما بين المدِّ والجزر، وكان يُمنَع الوصول إلى هذا المكان على أي شخص لا ينتمي إلى هيئة أو

ألمرِيَّة. منظر جزئي من أحد الأرباض. مدينة ذات نشاط بحري - تجاري كبير في الأندلس.





الصّورة على اليسار

الرباط (المغرب). ينبوع عمومي، ملتصق بالجدار ومزيّن بزليج وتوريقات.

الصّورة على اليمين

«لا ألبوخارّا» La Alpujarra. ينبوع «كرميلا» Carmela. مزيّن بزليج عليه صورة الرُّمّانة.

رابطة حاملي الماء. وهذا يثبُت أن مهنة السّقّاء كانت منظّمة ومقنّنة بشكل تام في إشبيلية الأندلسية.

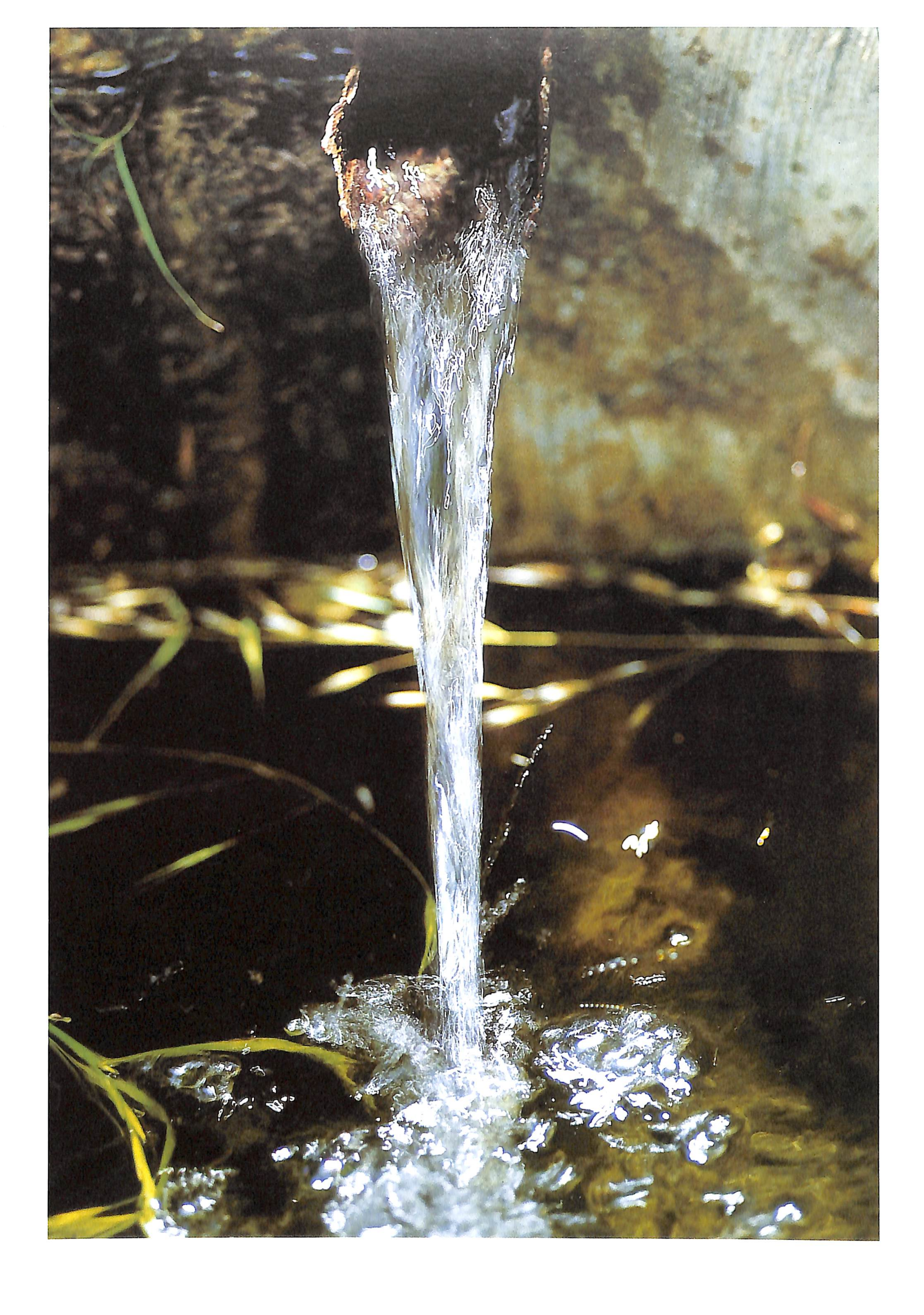
ويستمرّ القانون بالإشارة إلى أن خرق هذه القوانين يعاقَب بالسّجن أو بالعقوبة الجسدية التي يحدِّدها المحتسب (وهو الشّخص الذي كان يؤدّي هذه المهمّة). كما كان هذا الأخير يراقب السّقائين، حتى لا يجلبوا الماء من منطقة النّهر التي تطؤها الدّواب، لكونه ماء متّسخاً وعكِراً.

من المدهش أن نرى كل ذلك الحرص الذي كان موجوداً في الأندلس من أجل الحفاظ على جودة الماء للاستهلاك، سواء للشّرب أو للاستعمالات الدّينية أو للنّظافة.

ويقدِّم لنا كتاب ابن عبدون معلومات مهمّة حول العادات المتعلّقة بالنّهرفي إشبيلية الأندلسية: وهو يقول بأنه ينبغي منع النّساء من غسل الملابس في المكان الذي يجلب منه السّقاؤون الماء، لأنهن يغسلن ملابسهن الدّاخلية المتسخة، ولذلك، من الضّروري أن يغسلن في مكان من النّهر أكثر تستُّراً ومحفوظاً من عيون عموم النّاس. كما يشترط منع رمي الأقذار والنّفايات إلى مجرى نهر «الوادي الكبير» - وهي فيما يتعلّق بهذا النّهر، للأسف، عادة حديثة بشعة، في الوقت الرّاهن - ورميها في الخلاء أو في أماكن مخصّصة لذلك، بعيداً عن النّهر.

لا بدّ أن قانون السّقائين الأندلسيين كان بمثابة سابقة طبيعية لهيئة السّقائين المدريديين، التي، بعد ذلك بقرون، أثبتت وجودها في القرن الخامس عشر.

«لا ألبوخارّا» La Alpujarra. ماء متدفّق من ينبوع عمومي.



شبكة القنوات الحضرية والمنزلية

كانت معظم المنازل في إسبانيا الإسلامية مزوّدة بالماء الصّالح للشّرب، سواء ببئرٍ أو جُبٍّ في وسط الفناء الدّاخلي البهيج الذي يتصدَّر كلَّ بيت أندلسي، أو من خلال شبكة لِقنوات الماء كانت تجلب الماء من مكان أبعد. وكنموذج لذلك، في إشبيلية الموحّديّة كان الماء يستجلب من خزّان كبير، تزوِّده القنطرة المائية لـ «قلعة غواديرا» Alcalá de Guadaira.

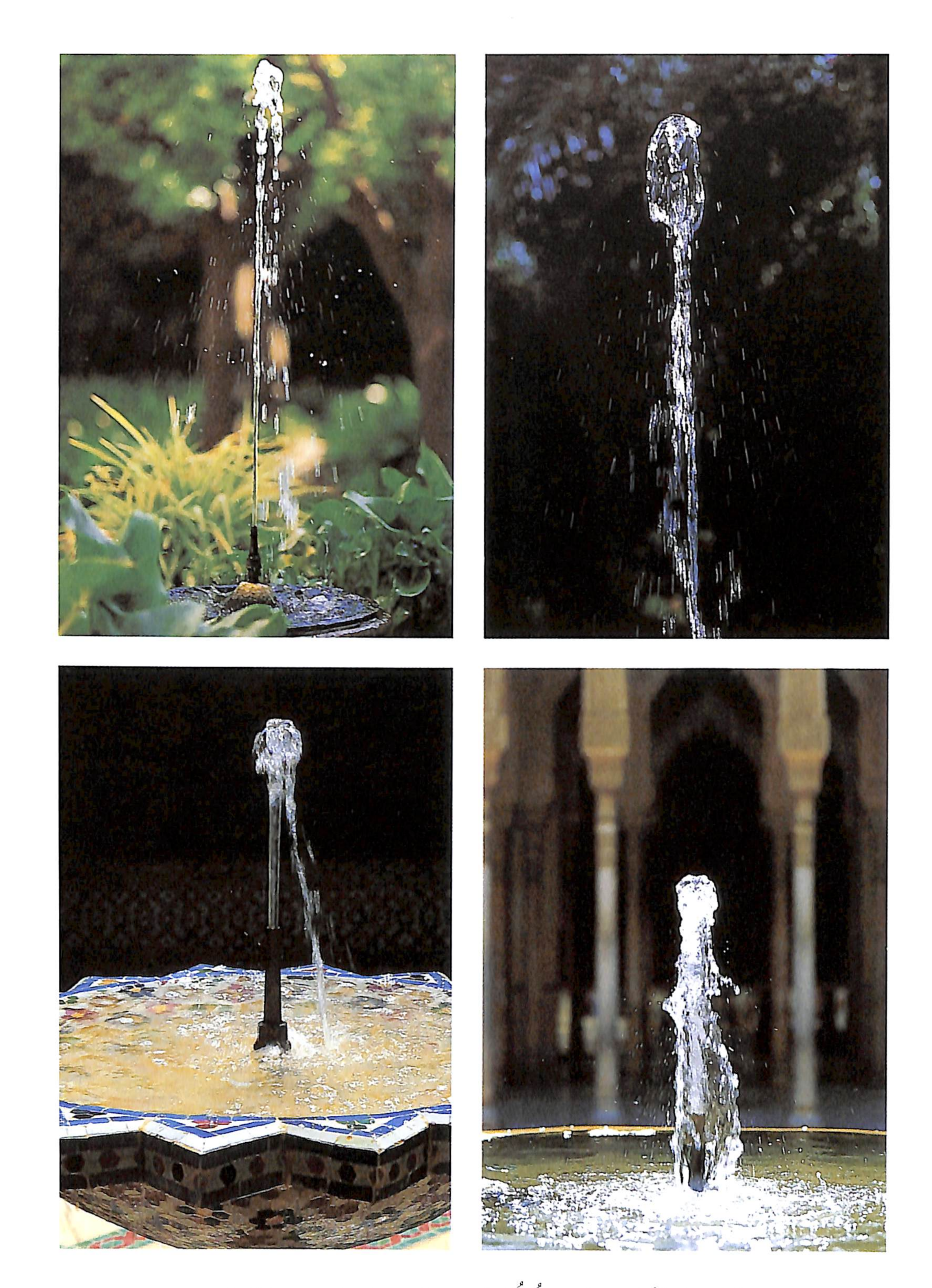
وكان البئر أو الجُبّ المنزلي يتزوّد من ماء المطر، الذي كان ينساب، من مزاريب سطوح المنازل، عبر قنوات من الطّين إلى أن يتجمّع في الخزّان. ولتجنّب جذب شوائب مع الماء، كانت توضع مصافٍ عند فتحة الخزّانات، التي كانت تُنظَّف بانتظام.

ولعلّ الأفنية بذلك، حتى الأكثر تواضعاً منها، كانت تسمح بترف نافورة صغيرة لجعل الإقامة العائلية أكثر لطفاً ومتعة، ينافس صوتها، خاصّة بالليل، عطر الياسمين الكثيف، الذي كان يتسلق الجدران. وإذا ما كان البيت ثرياً، كان هذا الفناء، بالإضافة إلى غرف الجلوس، يُزيَّن ببِركةٍ يصل فيها التّرف والتّفنُّن إلى حدود لا تُتصوَّر.

عن الجمال الإستيتيكي المخبوء بين الجدران الخارجية المتواضعة في البيت الإسباني - الإسلامي المغمور بين الدّروب، بقيت لنا شواهد كثيرة؛ وربما كانت أكثرها خيالاً شهادة الإخباري الشّقُندي، الذي عندما يتحدّث عن إقامات الأندلسيين الإشبيليين في القرن الثّاني عشر، والتي كانت تحظى بالكثير من العناية، يذهب إلى حد القول بأن معظم البيوت الإشبيلية لم يكن ينقصها الماء الجاري، ولا الأشجارالوارفة، مثل أشجار البرتقال والليمون الأخضر والأصفر والتّرُنج، وغيرها.

إنّ حرص سلاطين الأندلس على تزويد المدن بالماء يتجلّى في العدد الكبير لشبكات القنوات والقناطر المائية التي كانت تزوّد العديد من المواقع الحضرية. وتشكِّل أحد هذه النّماذج القناطر المائية المعروفة التي كانت، في القرن العاشر، تحمل الماء إلى مدينة الزّهراء، لتزويد تلك المدينة الملكيّة الضّخمة، والتي كان جوفها عبارة عن كتلة متشابكة من الأنابيب، الكثير منها من الرّصاص، حسب ما اكتُشِف من خلال الحفريات الأثرية. كما تميّزت بالأهمّيّة أيضاً قنطرة إشبيلية - ذكرناها آنفاً - التي أمر ببنائها الخليفة الموحّدي أبو يعقوب يوسف (القرن الثّالث عشر)، وأُطلق عليها اسم «أنابيب قرمونة» Caños de Carmona، وكانت تجلب الماء إلى المدينة وإلى «البحيرة» La Buhayra. وللختام، ينبغي أن نذكر قنطرتي قُرطُبة وطُلَيطُلة، اللتين كانتا ترفعان الماء، بمساعدة ناعورة من «الوادي الكبير» و«التّاج».

لا بدّ أن نظام تزويد مدينة الزّهراء كان عظيماً. كان الماء يُستنبط من المنطقة الجبلية التي تسمّى اليوم «سانتا ماريّا دي تراسييرّا» Santa María de Trasierra، على بعد 16 كلم من قُرطُبة، ومن

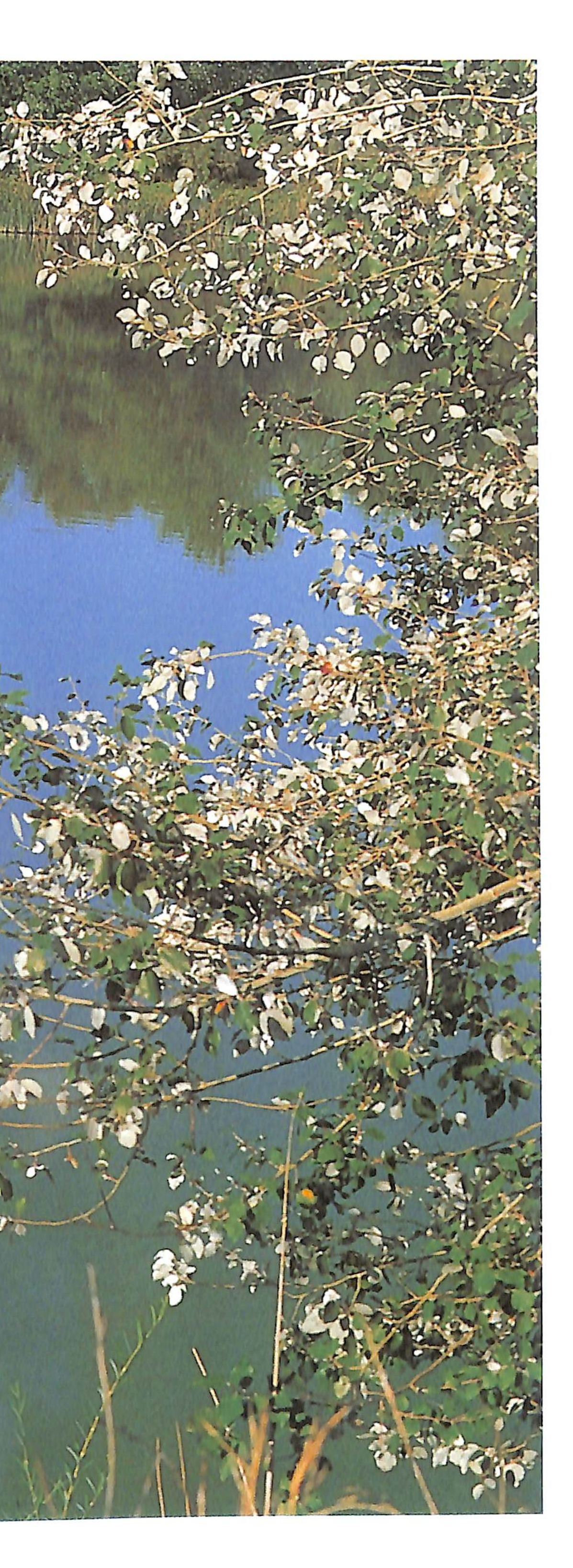


الصّورة في الأعلى على اليمين: قُرطُبة. قصر «بيانا» Viana. نافورة وسط الحدائق

الصّورة في الأعلى على اليسار: في معظم البيوت المسلمة، لم يكن يخلو الأمر من نافورة في الفناء.

الصّورة في الأسفل على اليمين: المغرب. حوض منخفِض التّصميم بزليج مزركش الألوان، على شكل نجمة، يستقبل الماء من الفوارة.

الصّورة في الأسفل على اليسار: غرناطة. الحمراء. فوارة في «نافورة السّباع» Fuente de los Leones. نموذج محفوظ لقصر إسلامي.



«كوريا دِل ريو» Coria del Río (إشبيلية). منظر جزئي من «الوادي الكبير».

هناك، كان يجري، تارة تحت الأرض وتارة على السّطح، بينما يقطع الجبال والشّعاب والوديان، بواسطة قناطر مائية، كالقنطرة الفنّية لـ «بالپوينتِه» Valpuente أو جدول «لاس بييجاس» Las Viejas، إلى غاية القناة الموجودة بمدخل المنطقة الملكيّة للزّهراء.

كما كانت غرناطة النَّصْرية أيضاً تتمتّع بنظام جيد لتوزيع المياه، سواء في المدينة أو في «الحمراء» Alhambra و«جنّة العريف» Generalife، التي كان مصدرها نهر «حَدَرّه» El Darro و«الخِنيل» El Genil (شنيل) وعين «الفخّار» Alfacar.

فقد أمر ابن الأحمر (1237—1273 م)، مؤسّس الدّولة النَّصْرية، ببناء «السّاقية الملكية» Acequia Real التي كانت تجلب الماء من نهر حَدَرّه. بواسطة نواعير وفروع لسواقي ثانوية، كانت «السّاقية الملكية» تحمل الماء إلى مقر «الحمراء» عبر عدّة أجزاء: أحدها عبر «برج الماء» Torre del agua (عن طريق جسر)؛ وكان آخر يوصل الماء إلى «الأحواض الكبيرة» Los Albercones، حيث كانت تخزَّن لتوزيعها في منطقة «جنّة العريف».

هذا الإتقان في شبكة القنوات الهيدروليكية للغرناطيين جعل الرّحّالة الألماني هيرونيموس مُنتْسَر Hieronymus Münzer عندما زار غرناطة، بعد سنتين من انتزاعها من بين أيدي الملوك النَّصْريين، يهتف قائلاً:

> «لهذه القصور جمالٌ وفير، مع شبكة أنابيب الماء الموجَّهة بفنية عالية في جميع الاتجاهات، حتى أنه لا يوجد أبدع من ذلك. من جبل شاهق الارتفاع، يُساق الماء الجاري عبر قناة، ويوزَّع في سائر الحصن»[1].

النّظافة والعادات الصّحيّة

كانت نظافة البدن ولا تزال مبدأً اجتماعياً – دينياً لأهل دار الإسلام. فبالإضافة إلى النّظافة اللازمة – من خلال الوضوء لطهارة البدن وأهوائه، قبل أداء الصّلوات وبعد الاتّصال الجنسي – فإنّ المسلم الصّالح لا يجوز أن يبدأ بالأكل دون أن يغسل يديه قبلاً. وبعد انتهائه من الأكل، عليه أن يغسل يديه من جديد ويقوم بمضمضة فمه.

حول هذا الأمر، تطوّرت في البيوت الأندلسية مجموعة من الأواني التّقليدية المنزلية المخصّصة للماء، من جرار وجُفينات من الخزف غير المصقول أو من الفخّار النّاعم، وصولاً إلى أباريقَ منقوشة، من النّحاس أو الفضّة، كانت تُعرَض بأناقة أمام ضيوف المنزل، حسب المستوى الاقتصادي للأسرة.

وكان الصّابون المُعطّر والمنشفة يرافقان الماء في هذا الطّقس لختم أمثل لنظافة الضّيوف. وفي



الختام، كانت تظهر، في البيوت الثّرية، مِرشّات العطر ذوات الفم المدبَّب، من زجاج الحجر، لترشَّ كل شيء – الحضور والزّرابي – بماء الورد المستقدَم من الإسكندريّة أو الصّين.

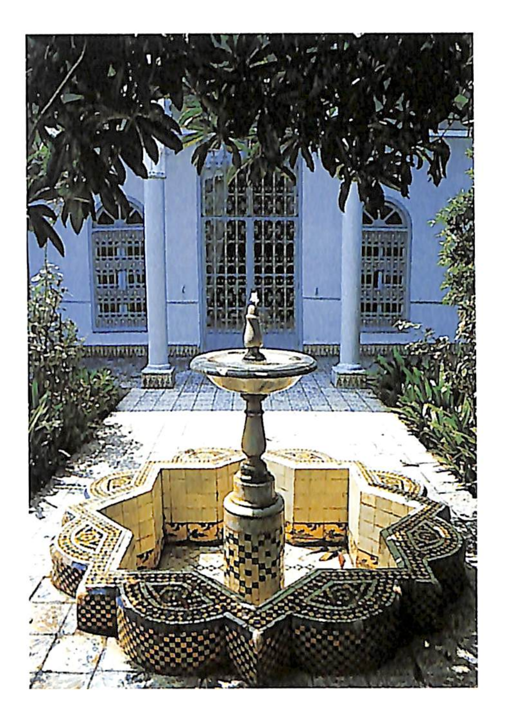
في طُلَيطُلة، على إثر احتفال ودعوة أقامها الملك المأمون (القرن الحادي عشر) لأعيان المدينة، بمناسبة ختان حفيده يحيى، كان طقس الغسل مبهراً كالمأدبة نفسها. ويرويه لنا ابن حيّان على هذا النّحو:

> «ولمّا فرغت تلك الطّائفة جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم، وقد فُرِش أيضاً بوطاء الوشي المرقوم بالذّهب، وعُلّقت فيه سُتورٌ مُثقلة مماثلة، فأخذوا مجالسهم منه، وناولهم الوصفاء الطّائفون بهم رفيع التّقاويات والذّرائر المطيّبات في الأقداح والأشناندانات الفضية محكمة الصناعة، كادت تغنيهم بطيبها عن الغسل. ثم أدني إليهم إثر ذلك الوضوء في أباريق الفضّة المُحكمة الصّنعة، يصبّون على أيديهم في طسوس الفضّة المماثلة لأباريقها في الحُسن والجلالة. فاستوعبوا الوضوء وأُدنيت من أيديهم مناديل يتضاءل لها ما عليهم من سَنيّ الكسوة. ثم نُقلوا إلى مجلس التّطييب أفخم تلك المجالس، وهو المجلس المطلّ على النّهر العالي البناء، سامي السّناء، فشُرع في تطييبهم في مجامر الفضّة البديعة بفلق العود الهندي، المشوبة بقطع العنبر الفُستقي، بعد أن ندّيت أعراض ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجُوري، يصبّ فوق رؤوسهم من أواني الزُّجاج المجدود»[2].

وكذلك فابن الخطيب، الذي كان مؤلفاً في علوم شتى ووزيراً، يروي لنا في أحد كتبه المتأخرة «نُفاضة الجِراب في عُلالة الاغتراب»، استقبالاً أقامه بالحمراء السّلطان النَّصْري، محمّد الخامس في سنة 1362 م، خلال حفل افتتاح عدّة أبهاء لهذا القصر.

في الاستقبال المذكور، بعد تقديم آيات التّعظيم للسّلطان والاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم في مجلس الخلافة، أقيمت مأدبة فاخرة للحضور الحاشد، بكلّ مظاهر التّرف المتعلّقة بالطّعام الأندلسي، إلى أن بدأ صوت الذِّكر يصدح، مع طلوع الفجر:

> «عندما انتهت (التّلاوات)، تصاعد صوت الذّكر الصّادح، الذي كان يتردّد بين الجدران، ويتضاعف بصدى البناء الجديد. تنافس في الذِّكر الخواصّ والعوامّ، فكان له في النّفوس عظيم الأثر. وفي الخيالات فاض الإحساس بالخضوع لعظمة الله، والخشوع خشية منه، حتى أثار الوجدان. ثم سكنت النّفوس، وامتلأ المكان المُغلق ببخور العنبر، حتى ظلّلت سحابته الحضور، وسُكِب



الرباط (المغرب). نافورة بزليج بحوض عالٍ، في قصر خاص.

بعد ذلك ماء الورد، كفيض على غصون الألفة، حتى تقطَّرت منه الشّوارب وابتلّت منه أطراف الملابس، وبدأ النّاي يغنّي ليختم المشاهد التّشريفية»[3].

للاغتسال، كانت تستعمل بين الطّبقات المتواضعة جَفنة كبيرة وأباريق، بينما كانت للأثرياء أبزان في حمّاماتٍ للاستعمال الفردي، في حين كانت الطّبقات الأرستقراطية تتباهى بامتلاكها في قصورها لمجموعة من مقاصير الاستحمام، ببُنية شبيهة بالحمَّامات الرّومانية، والتي كانت توجد من بينها أيضاً للاستعمال العمومي.

الحمّامات كمكان للاجتماع

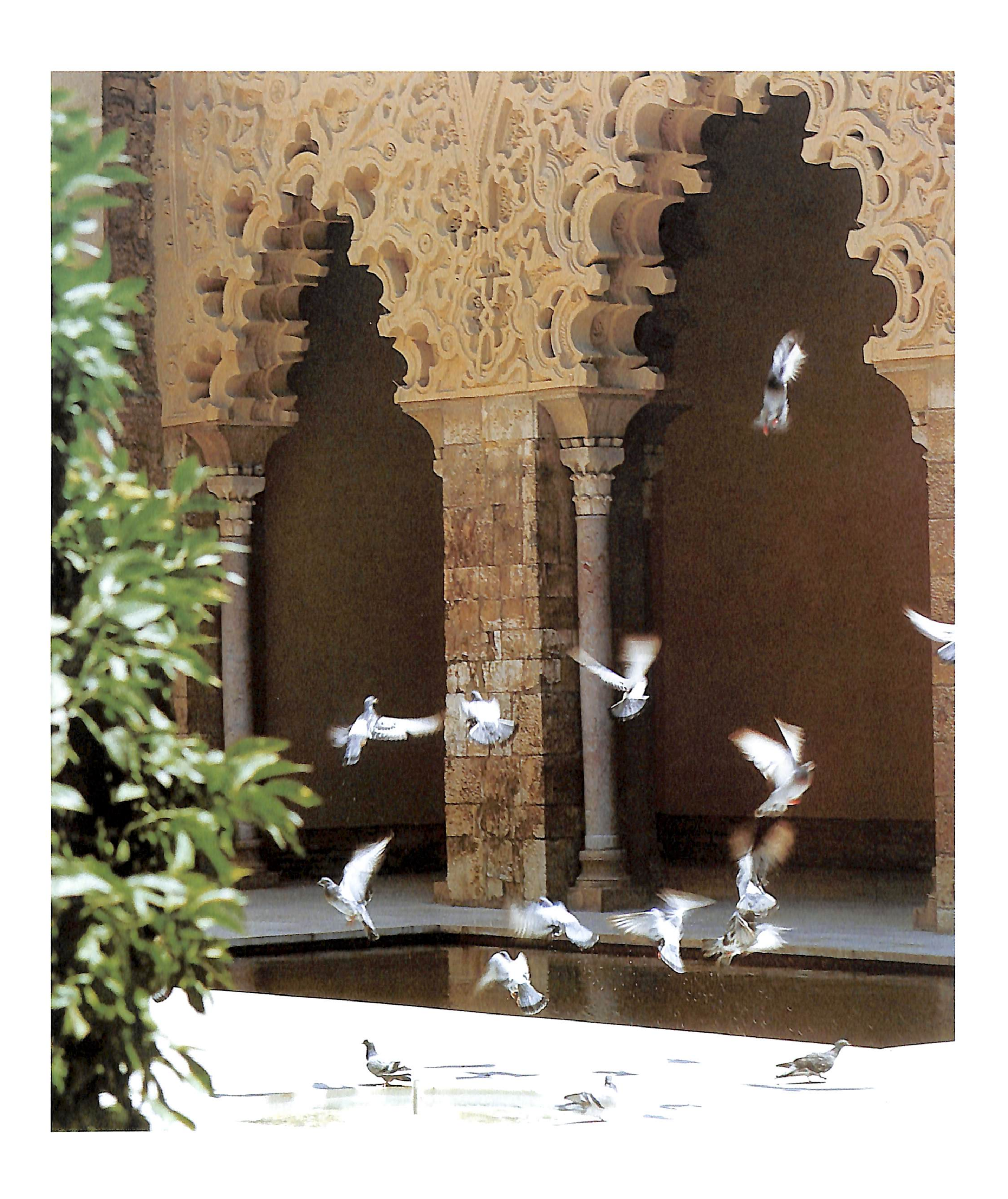
كانت الحمّامات تتواجد في الجزء المركزي من المدينة، قريبة من المساجد - سواء من المسجد الكبير أو من مساجد الأحياء. كما كانت توجد على مقربة من أبواب المدينة المسوَّرة لتكون في خدمة المسافرين. لكنّها دائماً قريبة من قنوات الماء، حتى تتمكّن من تزويدها بالكمّيّة اللازمة لاستعمالها.

وكان ترتيب الصّالات في الحمّام، الذي هو موروث عن حمّامات العهد الرّوماني القديم، يتوزّع على رُدهة كانت تؤدّي إلى مقصورة باردة (البيت البارد)، أوسع وأكثر زينة من باقي المقاصير، ثم إلى مقصورة أخرى دافئة (البيت الوسطاني)، ثم إلى أخرى ساخنة (بيت السّخون). وفي هذه الأخيرة، التي كانت جدرانها أكثر سمكاً وذات سقف مقوّس أكثر انخفاضاً لتكثيف البخار، حوضٌ كبير بماء دائم الغليان، بفعل غلاّية وفرن، وكان مُركَّباً تحت هذه المقصورة، في القبو، أو في مرفق مجاور. وكان الفرن يزوَّد باستمرار بالعرائش وسعف الجُمَّار، بواسطة خدم مكلّفين حصرياً بذلك.

وفي الحمّام السّاخن، المبلَّط بالرّخام، كانت هناك مصارف يجتمع فيها الماء الفائض. ولتعديل حرارة الماء، كان يُصبُّ في الغلايّة ماءٌ أكثر دفئاً، بواسطة عجلة ذات دِلاء، كانت تستخرجه من بئر مجاور.

وكانت الغرفة الدّافئة مغطّاة بقبّة مثقّبة بها فتحات، بزجاج ملوّن، أحياناً على شكل ثُريّا، تسمح بمرور نور الشّمس، الذي يتحوّل إلى أشعة من ضوء على شكل نجوم. وعلى طول الجدران كانت هناك مصاطب عليها مَرتبات للاستراحة المؤقتة للمستحمّين أو للتّدليك.

وبقيّة الاستراحة كانت تتمّ في المقصورة التي تسمّى بالباردة، والتي في الحقيقة كانت تحافظ على حرارة معتدلة. إلا أن الفرق كان يكمن في أنها كانت مروّحة بواسطة مجموعة من الكوّات



سَرَقُسطة. «قصر الخزافة» *Palacio de la Alfarería*. بركة أمام الأروقة.



«بيثنار» (بيت النّار) Viznar (غرناطة). بركة بين العُشب.

المفتوحة في السّقف.

ومن بين الحمّامات التي بقيت بإسپانيا، يمكن لحمّامات الحمراء أن تعطينا فكرة عن ذلك التّرف الباذخ والصّحّي الذي كان يتركّز في العديد من الدّويرات الأندلسية الثّرية. في هذا الحمّام البلاطي، لا توجد فقط غرفة خاصّة بالاستراحة، «غرفة الأسِرَّة»، مزينة بشكل جميل بزلّيج وفناء بحوض مع نافورة في الوسط فحسب، بل كانت مزيّنة بِرواق علوي، حيث كان يجلس، على ما يبدو، موسيقيون عميان، ليؤنسوا تلك الاستراحة بألحانهم، دون الوقوع في خطر التّلصّص على ذلك العري «الفادح» للملوك النّصْريين.

كانت الحمّامات موجودة بوفرة في الأندلس. وعدا عن الحمّامات الخاصّة، كان هناك عددٌ كبير من الحمّامات العمومية في كل مدينة. وكان يُمكن تعداد ما بين ثلاثمئة وستمئة حمّام بقُرطُبة في القرن العاشر، ولا بدّ أنها كانت كثيرة أيضاً بغرناطة وإشبيلية وخايين وطُلَيطُلة وبَلَنْسِية وغيرها، حسبما تكشف الحفريات الأثرية.



وإنّ «الحمّام الصّغير» El Bañuelo بِغرناطة والحمّامات العربية بخايين يمكنها أن تُقرِّبنا من معرفة كيف كانت تلك الخدمات الموجّهة لعامة النّاس في الحمّام، بالأندلس.

كان الحمّام مكان اجتماع عام؛ وكان في فترة الصّباح مفتوحاً للرّجال، وفي فترة المساء مخصّصاً حصرياً للنّساء. كان يشكّل حدثاً اجتماعياً كما بوسعها أن تشكِّل ذلك اليوم تلك التّجمعات الاجتماعية في أي نادٍ نُخبوي. ولا بدّ أن العديد من المكائد السّياسية التي غيرت مجرى تاريخ الأندلس قد حيكت داخل حمّام، كما انبثق العديد من المغامرات العاطفية والإشاعات من هذه الاجتماعات.

كان ثمّة جيشٌ بأسره من الخدم متوفّراً رهن إشارة العدد الكبير للمستخدِمين: وهم مكلّفون بحراسة الملابس، مدلِّكون، حلّاقون، ممشِّطات ومزينات – بالنسبة للنّساء، والخدم الذين كانوا يهتمون بالبنية التّحتية – حتى يبقى الفرن دائم الاتّقاد.

كان المستخدِم، بعد أن يلتحف بمئزر، يترك ملابسه وأغراضه في المدخل بعلاّقة، تحت نظر وانتباه صبي غرفة الملابس، الذي كان يبيعه أيضاً الحجر الصّابوني (الطَّفل) – المستقدم من محاجر «مغام» (اليوم «ماغان» Magán بطُلَيطُلة) – لغسل الجسد والشّعر، ويؤجِّره المناشف.

وبعد ذلك يمرّ إلى المقصورة الباردة، ثم إلى الدّافئة، ومن ثَمّ إلى السّاخنة، حيث يتمدّد في إحدى مصاطب الجدران، ويصبّ عليه صبية الحمّام الماء السّاخن، الذي كانوا يجلبونه من الحوض الحجري بأكواب خشبية، ليمرّوا بعد ذلك إلى تدليك الجسم وغسل الشّعر وترتيبه، في المقصورة الدّافئة.

وللاسترخاء، كان المستخدِمون يستلقون على مراتب مريحة في منطقة المقصورة الباردة، في الرّواق المحيط بها، وهناك، تحت خَدَر النّعاس، كانت تأتي الأسرار السّياسية – الاجتماعية، والاقتصادية، وشؤون الحياة اليومية.

بالنّسبة للنّساء، اللاتي كن يذهبن في المساء، كان يقوم بخدمتهن فريق نسوي. كن يجتمعن هناك كما لو كنَّ في جلسة سمر بين الصّديقات، حتى أنهن كن يتناولن وجبات خفيفة ويدردشن حول ما هو إلهي وما هو إنساني، بينما خادمات الحمّام تدلِّكهن بدهانات معطرَّة وزيت حبِّ المِسك، وتمشِّطهن، وتُزِلن الشّعر الزّائد من أجسامهن، أو تزيّنهن بالحنّاء، وتبرزن سواد عيونهن بالكُحل الشّهير أو مسحوق سلفيد الأنتيمون.

كان الحمّام وطقوسه، بالتّالي، يمثّل محفلاً اجتماعياً حقيقياً. ولكن للأسف، على إثر حرب «الاسترداد» la Reconquista بدأت الحمّامات العربية تندثر، أو تُستعمل كمخازن أو أقبية للخمر أو كأحواض لسقاية الماشية، وذلك لاعتبار استعمالها بؤرة للشّذوذ والتّرَف.

إشبيلية. «أنابيب قرمونة» Los Caños de Carmona. كانت تجلب الماء إلى المدينة وإلى «البحيرة»، منذ العهد الموحّدي.

وإن كانت الحمّامات، من حيث توزيعها المعماري ونظامها الوظيفي لاستعمال الماء، تجد

سابقة أقرب لها في حمّامات العصر الكلاسيكي القديم (اليونان وروما)، فإن هناك مجموعة من العناصر تجعلها مختلفة.

في العصر القديم، ظهر الحمّام ضمن إطارٍ جمالي، مبنيٍّ على صقل الجسد، وحول مختلف الأنشطة الرّياضية التي كانت تُمارس في اليونان، خاصّة حول ما يسمّى بالألعاب (سواء في أوليمپيكوس، أو پيتيكوس أو نيميوس، حسب المدينة الإغريقية التي كانت تقام فيها وتستمدّ منها اسمها).

كان الرّياضيون اليونانيون، بعد استعراضهم في ميدان المصارعة، حيث كانوا يؤدّون عُراةً، سواء رابحين أو مهزومين، يمرّون لاستعادة قواهم من خلال حمّام ساخن ينشّط جسدهم، بإزالة العرق والدِّهن الذي كانوا يدهنون به أجسادهم، خاصّة في المصارعة الحرّة، رجلاً لرجل.

فكان الحمّام، بذلك، يكمّل العناية الدّقيقة للشّبان الإغريقيين بأجسامهم، إذ كان التّمجيد للأشكال الجسدية المتناسقة والأپولينيّة (نسبة إلى الإله «أپولّو») أحد أكبر اهتماماتهم. وهو تمجيد انعكس بشكل وافٍ في قوانين الجمال المتعلّقة بتماثيل النّحاتين الإغريقيين، التي بوسعنا أن نشاهدها اليوم في المتاحف.

أمّا روما، فقد تبِعت، في مذهب المتعة، طريق أسلافها الإغريق، وقد استقبلت الحمّامات الرّومانية، على حدٍّ سواء، شباباً رياضيين ونبلاءً ناضجين و«شيوخاً» من السّيناتو. والحال أن الحمّامات، كما كان الشّأن في روما، كانت تستقبل على الدّوام نُخبة معيّنة.

أمّا وظيفة الحمّام في التّصوّر الإسلامي فهي النّظافة أو الطّهارة من النّجاسة، إذ أن المسلم المتديّن لا يستطيع أن يذهب إلى المسجد ولا أنّ يؤدّي فرائضه دون أن يغتسل قبل ذلك، بشكل أساسي بالماء.

وهنا مفهوم آخر: ألا وهو أنّ الحمّام يجب أن يكون في متناول الجميع، ومن هنا وفرة الحمّامات العمومية.

في الممارسة اليومية سيكون الاجتماع في الحمّام كالاجتماع في أيّ مركز اجتماعي للحيّ، لكننا سنشهد كذلك استعمال الحمّام لدى الطّبقات الأندلسية العليا، من منظور التّرَف البحت.

كان الحمّام العمومي يتيح مساواة اجتماعية، لم يكن أحياناً يُرحّب بها، كما تؤكّد ذلك قصيدة لأندلسي مغرور لم يكن يطيق طابع المساواة هذا[4]:

منزل أقوام إذا ما تقابلوا — به تشابه وغده ورئيسه

ينفّس كربي إذ ينفّس كربه — ويعظُم أُنسي إذ يقلّ أنيسه

الماء والطّب

بالنسبة للطّبيب والوزير الغرناطي ابن الخطيب (القرن الرّابع عشر): «الماء هو أحد دعائم الجسم» كما يبيّن في «كتاب الصّحّة» (الوصول لحفظ الصحة في الفصول).

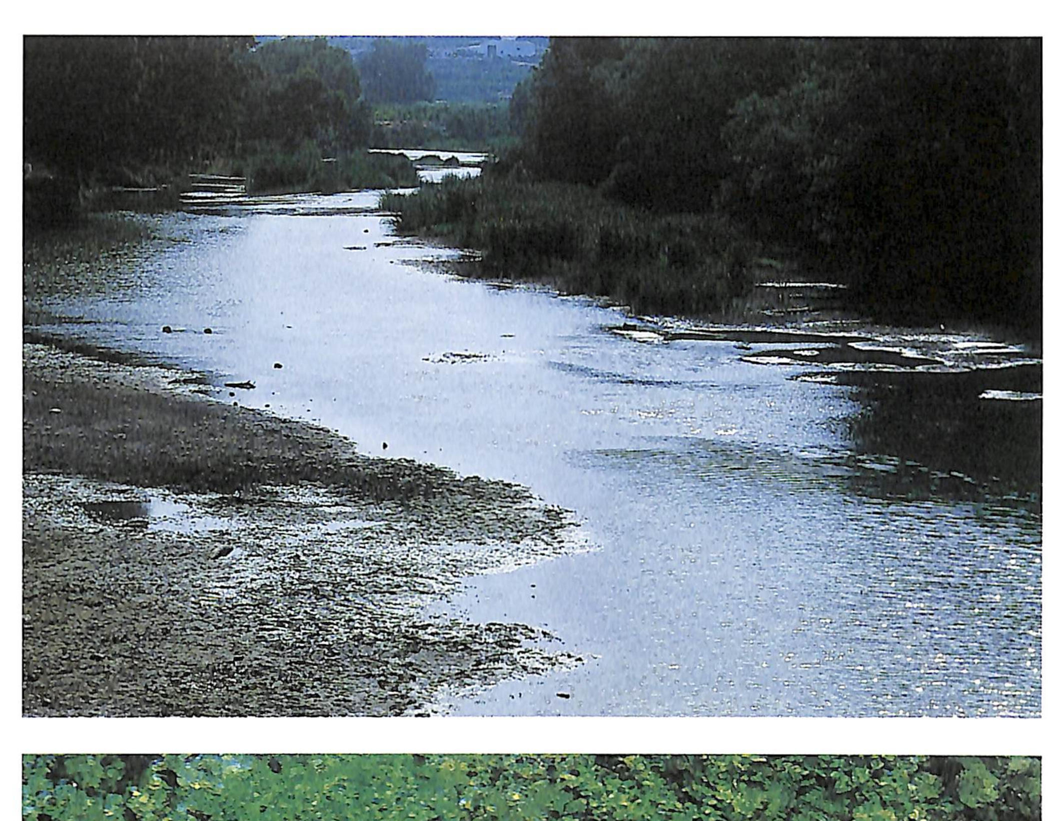
وقبل ذلك بقرنين، كان ابن رُشد، وهو طبيب وفيلسوف آخر من قُرطُبة، قد وضع أفضل تصنيف لماء الشُّرب:

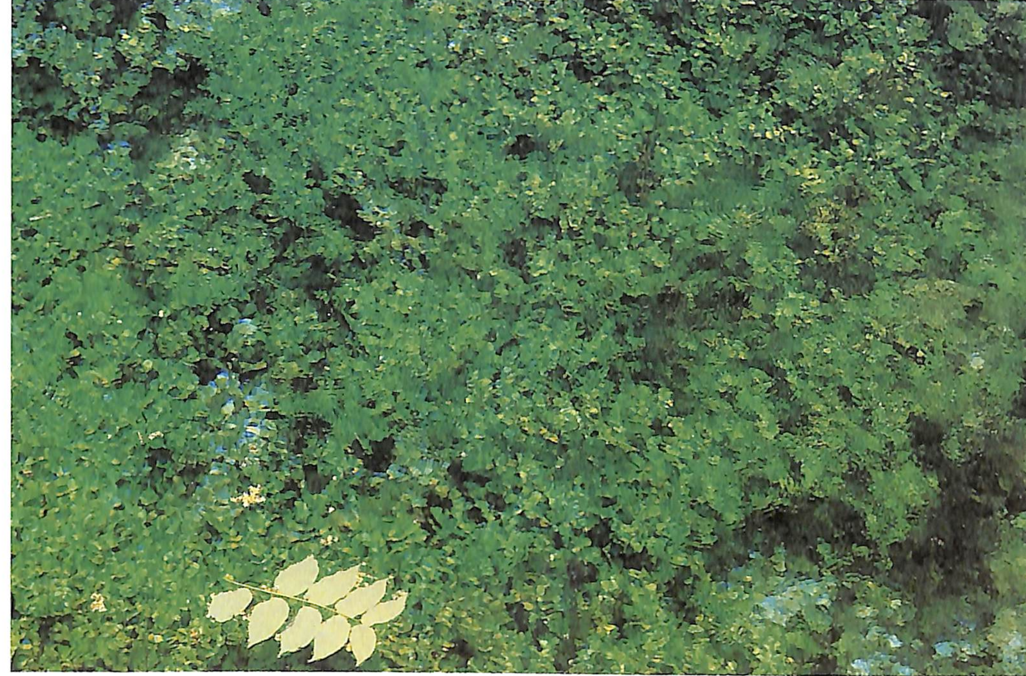
> «فيما يتعلّق بالمياه، فأفضلها هي تلك التي يكون أصلها من منابعَ أرضها من التّراب الدّقيق، ومياهُ العيون، والمندفعةُ إلى الشّرق، المياه العذبة والشّفافة، التي لا طعم لها ولا رائحة، وكذلك، المياه الصّافية وخفيفة الوزن. وإذا لم تتوفّر، ينبغي أن تُشرب المياه الحلوة النّابعة من الأنهار الكبرى والتي لم تختلط بماء يكون مصدره الثّلج الذّائب أو المطر. بوجه الإجمال، هذا هو مجموع... المياه التي تعتبر ذات جودة، للحفاظ على الصّحّة»[5].

وفي الأندلس، كان الأطباء، الذين كانوا مؤلِّفين حقيقيين في شتَّى العلوم، يمارسون بالأساس طباً وقائياً، وهو الوحيد الذي كان من شأنه أن يوفر للإنسان حياة متوازنة. فابن الخطيب، في كتابه المذكور، عندما يتحدّث عن «فنّ الطّب» الذي كان يُمارَس آنذاك، يقول متذمِّراً:

> «... تكثر العلاجات وكذلك المصنّفات، كما تتعدّد أهدافها وأنواعها. لكن «حفظ الصّحّة الدّائم والحفاظ عليها من سُبل الإهمال» جملة لا تُذكر إلا في النَّزر اليسير منها وفي مناسبات قليلة. ولو حكموا برجاحة عقل، لكان الحفاظ على الصّحّة الاهتمامَ الأول من بين كل الأمور، والبيان والتّعبير الأصح، لأنه إذا ما تحقق المغزى منه وتم الالتزام بمقتضياته، فنادراً ما يُخشى المرض»[6].

وخير دليل على هذا الاهتمام الوقائي هي النّصائح المتكرّرة حول الطّعام والشّراب التي كان يقدّمها الأطباء الأندلسيّون لمرضاهم، حسب أعمارهم وخصائصهم البيولوجية، مستهلِّين بذلك نظاماً للتّغذية كاملاً للحفاظ على الصّحّة والقدرات الحسنة. ومعظم المصنفات الطّبية الأندلسية تنصح، باستمرار، بالأكل الأنسب، وشرب الماء الأكثر نقاء – وإن كان هناك حديث أيضاً، أحياناً، عن الخمر.







الصّورة في الأعلى

نهر خِنيل El Genil، الذي كان يزوّد «الحمراء» بالماء.

الصّورة في الأسفل

غرناطة. عين «الفخار» Alfacar الكبرى، حيث كان يأتي الغرناطيون لكي يتزوّدوا بالماء، لاستهلاكهم.

بركة «إل بَرطال» El Partal في الحمراء، وكانت تزوّدها بالماء المخصَّص للمتنزهات وبماء الرّي.





الصّورة في الأعلى

غرناطة. الحمراء. «الأحواض الكبيرة» Los Albercones، التي كانت تخزن الماء لتوزيعه في «جنّة العريف» El Generalife.

وفي هذا الصّدد، فإنّ رسالة ابن الخطيب - وهو طبيب وشاعر ومؤرّخ ووزير في غرناطة النّصْرية - التي نعرفها بـ«كتاب الصّحّة»، وعنوانها الكامل «الوصول لحفظ الصّحّة في الفصول»، مصنّف كامل في الطّب الوقائي والغذائي، باعتبار هذا الأخير صحّة، وفي وذات الآن، أسلوباً متوازناً للحياة يسعى إلى الكمال، الذي ينبغي لكل مسلم أن يطمح إليه.

وفي هذا الإطار الصّحّي- الغذائي، يشير ابن الخطيب إلى أنواع ماء الشّرب، مبيّناً أفضلها جودة، وأفضلها للاستحمام، وإلى كيفية القيام بذلك. ومن بين أنواع الماء المخصّص للشّرب يذكر أن أفضلها هو ماء النّبع بأرض حارَّة ومجرى دائم، ومن بين هذه المياه، يكون الماء الذي ينبع من أرض ترابية طينية خير من مياه الأرض الحجرية. وتعتبر مياهاً جيدة أيضاً تلك التي تأتي من ينابيع قويّة الدّفق والانسياب، والمندفعة باتجاه الشّرق والبعيدة عن مَنشئها.

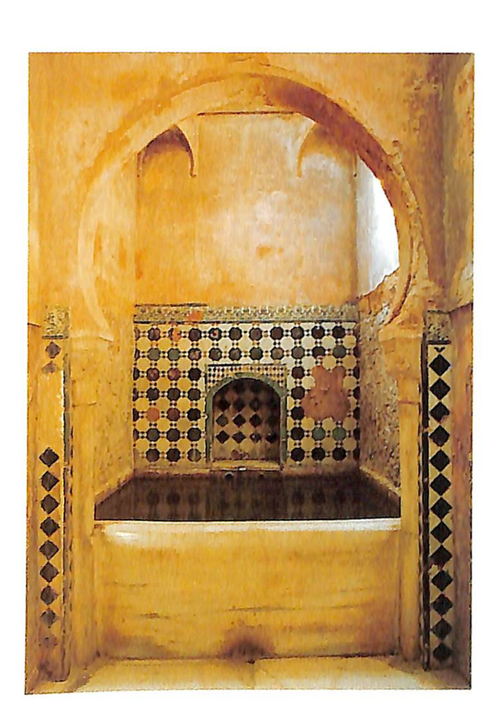
وتعدّ جيدة أيضاً مياه الينابيع القادمة من مناطق مرتفعة، عذبة المذاق، وخفيفة الوزن، بلا طعم ولا رائحة، سهلة الهضم وسريعة الغليان.

أما بالنّسبة لسلم تقييم المياه الأخرى، فهو يختار مياه المطر، في المقام الأول، خاصّة مياه مطر الصّيف، ثم مياه مطر العاصفة، التي يمكن أن تتحسّن مع الغلي (وبذلك نعلم بأن الأندلسيين كانوا يشربون الماء المغلي).

وهو يعتبر مياه البئر أقلّ جودة، ومُضِرَّة تلك التي تجري في قنوات رصاصية، والمياه الحمئة والنّشادرية. كما يمكن شرب المياه التي تأتي من الثّلج الذّائب إذا ما كانت نقيّة. أمّا مياه الحمّامات الطّبيعية فيُنصَح بها لكبار السّن والأشخاص الذين يعانون من البرد.

الصّورة في الأسفل

غرناطة. قصر «الحمراء». غرفة حمّام «قُمارِش» Comares.



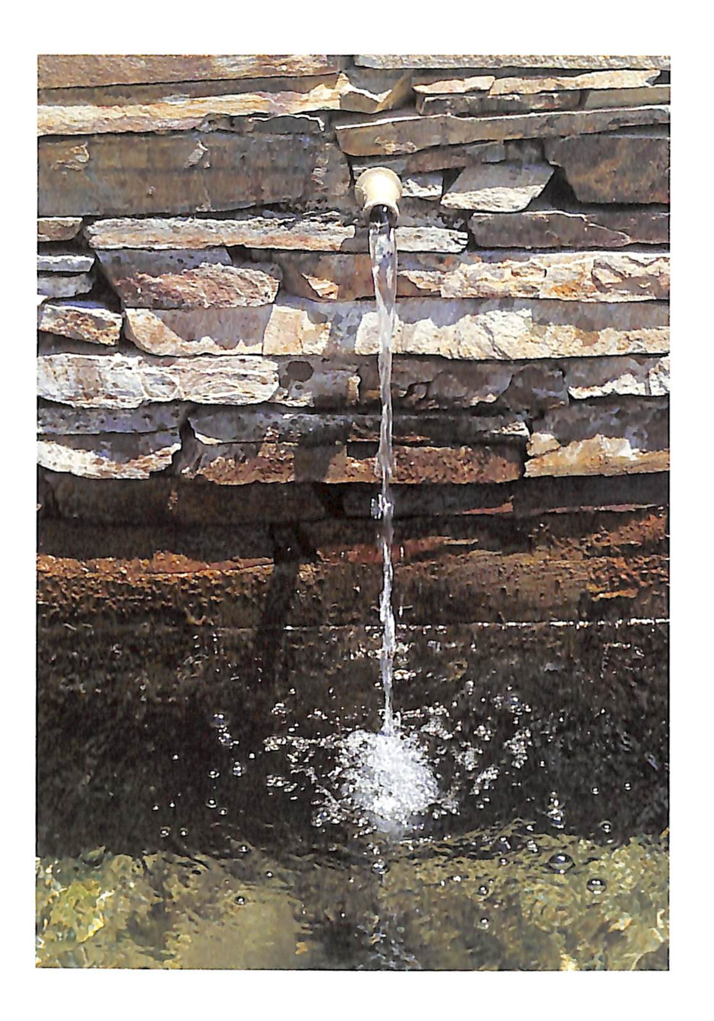


غرناطة. الحمّامات الخاصّة لقصر الحمراء. المقصورة الساخنة بقبّة ذات كوى على شكل ثريّات.

فيما يخصّ الحمّام، يقول إنه أساسيّ للحفاظ على الصّحّة، إلا أن الأمر يتعلّق بكل شخص وبنيته. فالأشخاص ذوو البنية الضّعيفة، النّحيلة والهزيلة تناسبهم رطوبة الحمّام، لكن لا يناسبهم التّعرُّق. أما الأشخاص ذوو البنية القوية، والبدينة، أو المترهلة والثّقيلة فيحتاجون إلى الجفاف، مع تفادي الانغماس في الماء البارد. إذا كان المستحِمّ «يبدي حزناً وهزالاً» (باصطلاح اليوم، مكتئباً)، فذلك لأنه قد أفرط في دخول الحمّامات، وعليه أن يقلّ منها.

ويضيف أنّ مزايا الحمّام الأساسية تكمن في أنه يليِّن الجسم، ويفتح المسام ويميط الدَّرَن. ويخبرنا، بدقة، عن بعض العادات «الصّحّية» للأندلسيين:

> «ويذهب آخرون إلى أنّ الحمّام له على الجسم نفس أثر الخمر، أي السّرور والمتعة، ولذلك ترى معظم النّاس يغنّون وهم يستحمّون»[7].



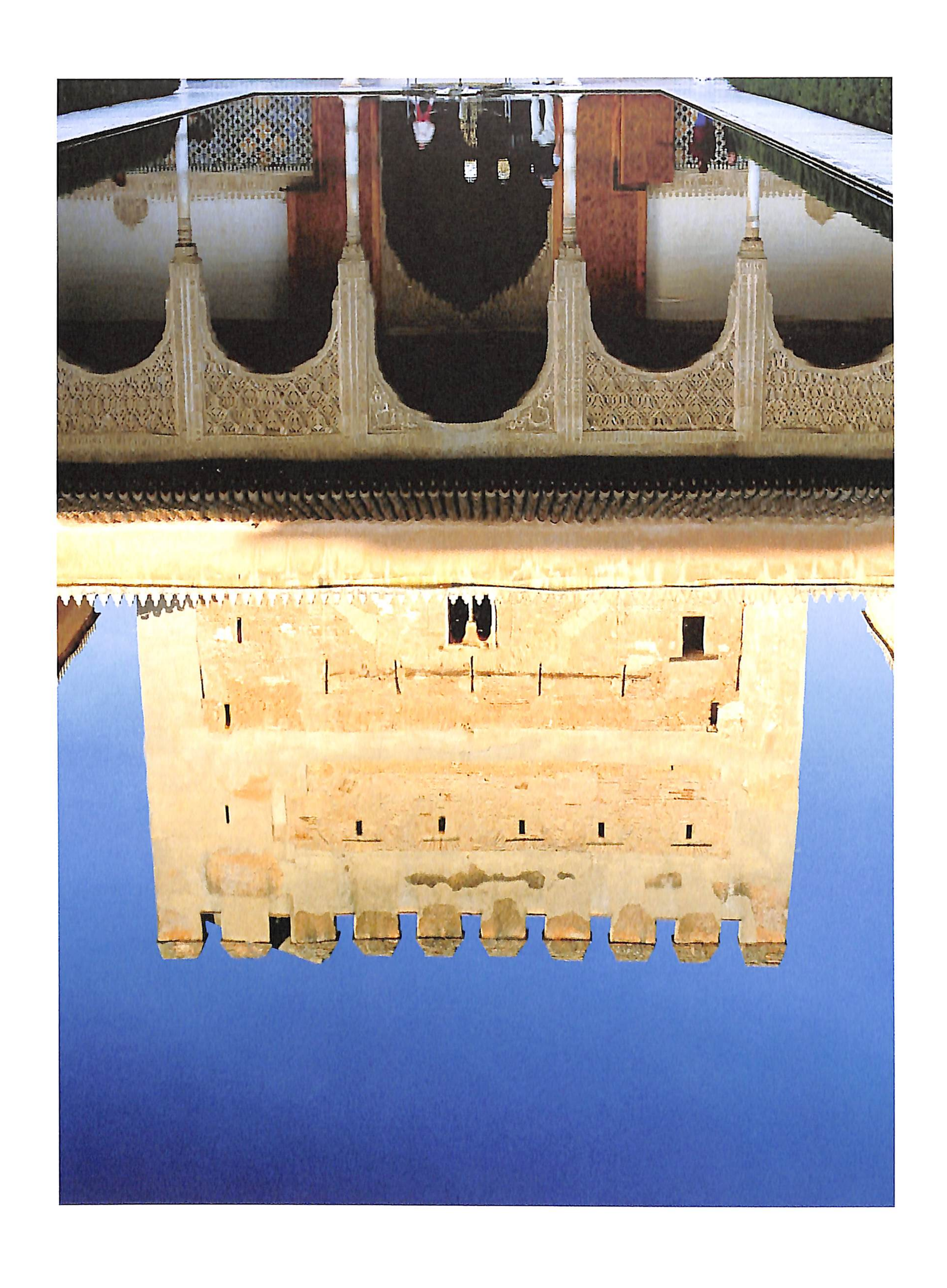
«لا ألپوخارّا» La Alpujarra. سبيل عمومي.

(لم نكن نعلم إلى أيّ مدى يصل تأثير الموروث الأندلسي فينا!). ويضع ابن الخطيب علاجات غذائية حقيقية، ويصف حِميات للأكل والشّرب حسب البنية وحسب فصل السّنة. وهو يصف، في مناسبات عديدة، شراب الماء المعسَّل («الماء الذي يضاف إليه عسل»)، لأنه يعطي سعرات حرارية. وتعود عادة الماء المعسَّل، في بدايات الإسلام، إلى تطبيق الطّب النّبوي، فوِفقاً للحديث، كان الرّسول يتناول العسل ممزوجاً بالماء البارد كل صباح وينصح باستعماله:

«العسَلُ شفاءٌ مِنْ كلِّ داء والقُرآنُ شفاءٌ لِمَا في الصّدور، فعلَيكم بالشّفاءين: القُرآن والعسَل».

غرناطة. «الحمّام الصّغير» El Bañuelo. غرفة الاستراحة على ضوء الكوى. كانت الحمّامات العمومية موجودة بوفرة في الأندلس.





فناء «قُمارِش» Comares بالحمراء انعكاس المبنى على البِركة المركزية يخلق أثراً جمالياً فريداً.

الفصل الخامس

جمالية البُعد الرّابع

ما وراء انطباع الحواس

يُعدّ الانطباع البصري أساساً في التّأثيرات الزّخرفية للفنّ الإسلامي. فلُعبة الأضواء والظّلال المنعكسة بين المُقَرْنَصات mocárabes، ونقوش التّوريقات ومكعّبات الفسيفساء الذّهبية تكتمل بانعكاسات الماء، التي ستتسلّل إلى البيوت الفخمة كعنصر تزييني آخر، بل وحتى كعنصر معماري لا غنى عنه في دواخل القصور الأندلسية.

تُرى هل كان مزيج الماء والمعمار مجرّد متعة للحواس؟ هنالك أُسس قوية للتّفكير بالنّفي. إذ أنّ للماء في العالم الإسلامي، قبل كل شيء، قيمةً روحيّة عميقة سبق أن أشرنا إليها من قبل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

(القرآن، سورة الحجّ، الآية 63)

إن مشاهدة الماء في الطّبيعة أو بين جدران منزل كان يعني ذكراً دائماً لله، الذي وهب هذه النّعمة الثّمينة للبشر. إذ ليس هناك ما هو أكثر مدعاة للأسف من بِركة فارغة أو نبع جاف.

إن الماء ليس فقط - كما كان دائماً وما زال - السّائل الضّروري لحياة الكائن البشري، بل سيصبح في الزّخرفة الإسلامية عنصراً تزيينياً متعدّد الأغراض:

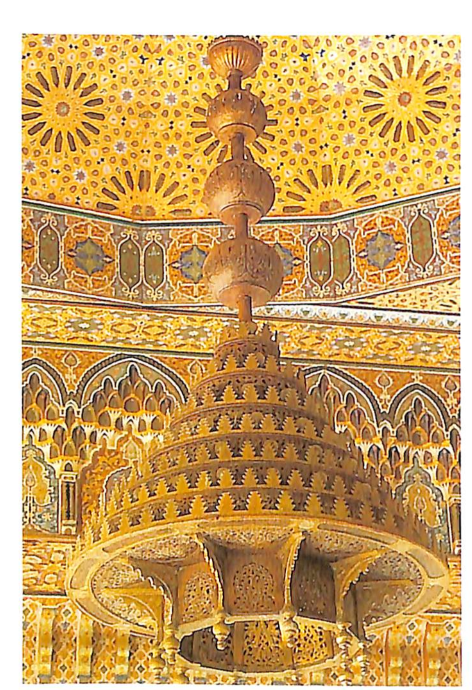
1. عنصر أساسي لخلق فضاءات مُتوهِّمة، بعكس الفضاء إلى أبعد ممّا هو تماماً ثلاثيُّ البعد.
2. يُدرِج الطّبيعة الحيّة والمتحرِّكة داخل الأُطُر المعمارية المغلقة التي ستتحوّل إلى حدائق من رُخام، وزلّيج وجِبس.
3. على غرار جسم سماوي غير مضيء بذاته، يساعد على إضاءة العالم الصّغير الذي يندرج فيه، بِعكس الضّوء الذي يستقبله وتسليطه على المحيط بأكمله.
4. إيقاعه الصّوتي، الذي لا يضاهيه أيّ صوت آخر، ينقل تلك الموسيقى إلى كل المحيط، مع انطباع مريح وهادئ.
5. انكسار وانعكاس أشعة الشّمس عندما تقطع ذلك الجسم السّائل، التي تعكس، من خلال قوسٍ، الألوانَ السّبعة للطّيف المضيء. كاستباق عابرٍ للجنّة، يظهر «قوس السّماء» أو قوس قزحٍ، بين الماء المنبجس من النّافورة.

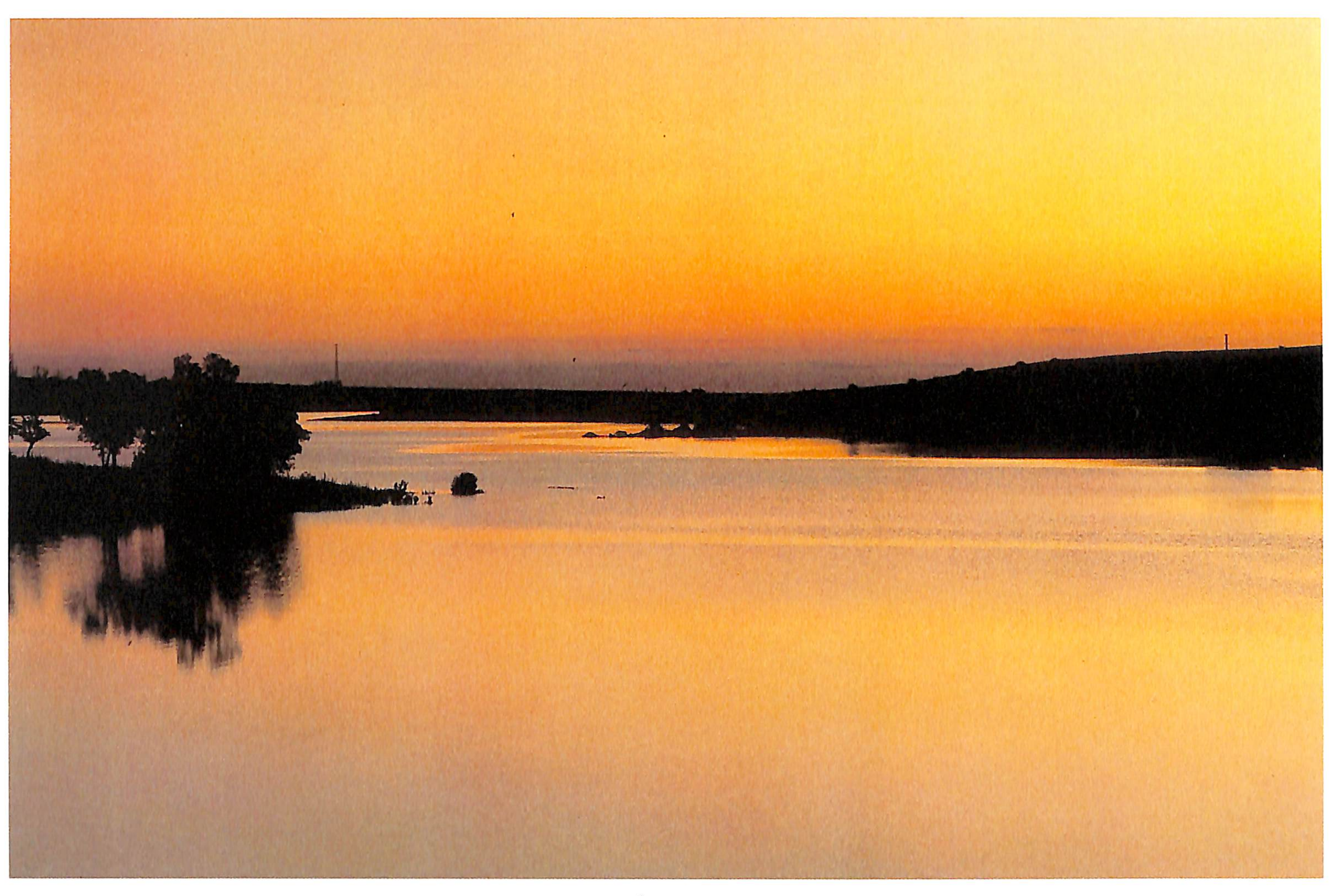
الصّورة على اليمين

(مدريد، جبل لوس پورّونِس» *Los Porrones*). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ (القرآن، سورة الحجّ، الآية 63).

الصّورة على اليسار (في الأسفل)

المغرب. ثريّا من بهو بلاطي. في هذه المساكن الفاخرة، كانت للماء أهمّية كبرى.





(«سيغوبيا» Segovia. النّبع العالي لنهر «إيريسما» Eresma). كان تأمّل الماء في الطّبيعة بالنّسبة للمسلمين دوماً ذكراً لله.

6. يُسهِم في الجمالية الزُّخرفية للمحيط: فطبيعته الشّفافة لا تعيق مشاهدة الألوان المتعدّدة التي تزيّن القعر بالزّلّيج المخصّص للأحواض، ولا الألوان الزّاهية للأسماك الفاخرة التي تعيش فيها.
7. بالإضافة إلى ذلك كلّه، فهو يتّخذ شكل الإناء الذي يحويه، مغيّراً شكله بحسب تصميمه: فتارة يكون شلّالاً مندفعاً؛ وتارة أخرى ماءً مُنبجساً يرتفع بقوة نحو السّماء، ليسقط مرّة أخرى، على شكل قَطعٍ مكافئ؛ وفي معظم الأحيان، يكون سطحاً أملس وشفافاً، لا تكدّره إلا دوائر موجاته المتراكزة، عندما يحرّكها الرّيح أو حين تضطرب إثر السّقوط من النّافورة.

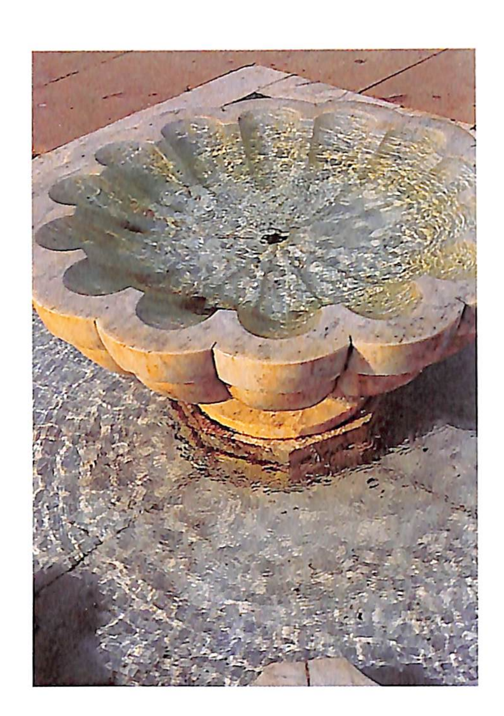
أراد السّلاطين الأندلسيون، المتديّنون بوجه عام، أن يضمُّوا الفكرة الدّينية لِذكر القرآن الكريم للماء إلى الرّونق الجمالي للعمارة الدّاخليّة. وفي الزّخرفة الدّاخلية للقصور الأندلسية كان يتكرّر باستمرار مفهوم الحديقة: في الخارج، كانت هناك طبيعة حيّة بأشجار وأزهار وفواكه وقبّة زرقاء وماء؛ وأمّا في الدّاخل فكانت هناك حديقة أخرى بأشجار من رُخام (أعمدة)،

وأزهار وفواكه من جِبس (توريقات)، وقبّة زرقاء في المُقامات (القِباب) وماء.

وحده الماء كان يحافظ في الدّاخل على طبيعته الحيّة، كما لو أنّ يد الفنان لم تكن قادرة على تصويره في طبيعة جامدة. لماذا هذا الشّغف الإسلامي بالحديقة؟ لعلّه هروبٌ من الصّحراء التّقليدية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمة العربية؟ ليس ذلك مرجّحاً. إنّ «الحديقة - الجنّة» بالنّسبة للعالم الإسلامي هي وعدٌ بالنّعيم:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾. (القرآن الكريم، سورة النّساء، الآية 13)

لِمَ لا نُفكّر بأنّ هذا الرّونق الجمالي لم يكن في الأصل إلا تذكيراً مستمرّاً بذلك «الماوراء» القرآني؟ (والذي لا يمكن استيعاب البُعد الحقيقي لأهمّيته إلا من خلال اللغة العربية مباشَرة).



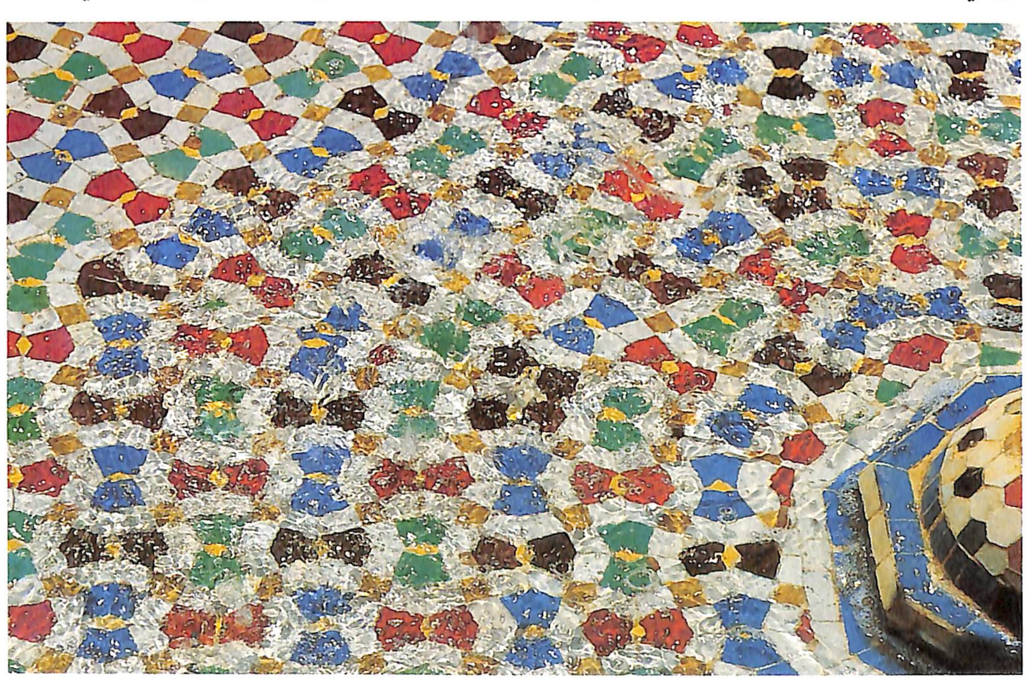
الصّورة في الأعلى

الرباط (المغرب)، نافورة مفصّصة. سطح الماء شفّاف لا تكدّره إلا الموجات الخفيفة.

المدن الملكية للأندلس

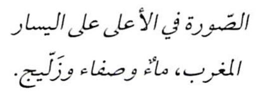
ما هو صحيح أيضاً هو أن السّلاطين الأندلسيين سرعان ما نسوا هذا الأصل الرّوحي - الجمالي وانهمكوا في تشييد قصور بترَفٍ لا حدود له، ينافسون بعضهم البعض، حتى أنهم كانوا، مزهوّين بأعمالهم، يتباهون بها بغرور أمام حاشيتهم.

وفي هذا الصّدد، ثمّة فقرة للمؤرّخ الحِمْيَري (القرن الرّابع عشر) في كتابه «الرّوض المِعطار»، يروي فيه كيف أن الخليفة، عبد الرّحمن الثّالث، عند الانتهاء من بناء مجلس الخلافة في مدينة



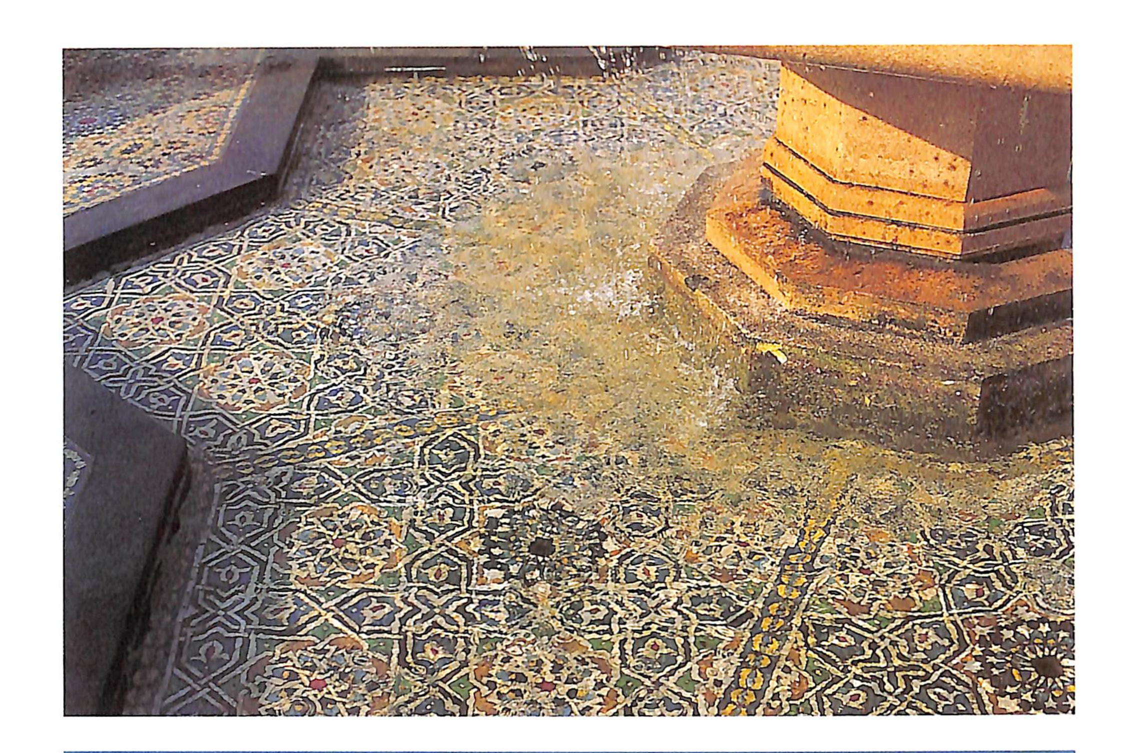
الصّورة في الأسفل

(المغرب). ماء بين الزّلّيج. لطبيعته الشّفافة لا يعيق مشاهدة الألوان المتعدّدة في قعر الأحواض.



الصّورة في الأعلى على اليسار

المغرب، ماءٌ وصفاء وزَلّيج.



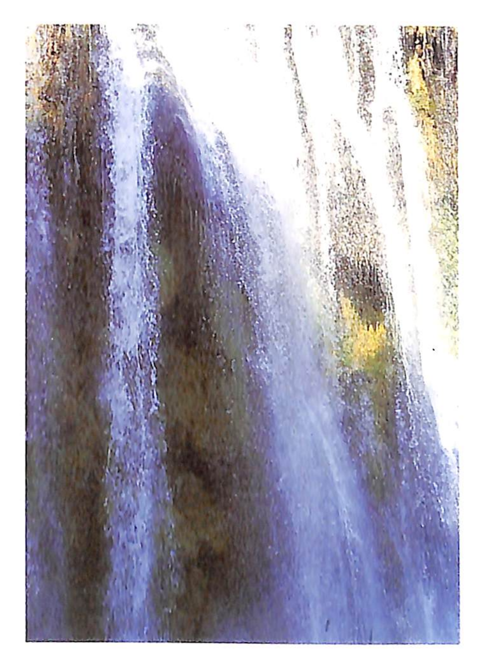
الصّورة في الأسفل على اليمين

«دير الصّخرة» Monasterio de la Piedra (سَرَقُسطة). يتخذ الماء أحجاماً وتدفّقات متعدّدة. أحياناً، كشلّال مندفع.



الصّورة في الأسفل على اليسار

بحيرات «رويديرا» Ruidera. الماء كسطح أملس.



الزّهراء، المدينة الملكيّة، والذي استُعمِلت في قبّته قراميد من الذّهب والفضّة، جلس على عرشه أمام حاشيته، وسأل مفتخراً:

«رأيتم أو سمعتم مِلِكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟»

فأطرى عليه كل البلاط، ما عدا شخص واحد، وهو القاضي المُنذر بن سعيد البَلّوطي الذي وجد في نفسه الجرأة لكي يقول له:

«والله يا أمير ما ظننت أن الشّيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكِّنه من قيادك هذا التّمكين، مع ما آتاك الله تعالى وفضَّلك به على المسلمين حتى يُنزِلك منازل الكافرين»[1].

فغضب الخليفة، وطلب منه أن يفسِّر كلامه، فذكَّره القاضي الجريء، مشيراً إلى سورة من القرآن الكريم، بالوعد الإلهي الذي يقول بأن الله لن يُعِدَّ أسقفاً من فضّة إلا للكافرين، لتمييزهم عن المؤمنين الصّالحين. هذه الموعظة أثّرت عميقاً في نفس عبد الرّحمن الثّالث، الذي – حسب ما يرويه الحِمْيَري – «وجم (...) ونكّس رأسه ملياً ودموعه تتحدّر على لحيته خشوعاً وتذمُّماً ممّا جرى». وبعد أن اعترف بحقيقة كلام القاضي، استغفر الله، واعتذر من الحضور، ثم أمر بتبديل قراميد الذّهب والفضّة بقراميد من طين.

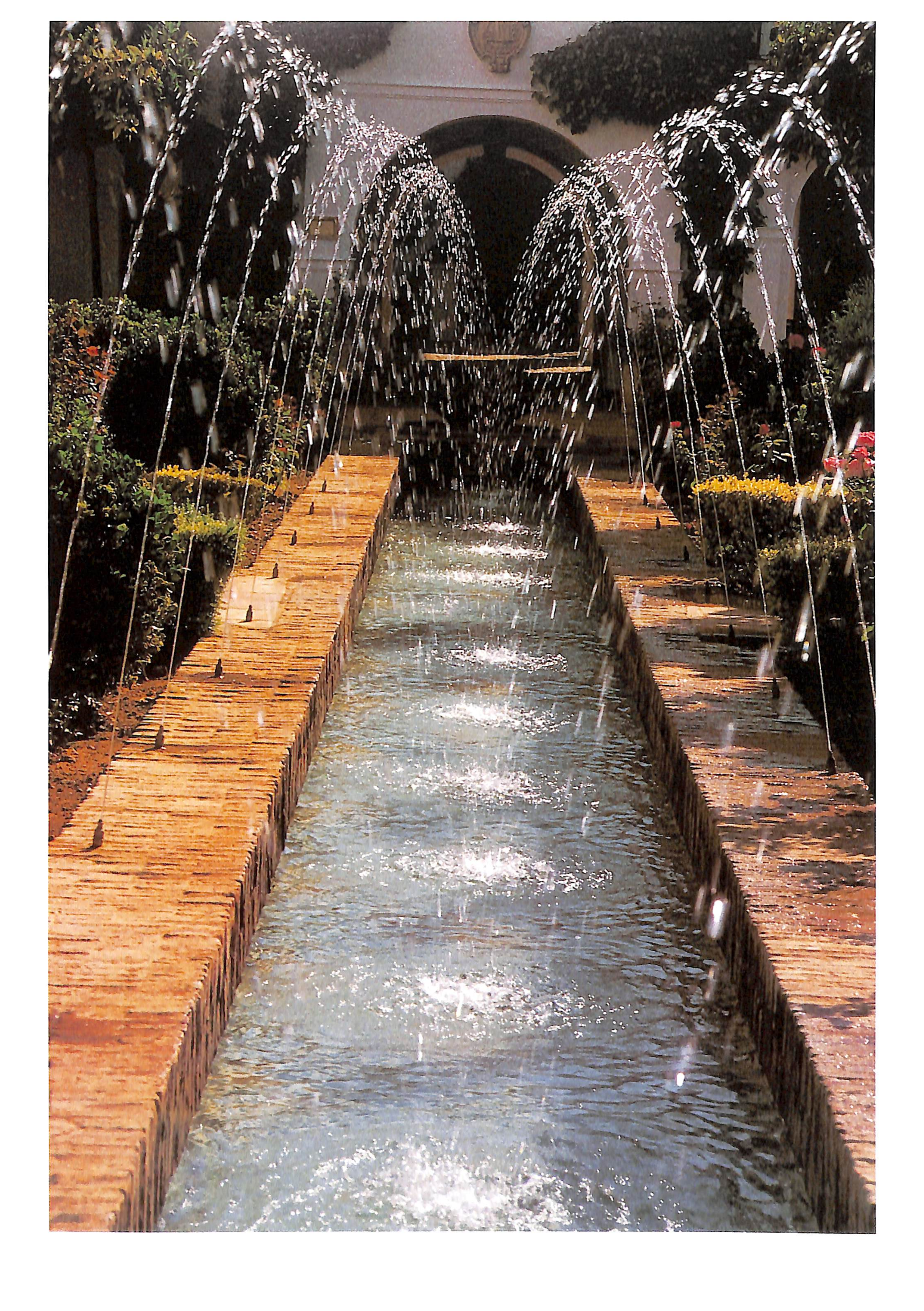
لكنّ الحال أن قصور ملوك الأندلس، سواء أكان لها مغزىً روحيٌّ أم لم يكن، أبهرت كل مَن كانت لهم حظوة مشاهدتها. وعلى مرّ القرون، كان كلّ سلطان أندلسي، سواء كان أميراً أم خليفة أم مُلَيكاً من ملوك الطّوائف، يشيِّد قصوره على صورة ومثال سلطته السّياسية.

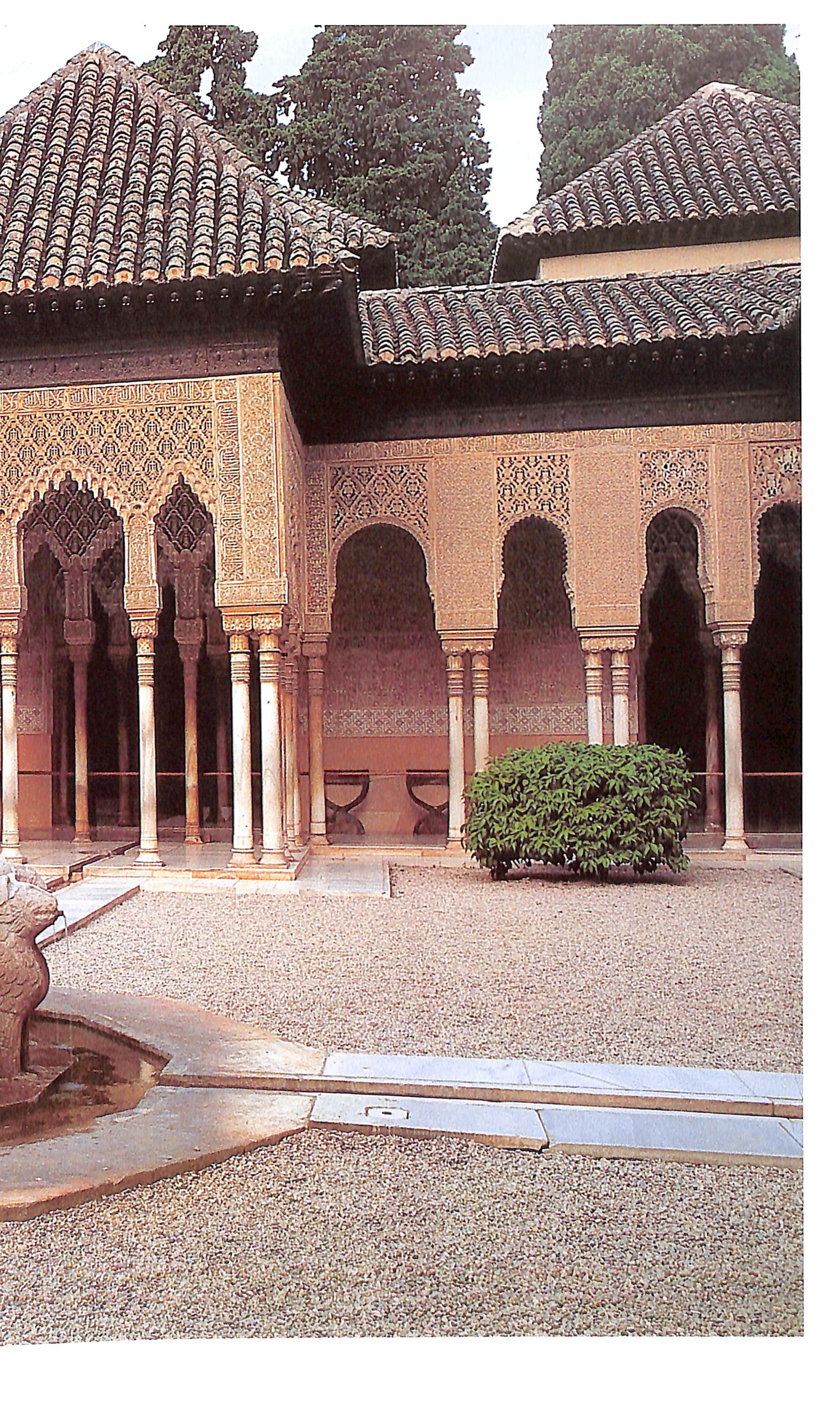
ومرّة أخرى، تركت لنا الكتب الإخبارية إشارات عمّا أخذ الإنسان والزّمان في تدميره شيئاً فشيئاً؛ وبفضلها، لدينا اليوم أخبار عن تلك القصور الملكيّة القُرطُبية، التي تقع على مقربة من «الوادي الكبير» والتي كانت مكان إقامةٍ لأول أمير للأندلس ولباقي الأمراء والخلفاء الأمويين.

في هذه القصور، تمتزج الزّخرفة العربية بالبقايا المعمارية لمآثر رومانية وقوطية – غربية. وعبر فناءاتها، استقدم الأمويون الماء من جبل قُرطُبة بواسطة قنوات الرّصاص الكبرى، إلى غاية صبِّه في الصّهاريج والبِرَك أو في الأحواض الرُّخامية المنحوتة الرّومانية، وهي شواهد على ماضٍ مزدهر آخر.

وتحدّثنا كتب التّاريخ الحَولي، أيضاً، عن قصور مدينة الزّهراء، التي أمر ببنائها الخليفة عبد الرّحمن الثّالث (912–961 م) – كما رأينا من قبل – والتي كانت تحتفظ بروائع متعلّقة بالماء، هذا مع أن المدينة الملكية كانت، في حدِّ ذاتها أيضاً رائعة فريدة، ويحدّثنا عنها المؤرِّخ الإخباري المَقَّري.

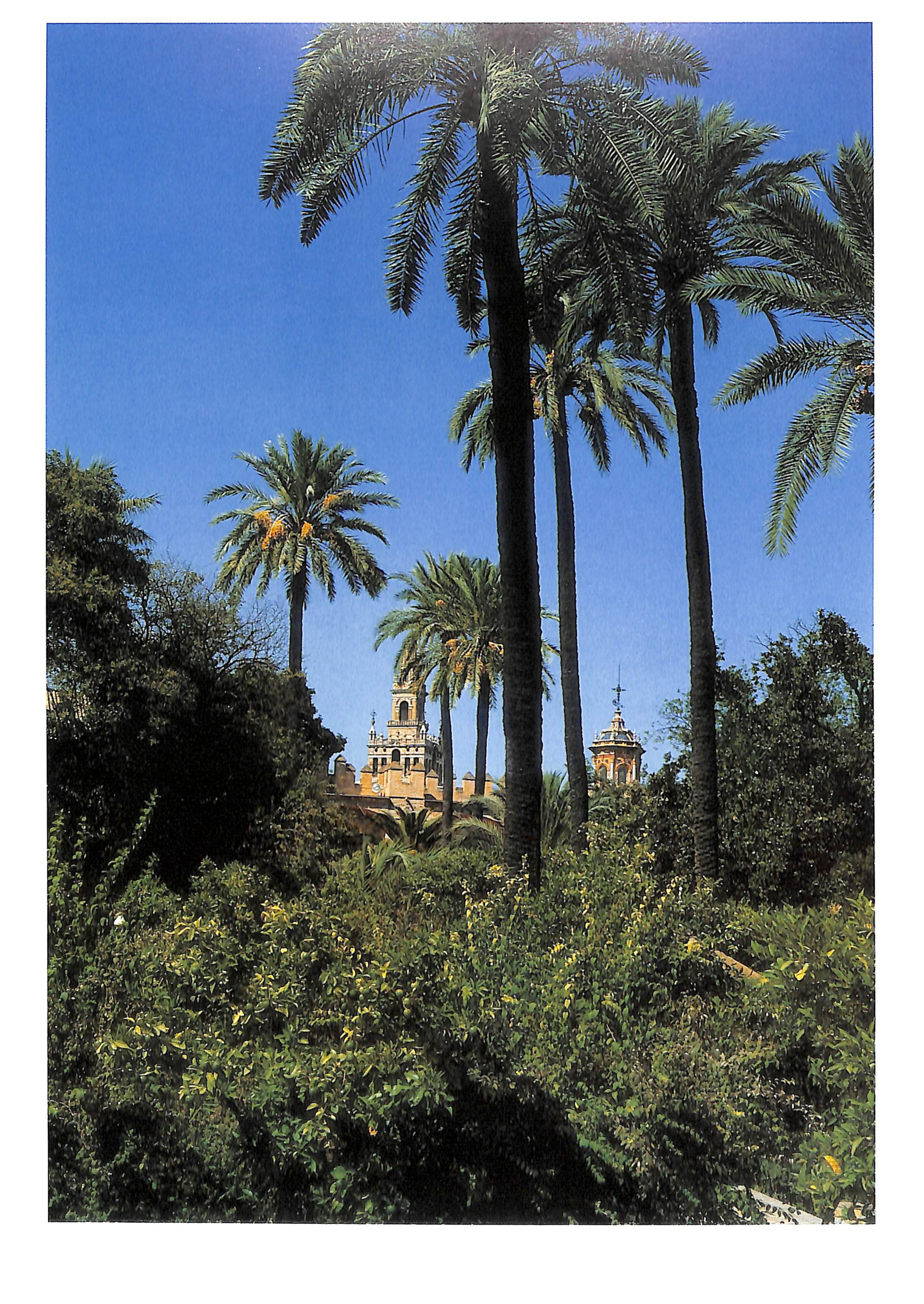
الأندلس، فوّارات وبِركة.





قصر الحمراء بغرناطة. فناء الأسود، بالسّواقي الأربع، تشبه أنهار الجنّة.

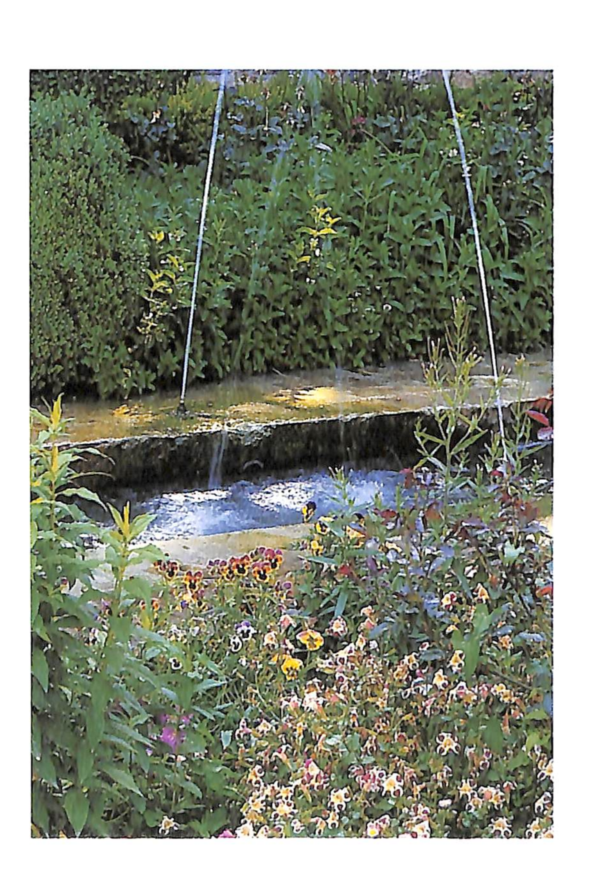




إشبيلية. حدائق «القصور الملكية» Los Reales Alcázares، مع «لا خيرالدا» La Giralda في الخلفية. الحديقة – الجنّة الإسلامية هي أعظم وعد بالنّعيم.

قال ابن حيّان إنه من بين بدائع الزّهراء نافورتان بحوضيهما، بديعين بشكلهما وعملهما النّفيس، واللذين كانا برأي هذا المؤلف الزّينة الرّئيسية للقصر. كان أكبرهما من النُّحاس المُذهَّب:

> «وعليه نقوشٌ وتماثيلُ على صور الإنسان، وليس له قيمة. وأمّا الحوض المنقوش المُذهب الغريب الشّكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وأمّا الحوض الصّغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشّام وقيل من القسطنطينية مع ربيع أيضاً، وقالوا إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحُمِل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر ونصبه النّاصر في بيت المنام في المجلس الشّرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذّهب الأحمر مرصّعة بالدُّرّ النّفيس الغالي ممّا عُمل بدار الصّناعة بقُرطُبة، صورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثُعبان وعُقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النّفيس ويخرج الماء من أفواهها»[2].



غرناطة، «جنّة العريف» El Generalife. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. *(القرآن الكريم، سورة النّساء، الآية 13).*

وقد أمر الحاجب أو القائد أبو عامر المنصور (929–1002 م) – «المنصور» في الكتب الإخبارية المسيحية – رغبةً منه في محاكاة إشراق الأمويين القريب العهد، والذين كان قد أخذ مكانهم في السّلطة، في سنة 979 م ببناء مدينة بلاطية أخرى، شرقي قُرطُبة وعلى بعد مسافة قريبة من هذه، لتنافس الزّهراء، أسماها «الزّاهِرة» (المدينة المُزهِرة).

ولا بدّ أن التّرف الباذخ كان يعمّ أيضاً هذه الإقامات: كان في أحد الأبهاء حوضٌ كبير بمياه خضراء، وسلاحف تُحدِث أصواتاً، وأسدٌ من عنبر أسود يمجُّ الماء من فمه. وقد جعل المنصور في البِركة الكبيرة، أمام البهو الرّئيسي، على مستوى سطح الماء، أزهار نَيلوفر فضّية.

إلا أنّ حياة هذه المدينة البلاطيّة، كأختها الزّهراء، كانت قصيرة المدى، فالحرب الأهلية التي اندلعت بقُرطُبة، إثر أزمة الخلافة ووفاة المنصور في بداية القرن الحادي عشر، دمَّرتها تماماً. فلم تبقَ من مدينة الزّاهرة سوى الإشارات الأدبية، ولا نعرف حتى موقعها على وجه الدّقّة.

رؤيا جمالية فُقدت

كان من الطّبيعي أنّ التّفكُّك الفوري للأندلس إلى دويلات طوائف قد نجم عنه انقسامَ السّلطة السّياسية، فقد كان هناك ملوك طوائف مستقلّون بِعَدد الأُسَر النّافذة للأعيان الإسپان – العرب. وقد أرادوا كلهم الاستمرار في سياسة البذخ التي ميَّزت الخلافة، بعظمة مبانيها، إلا أنّ النّسيج القوي للسُّلطة السّياسية الأندلسية والإدارة المتينة لمناطقها كانت قد اندثرت.

استمرّ ملوك الطّوائف في توهُّم سلطتهم الزّائلة وفي تشييد قصورهم، مُحاطين بالعلماء والشّعراء. فقد ابتنى المأمون، ملك طُلَيطُلة، له قصراً بجانب نهر التّاج، بألعاب ماء وأنوار:

> «وقد شاد ملك طُلَيطُلة المأمون ابن ذي النّون، حاكم قُرطُبة، له قصراً (....) أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قُبّة من زُجاج ملوّن منقوش بالذّهب، وجلب الماء على رأس القُبّة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبّة على جوانبها محيطاً بها ويتّصل بعضُه ببعض، فكانت قُبّة الزّجاج في غلالة ممّا سُكب خلف الزّجاج لا يفتُر من الجري، والمأمون قاعدٌ فيها لا يمسّه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشّموع فيُرى لذلك منظرٌ بديعٌ عجيب»[3].

ولعلّ إحدى المباهج الليلية كانت، على ما يبدو، إيقاد الشّموع في داخل القُبّة الزّجاجية، وعندما كان الماء ينساب عليها باستمرار، كان يُحدِث تقزّحات لونية مُشِعَّة ذات أثر جمالي عجيب.

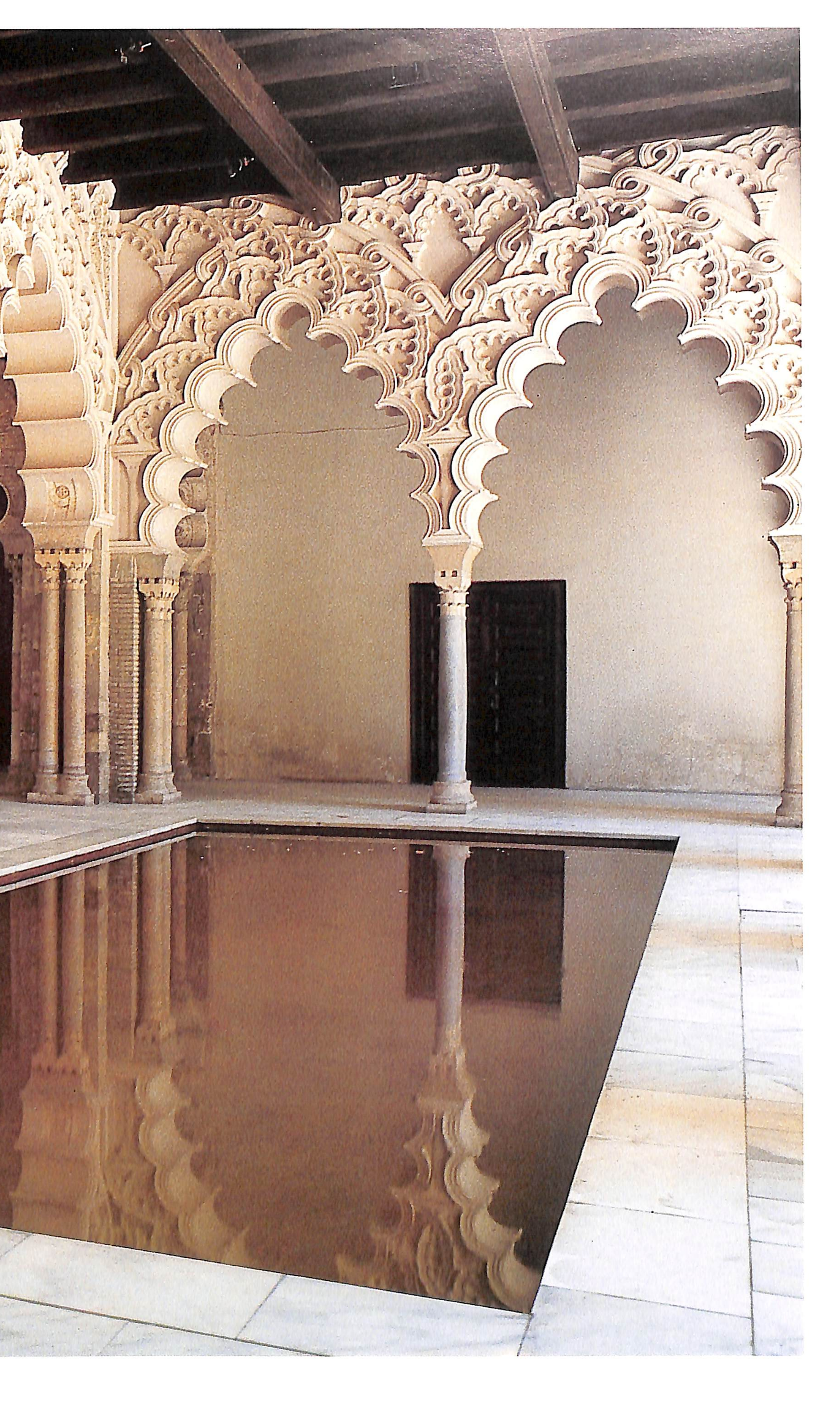


مدينة الزّهراء (قُرطُبة). إعادة بناء حدائق المدينة البلاطية. في الخلفية، مجلس الخلفاء.

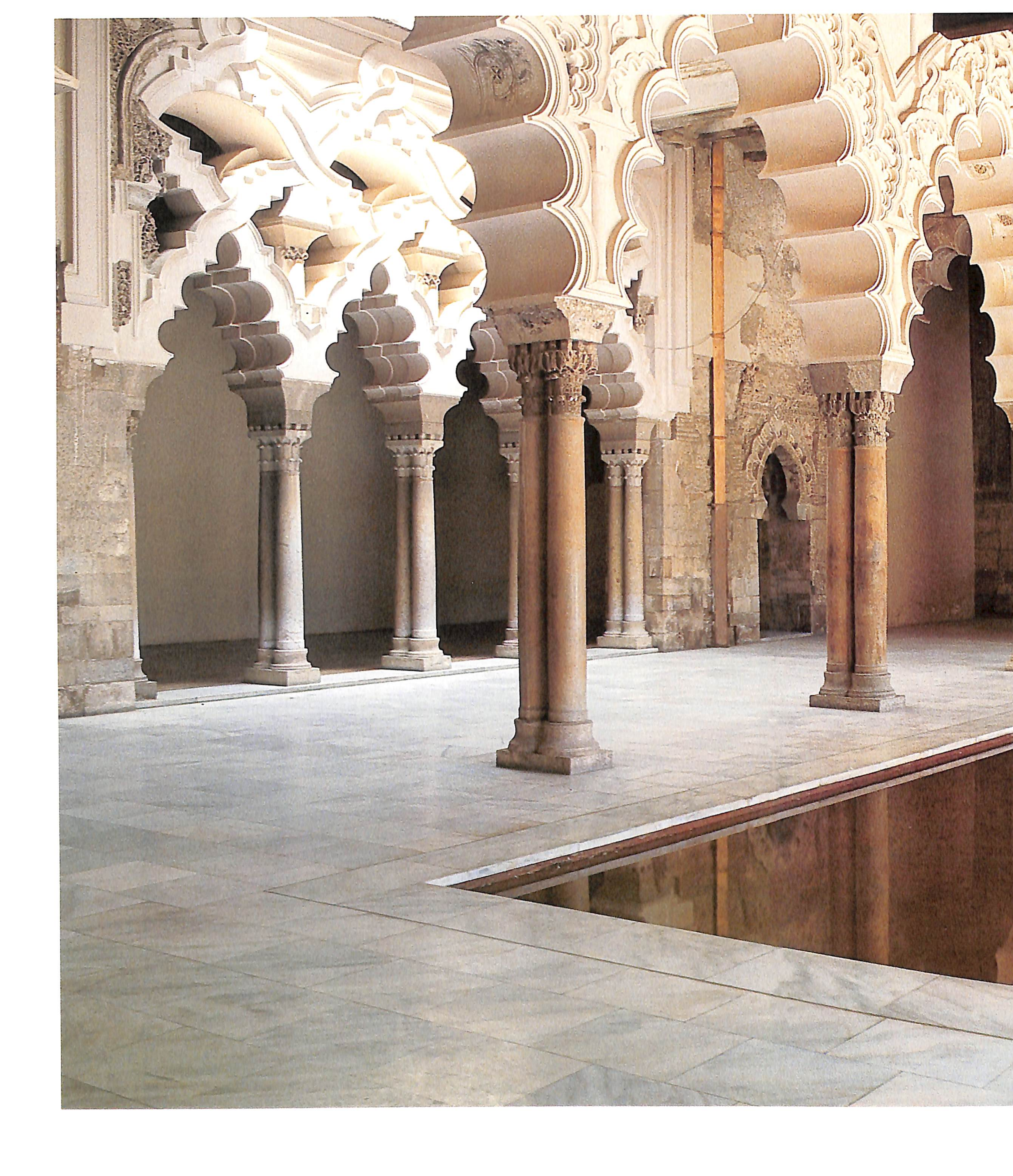
كان هناك أيضاً ملوك أندلسيون آخرون، مثل أبي جعفر أحمد المُقتدر، صاحب سَرَقُسطة (1046—1081 م)، الذي أمر في سنة 1080 م بتوسعة وتجميل قصر في ضواحي هذه المدينة، أسماه «قصر السّرور»، ولكنه كان معروفاً باسم قصر «الجعفرية» Aljafería: أي قصر جعفر.

في الفناء الرّئيسي لهذا القصر كانت تمتدّ الأروقة المتموّجة بأقواسها المتعدِّدة الفصوص، بين برَكٍ وفوّارات وسواقٍ للماء، لتفسح الطّريق أمام البهو الرّئيسي أو «مجلس الذّهب»، حيث كان المُقتدر يتلقّى تشريفات حاشيته وبعثات السّفراء.

لا بدّ أن الأثر البصري الذي كان يحدثه انعكاس الأروقة على الماء، عاكِساً نسيج أقواسها المعقَّد في العمق، كان عجيباً، إذ بوسعنا اليوم أن نشاهد جزءاً من ذلك الأثر، من خلال قصر «الجعفرية» المرمَّم، بوجه خاص، البِرَك المرمَّمة وفناء الأروقة (الذي أطلق عليه الملوك المسيحيون لاحقاً اسم «فناء القدِّيسة إيسابيل» Patio de Santa Isabel).



سَرَقُسطة. قصر «الجعفرية» *Aljafería*. انعكاس الأروقة على ماء البركة.



وكذلك الملك - الشاعر، المُعتمِد بن عَبّاد بإشبيلية (1069—1091 م) شيَّد عدّة قصور في المدينة، وقام بتوسعة وتزيين القصور الإشبيلية الأولى، بتحويلها إلى إقامته. وهذا القصر الذي كان يسمّى «المُبارك»، تمّ ترميمه لاحقاً من قِبَل الخلفاء الموحِّدين، والذين، من إقامتهم، ما يزال محفوظاً ما يسمَّى بـ«فناء الجبس» الذي يوجد في «القصور الملكيّة» بإشبيلية.

أحسَّ الملوك الموحِّدون أن إشبيلية كانت مِلكاً لهم، مقارِنين موقعها ومناخها بمدينة مَرَّاكُش (المغرب)، التي قدموا منها. ولذلك أقاموا بلاطهم الأندلسي بإشبيلية وليس بقُرطُبة - لهذا السّبب، وأيضاً لأن قُرطُبة كانت من قبلُ عاصمة للأمويين - كما سبق وأشرنا من قبل. وقد شيَّد الأمير أبو يعقوب يوسف قصراً اسمه «البحيرة» في ضواحي إشبيلية، لم يبقَ منه هو الآخر شيء.

وعندما تم استرداد إشبيلية من قِبَل فرناندو الثّالث Fernando III لقشتالة، خُصِّصت القصور لإقامة الملوك القشتاليين، عندما كانوا يقيمون بلاطهم بهذه المدينة.

ويُحكى عن قصر «المُبارك» العَبَّادي، بالإضافة إلى البدائع الكثيرة الأخرى التي كان يحويها، أنه كان يضم رواقاً مركزياً بديعاً، بين حياض، بقُبّة تسمّى «الثّريّا» Las Pléyades، التي ربما توجد اليوم في «قاعة السُّفراء» الحالية Salón de los Embajadores، للقصور الإشبيلية.

بذلك النّزوع إلى الصّورة البيانية التي تُستَعمل في الأدب العربي بتجسيد الجماد، وفي الشِّعر بوجه خاص، كان الملوك الأندلسيون ذوو الميول الشّعرية يقولون في مبانيهم أشعاراً متوهّجة، كما لو أن الأمر يتعلّق بمحبوبتهم. فلقد قال جعفر المقتدر بسَرَقُسطة، في معرض حديثه عن «الجعفرية»:

قصرَ السُّرورِ ومجلسَ الذّهبِ ... بكُما بلغتُ نهايةَ الأَرَبِ

لو لم يحُزْ مُلكي خلافَكما ... كانتْ لديّ كِفايةُ الطَّلَبِ

وعندما نُفِي المُعتمِد من إشبيلية وصودرت أملاكه من قِبَل المرابطين، وأُجبر على اللجوء إلى أغمات (بالمغرب)، كتب من منفاه وسجنه المُهين أشعاراً حزينة، تستحضر كل ما كان قد تركه بالأندلس، وضمن أشياء أخرى، قصره الإشبيلي الجميل وقُبّة «الثُّريّا»، التي كانت تبكي، لأنها لم تعد تراه بين جُدرانها.

هذه الصّورة الشّعرية، كموروث آخر لما هو أندلسي، بقيت في شعرنا الشّعبي الموريسكي Romancero، وحتى في شعرنا المعاصر، تُنطِق القصور والمدن، على حدٍّ سواء. وشهيرة هي تلك القصيدة من «شعر الحدود» بعنوان «ابن الأحمر» Abenamar، الذي يغازل فيه خوان الثّاني ملك قشتالة Juan II de Castilla، مدينةَ غرناطة:

«غرناطة، إن شئتِ
اتّخذتُكِ لي زوجةً
سأعطيك قُرطُبة وإشبيلية
كمَهرٍ وصَداق.
إنّ لي بعلاً يا دون خوان
متزوّجةٌ أنا، ولستُ بأرملة،
فالمُسلم الذي يملكني
حبُّه لي عظيم».

نموذج حيّ لقصر ما زال محفوظاً: الحمراء

تلك القصور اليوم، للأسف، زالت تماماً أو جزئياً. ولم يبقَ من بينها كلِّها بإسپانيا سوى قصور «الحمراء»، كنموذج وحيد لمجموعة معمارية حُفِظت تقريباً بشكل كامل. ومن خلال تركيبتها، نستطيع أن نخمِّن كيف كان ذلك المزيج المذهل بين الماء والعمارة الذي انتشر في سائر الأندلس.

إنّ المحور الرّئيسي الذي تلتفُّ حوله كل التّركيبة المعمارية للقصور الأندلسية والعالم الإسلامي بوجه عام، هو الفناء بشكل أساسي.

ما نسمّيه بالقصور ليس سوى مجموعة متجاورة من المباني، البسيطة في تصميمها والفخمة في زخرفتها، حول فناء مركزي، يسمّى في بعض الأحيان بـ«الصَّليبي» de crucero، وإن كانت دائماً متَّصلة فيما بينها بواسطة فناء محوري.

كانت هذه المباني تتألّف من مجموعة من الغرف؛ أكثر رحابة عندما تكون مخصَّصة للاستقبال (مثل «قاعة السّفراء» بالحمراء)، أو أصغر عندما كانت غرفاً خاصّة («غرفة الأختين» و«بني سَرّاج»). وكان لجميعها كمنطقة وسطى رواق بأقواس وأعمدة، أحياناً مزدوجة (كما في «الجعفرية»)، وقاعة أصغر في المدخل. وفي الدّاخل، كانت هناك أيضاً حجرات جانبية للرّاحة والحياة الخاصّة.

من الواضح أن هناك تراتبية بارزة تطبع فضاء التّركيبة المعمارية للقصور الإسلامية. فما يبدو لأول وهلة فضاءً موحّداً وفسيحاً ليس كذلك. فالزّائر يمرّ من النّور المشعّ للفناء إلى نور الرّواق الأخفّ؛ والدّخول المباشر إلى الإقامة الرّئيسية يتوقّف عند البهو الصّغير وغرفة المدخل (مثل «بهو البِركة» بالحمراء)، وعندما يتمكّن الزّائر من الدّخول إلى العمق يغدو منخطِف النّظر تماماً، ويتأخّر بعض الوقت قبل أن يتأقلم مع ضوء الدّاخل.

هل كان كل هذا مقصوداً؟ ربما نعم. لقد سبق أن أشرنا أنّ الانطباع البصري كان أساسياً بالنّسبة لأولئك الفنّانين. لكن هناك المزيد.. في الدّاخل سيأتي النّور من أطراف متعدّدة: من النّوافذ الواسعة المحاذية للأرض، والتي لا تسمح فقط بعبور النّور داخل الغرفة، بل بعبور المنظر أيضاً، ومن النّوافذ – المشربيّات، هذه في أعلى الجدار، أو على شكل فوانيس في القاعدة المضلّعة للقبوات الجميلة للمُقرنصات. والنّور المخفّف من خلال هذه المشربيات الهندسية سيبدأ بالقفز من مُقرنص إلى مُقرنص، مُحدِثاً انشطاراً في عدّة فضاءات من خلال ألعاب النّور والظّل.

ولكن ما هي وظيفة الماء؟ إنّه سيخزّن في بركة كبيرة مستطيلة، تحتلّ مساحة كبيرة من الفناء وتقوم بمهمّة مرآة مضاعِفة للرّواق وللمبنى، بتوسعة الأثر البصري المحيط. وفي حالات أخرى، سينبع من نافورة كبيرة للحوض المركزي، متصلاً من هناك بالأبهاء، بواسطة أربع سواقٍ تقطع الفناء من الجوانب – باتجاه الجهات الأربع. وهذه السّواقي إنما هي تمثيلٌ رمزي لأنهار الجنّة التي تجري في حدائقها.

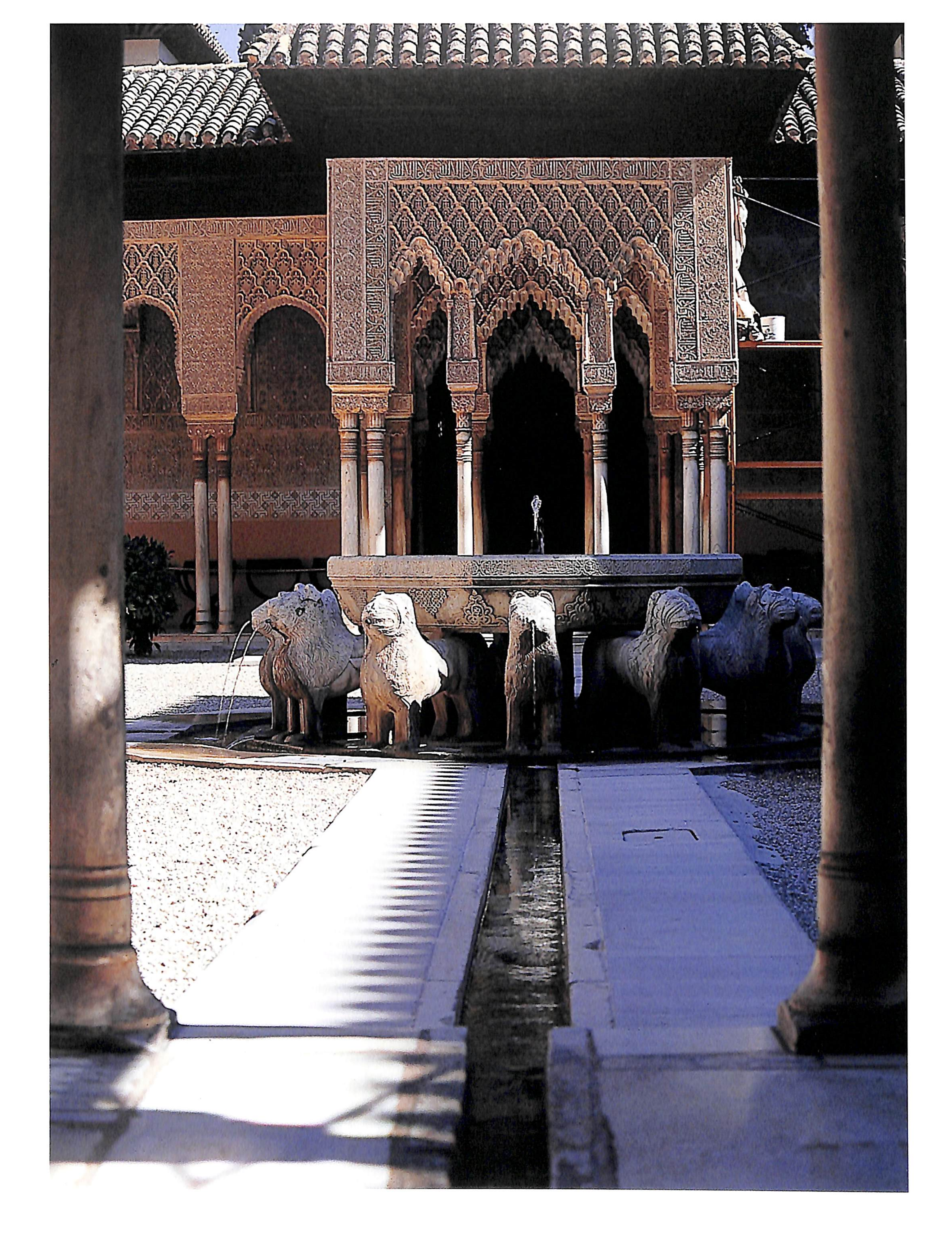
في حالة «غرفة الأختين» وغرفة «بني السّراج»، تمتدّ تلك السّواقي التي تنشأ من الأحواض الرّئيسية للغُرف، لتحمل الماء إلى أن يصبَّ في «نافورة الأسود»؛ حيث أنّ مسار مجرى الماء بمثابة مدار.

كانت لهذه الأحواض المائية عدّة وظائف: ترطّب الجو وتوفّر حرارة لطيفة للزّائر الذي كان يجتاز لتوّه فناء الأسود المُعرَّض للشّمس. وبعد دخوله، وبالعودة بالزّمن إلى الوراء، كانت الضّيافة الإسلامية تمنح للزّائر الذي سمحت له بالولوج إلى كل تلك الحميمية، مكاناً للاستراحة، ما بين الوسائد والأرائك، مع وجبة خفيفة أو شراب مثلج، أُحضِر ثلجه – محفوظاً – من السّييرّا نيڤادا Sierra Nevada أو «جبل الثّلج».

ثم مستلقياً بين الوسائد، وبعد أن يبدأ حديثاً مهمّاً مع ضيوفه، وهو يسمع صوت تدفُّق الماء، لن يحتاج إلى رفع عينيه ليشاهد العرض الزّخرفي والفضائي للقُبّة المليئة بالنّجوم، بل بمجرد توجيه نظره إلى سطح الحوض السّائل، بوسعه أن يبصر القُبّة دونما عناء، في نفس الوقت الذي يملأ عينيه المرهقتين بالنّور، ويرى دون أن يتحرّك من مكانه، كلّاً من الرُّواق، ونافورة الأسود وحتى السّماء الزّرقاء. هذا هو التّأثير الغامض والجمالي للماء!

في رُدهة «البَرطال» El Partal، أو رواق الحمراء، يتكرّر مرّة أخرى مجمَّع البركة والنّافورة والأسود (هذه وُضِعت لاحقاً)، وسلسلة الأقواس المفتوحة والنّوافذ المنخفضة، المستضيفة للمنظر. لكن، أيضاً، بين متعة الحواس هذه كلها، هناك لحظة تأمل للرّوح: مصلًّى صغير وجميل لِقَطع إيقاع ما هو دنيوي وذكر الله للحظة؛ البُعد الرّابع الرّوحي: ما يتجاوز حدود المعرفة.

«فناء الأسود» بالحمراء، الذي يجري فيه الماء القادم من المنبع المركزي عن طريق سلسلة من القنوات.





قصر إشبيلية. «فناء الجبس»، من القرن الحادي عشر،
ببِركة مركزية، بمثابة سابقة لبِرك الحمراء.



جنّة «العريف»: سيطرة الماء

وبالاستمرار مع النّموذج الحي الذي توفّره لنا مجموعة الحمراء، نصل إلى ما فوق ربوة «السّبيكة»، حيث توجد «جنّة العريف» el Generalife أو حديقة «العريف»). وكانت بمثابة الإقامة الصّيفية للأسرة النَّصْرية، التي أمر ببنائها الأمير إسماعيل الأول في عام 1319 م، ولعلّها كانت مُنْية ملكية، قبل القصور الأخيرة للحمراء.

عندما زار الرّحّالة الألماني هيرونيموس مُنْتْسَر Hieronymus Münzer غرناطة والحمراء عام 1494 م، وكانت قد وقعت لتوّها في قبضة «الملكين المسيحيين»، لم يجد بُدّاً من الإقرار، في معرض حديثه عن «جنّة العريف»:

> «للملك خارج نطاق الحمراء، على قمة تلّة، حديقة ملكية حقاً وشهيرة للغاية، بنوافير وبِرَك وجداول مُبهجة، شيَّدها المسلمون ببراعة، ليس لها مثيل»[6].

من الجميل أنّه في ذلك العصر أيضاً كانت هناك شخصيات حسَّاسة تقدِّر الرّونق الجمالي للعمارة الإسلامية.

إنّ الرُّواق الصّيفي لجنّة العريف، الذي كان ذا استعمال منزلي وعائلي بامتياز، يختصر مفهوم التّرف في توظيف الماء. هنا الماء يصبح بالأحرى صوتاً، وريّاً وطراوة، بجمالية جديدة ليست بالضّبط جمالية العمارة المعكوسة.

وبين الأروقة، سيرتسم فناء «السّاقية» المشهور، المستطيل الشّكل، بقناة الفوّارات الطّويلة، المحفوفة بالآس والورد وأشجار السّرو والبرتقال. في هذه المناسبة، خرجت الحديقة – التي تكاد تلغي العمارة – إلى الخارج، وإن كان ما يسمّى بمنظرة «جنّة العريف» المُطلَّة على نهر «حَدَرّه» El Darro، يستحق المشاهدة، إلا أنه، ليس ممكناً! الواقع أنّه تنقصنا لحظة تركيز حتى نتمكّن من استيعاب ذلك كلّه.

في «جنّة العريف» يسيطر الماء في جميع الجوانب، حتى أنه ينزل مندفعاً على شكل شلّال من «سُلَّم الماء»، الذي جعل «آندريا ناڤادجيرو» Navagero، وهو دِپلوماسي من البندقية (ڤينيسيا)، عند زيارته لغرناطة في سنة 1526 م، يقول متعجباً:

> «في الجزء العُلوي من هذه الأماكن (جنّة العريف) وفي إحدى الحدائق، يوجد دَرَجٌ عريض يُصعَد منه إلى ساحة، وهنالك تلّة يخرج منها كل الماء الذي يجري بالقصر، وهو مخزَّن هناك بصنابير، بحيث يتركونه يجري عندما يريدون ذلك.

والدَّرَج مصنوع بفنّية عالية، بحيث أن درجاته مجوّفة حتى تستقبل الماء، بينما في أعلى الدّرابزين هناك حجر صقيل، وهو يشكِّل قناة يجري فيها الماء من الأعلى إلى الأسفل. وبما أن الصّنابير الخاصّة بكل جزء من هذه الأجزاء مستقلّة في الأعلى، فعندما يريدون، يفتحون الماء الذي يجري في الدّرابزين، وأحياناً أخرى الماء ذلك الذي يسيل على درجات الدَّرَج، مع إمكانية فتحهما معاً، فيزيد بذلك تدفّق الماء، بحيث يفيض كل الدَّرَج ويبتلّ الصّاعدون عليه، ليكون بذلك مصدراً للَّعب والتّسلية. باختصار، أعتقد بأنه لا يلزم هدوء هذه الأماكن وجمالها غير مَن يقدِّرها ويستمتع بها، بالعيش، في راحة وهدوء، مكرِّساً ذاته للدّراسة وللمُتَع التي تلائم رجلاً شريفاً، دون أن تكون لديه أية رغبات أخرى»[7].

هل كانت هكذا باقي المُنْيات التي اندثرت؟ ليس من المستغرب أن يكون أهم شعرائنا وموسيقيينا في كل العصور، وخاصّة في النّصف الأول من القرن العشرين، قد استقوا إلهامهم من غرناطة، من حمرائها المائية ومن «جنّة العريف». وهذه سمة أخرى للماء في الأندلس: كونه مصدر إلهام شعري.

بوسعنا أن نقول إن الحسّ الشّرقي - الإسلامي لم يغادر تماماً شبه جزيرتنا، وإنه، على مرّ القرون والأجيال، يلبث متوارياً في الرّوح، ويتدفّق أحياناً عندما يجد الحافز.

كثيرون هم شعراؤنا الذين أحسّوه وتركوه مكتوباً بين أشعارهم، أحياناً على شكل أغنية فخر، وفي معظم الأحيان على شكل رثاء:

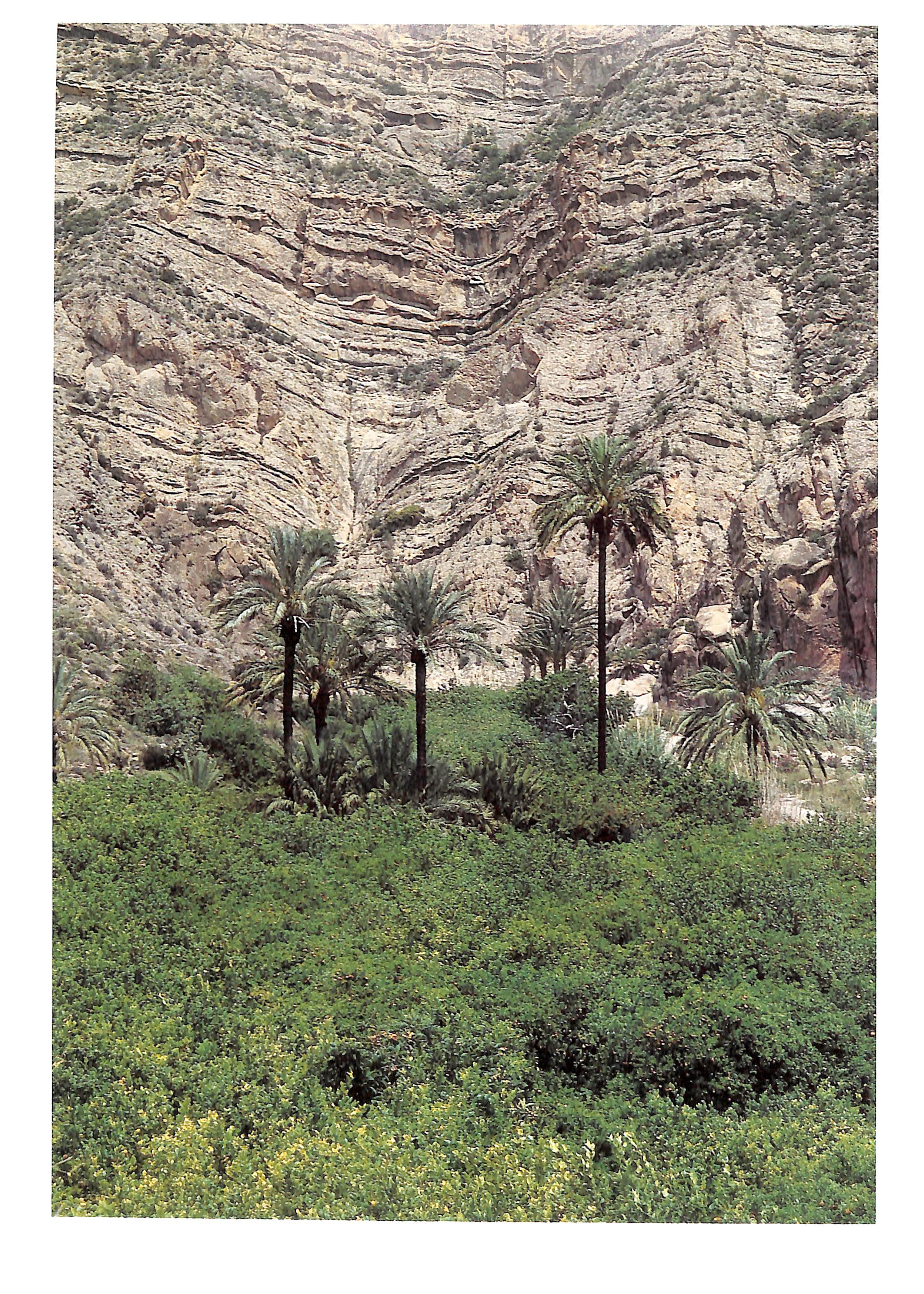
غرناطة، يا غرناطة!
مِن سُلطانك لم يبقَ شيء.
تبكي المَراثي مياه النّهر،
وعلى زُجاجها، لم تعودي تظهرين
سلطانةً، برأس متوّج
بمآذن ذهبية وبروج حمراء.
(...)
الماء، الذي يخدع بكلّ نضارته
إنما هو بكاءٌ يتدفّق أبداً من عينيك
يبكي عظمة الماضي الغابرة



غرناطة. «جنّة العريف» El Generalife. يسيطر الماء في كل مكان، حتى أنه ينزل كشلّال من «دَرَج الماء».

من سُلطانك، لم يبقَ شيء...
مجدُك، يا غرناطة،
مَرَّ وانقضى، كما يمرُّ النّهر تحت الجسر![8]

ولكن، برغم الشّحنة الحزينة لهذه الأبيات «الما بعد رومانسية» للشّاعر بِيّائيسْپيسا Villaespesa، فإنّ غرناطة احتفظت بسلطان أعظم: سلطان حمرائها وجنّة العريف، وسلطان التّأثير الذي يمارسانه على كل من يزورهما، ربما بسبب سحر قديم، كما تقول أسطورة المنجِّم الذي بنى القصور الغرناطية.



الفصل السّادس

تيّارات وسَوَاقٍ في المشهد الأندلسي

التجمّعات الحضريّة العربية – البربرية

يصف الجغرافيون العرب الأندلس بأنه بلدٌ ذو أقاليم داخليّة أرضها فقيرة، حيث الرّعي هو مصدر الثّروة، إلى جانب أراضٍ خصبة حيث أنّ ساعات الشّمس الطّويلة فيها والتّوزيع الحكيم للماء أدّى إلى ظهور مناطق شاسعة للزّراعة السّقوية. لكن إلى أن بلغوا هذه النّقطة، كان على الأندلسيين أن يطوِّروا، باجتهاد حقيقي، إرثاً من الأعراف المتوسّطية – الشّرقية حول الرّي.

وإن كان الأصل الأقرب للعرب يرتبط بقحولة الصّحراء العربية، التي كانت مألوفة لديهم، فإنّهم عندما وصلوا إلى «هِسپانيا» كانوا قد قدموا من أراضٍ سقوية (مصر، الشّام وبلاد الرّافدين)، وبها كانوا قد تعلَّموا مختلف نُظم الرّي، كما ذكرنا آنفاً.

كانت الموجات المسلمة التي حلّت بإسپانيا في عدّة مناسبات تتألف من عرب مكّة والمدينة، والشّام وشرقي الأردن...، إلى جانب بربر الضّفة الأخرى من المتوسّط. وكانت لفكرتهم حول ماء السّقي دلالات دينية: الأنهار والجداول التي تسقي الجنّة، لكن، كان هناك أيضاً توقٌ كبير إلى استنساخ «مواطنهم» في شبه جزيرتنا أو نُظم فلاحية من الشّرق، ومن المغرب – أراضي سقوية من سهول الرّيف، والأطلس ومَرَّاكُش.

وكان هذا أمراً سهلاً بالنّسبة للمسلمين، إذ أن جزءاً من الأندلس كان يقع في الشّريط الوهمي «للإقليم الرّابع» الذي كان يشمل كلّ الحوض المتوسّطي. ومن جهة «البحر المحيط» (الأطلسي) الواقعة شمالي طنجة، كان «الإقليم الرّابع» يمتدّ على طول «البحر الرّوماني» (المتوسّط) إلى غاية البحر الأسود، في الشّرق.

في هذه المنطقة الواسعة للتّجانس المناخي كان يُدرج الأندلس (من «مدينة سالم» Medinaceli إلى الجنوب، ومن الغرب إلى كل شرق شبه الجزيرة) وكذلك الجُزر، شبه الجُزر وضفّتا «البحر الرّوماني»، وبيزنطة، والشّام، وما بين النّهرين (العراق)، حتى أصفهان (فارس)، وفقاً لما يصف لنا ابن خلدون (القرن الرّابع عشر) في كتابه «المقدّمة».

لكن بالإضافة إلى ذلك، فإنّ ابن خلدون، بنظرة اجتماعية سابقة لعصرها، يعلن عن التّقارب الموجود في الطّبيعة المتوسّطية، عندما يشير إلى الشّعوب المستقرّة في منطقة «الإقليم الرّابع»:

سهل «ريكوتِه» (مُرْسِيَة). استوطن العرب ذوو الأصل المصري الأراضي المُرسية.

«وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التّوسّط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم (...) ويبعدون عن الانحراف في عامّة أحوالهم. وهؤلاء أهل المغرب والشّام والحجاز واليمن والعراقَين والهند والسّند والصّين، وكذلك الأندلس، ومن قَرُب منها من الفرنجة والجلالقة والرّوم واليونانيين، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة»[1].

مع كل هذه الأُسس المناخية والاجتماعية، ليس من المستغرب إذن أن يرى المسلمون إمكانية إنشاء نُظم الرّي لبلدانهم البعيدة، من جديد في الأندلس.

ولهذا الغرض، استعملوا البنية التّحتية لنظام الرّي الرّوماني، خاصّة في المنطقة الشّرقية، وإن كانت في حالة جدّ متهالكة وفي تدهور حقيقي. وإن الدّور الاقتصادي الرّئيسي في الفلاحة الهسپانية، قبل وصول المسلمين، لعبته الزّراعات الواسعة النّطاق للحبوب والزّيتون والكروم؛ وهي الأعمدة الفقرية للإنتاج الزّراعي الهسپاني، كما أشرنا في بداية هذا الكتاب.

لكن، لنَعُد إلى أولئك الذين دشَّنوا الزّراعة السّقوية الأندلسية. بدأت الموجات المسلمة تستقرّ في تلك الأراضي الأندلسية التي تذكِّرهم أكثر من سواها بمواطنهم الأصلية. فاستوطن الشّاميّون في بَلَنْسِية، وإشبيلية، ونيبيلا Niebla وغرناطة؛ وأهل فلسطين بالجزيرة الخضراء Algeciras؛ وأهل منطقة الأردن، بمالقة Málaga، وأهل مصر بمُرْسِيَة؛ وأهل اليمن بسَرَقُسطة، وأليكانتِه، وإلْش Elche ونوبيلادا Novelda؛ وأهل مكّة بقُرطُبة، إلخ.

بوجه عام، استقرّ العرب في السّهول النّهرية لأهم الأنهار؛ بينما استقرّ البربر في البلد التي هي اليوم البُرتُغال، وبمنطقة جبل روندا Ronda و«سييرًّا مورينا» Sierra Morena، وبسهول نهري التّاج و«مونديغو» Mondego، وفي المنطقة الجبلية لطُلَيطُلة وبَلَنْسِية، وبإقليم «تِرويل» Teruel الحالي. وإن كانت هناك استثناءات أيضاً، وبعض المجموعات البربرية استوطنت مناطق مرويّة مثل غانديًّا Gandía ومُرْسِيَة.

إشارات إخبارية حول الرّيّ في شرق الأندلس

قليلة هي الأخبار التي ترك لنا الإخباريون والجغرافيون العرب عن هذه الحقبة، حول الرّي الأندلسي؛ هناك بعض الإشارات حول السّواقي الشّرقية، وعلى وجه الخصوص، هناك إشارات كثيرة إلى العدد الكبير للبساتين التي كانت تحيط بالمدن الإسپانية - الإسلامية.

من جهة أخرى، هناك العديد من المخطوطات والوثائق العربية التي فُقِدت أو أُتلِفت مع الزّمن؛ نصوص كانت ستكون اليوم في غاية الأهمّيّة لإعادة تصوير ذلك الجو الاجتماعي



إلْش Elche (أليكانتهِ)، أشجار النّخيل التي أدخلها المسلمون.

والاقتصادي للحقل الأندلسي المرتبط بنُظم الرّي.

ومع ذلك، فإن المؤلّفات الإخبارية المسيحية التي كتبت بعد «استرداد» الأراضي الإسلامية بوقت قصير، تزوّدنا بمعلومات ثمينة حول استمرار عادات الرّي، التي يصفها المؤلفون المسيحيون أنفسهم بـ«المنتمية إلى زمن المسلمين»، لكونهم كانوا قد شهدوا عن كثب تلك الممارسات.

من خلال النّصوص العربية المتداولة اليوم حول التّاريخ الأندلسي، في منطقة مُرْسِيَة، يشرح لنا المصنِّف الحِمْيَري (القرن الرّابع عشر) أنه، من بين مناطق أخرى، كان يوجد في لوركا Lorca أرض سقوية خصبة، تسمّى «الفُندون» El Fondón، يرويها نهر يتصرَّف مثل النّيل.

«ولهذا النّهر مجريان، أحدهما أعلى من الثّاني، فإذا احتيج إلى السّقي به عولي بالسّداد حتى يرقى المجرى الأعلى فيُسقى به، وعلى هذا النّهر نواعر في مواضع مختلفة تسقى بها البساتين»[2].

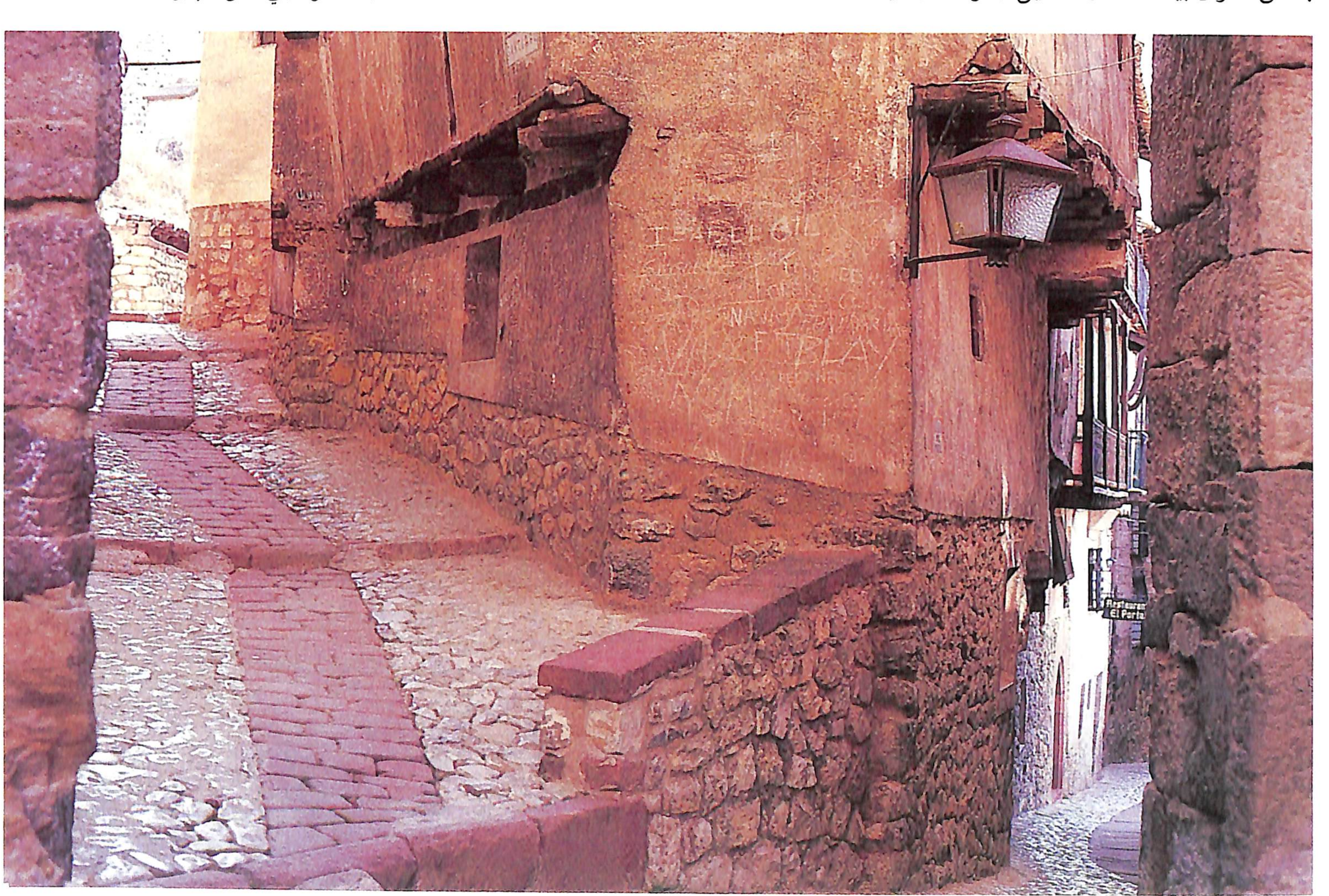
ويستمرّ المؤرِّخ في إخبارنا بأن هذا النّهر تخرج منه جداولُ أو سواقٍ كبيرة، تسمح بريٍّ عشرة فراسخ أو أكثر.

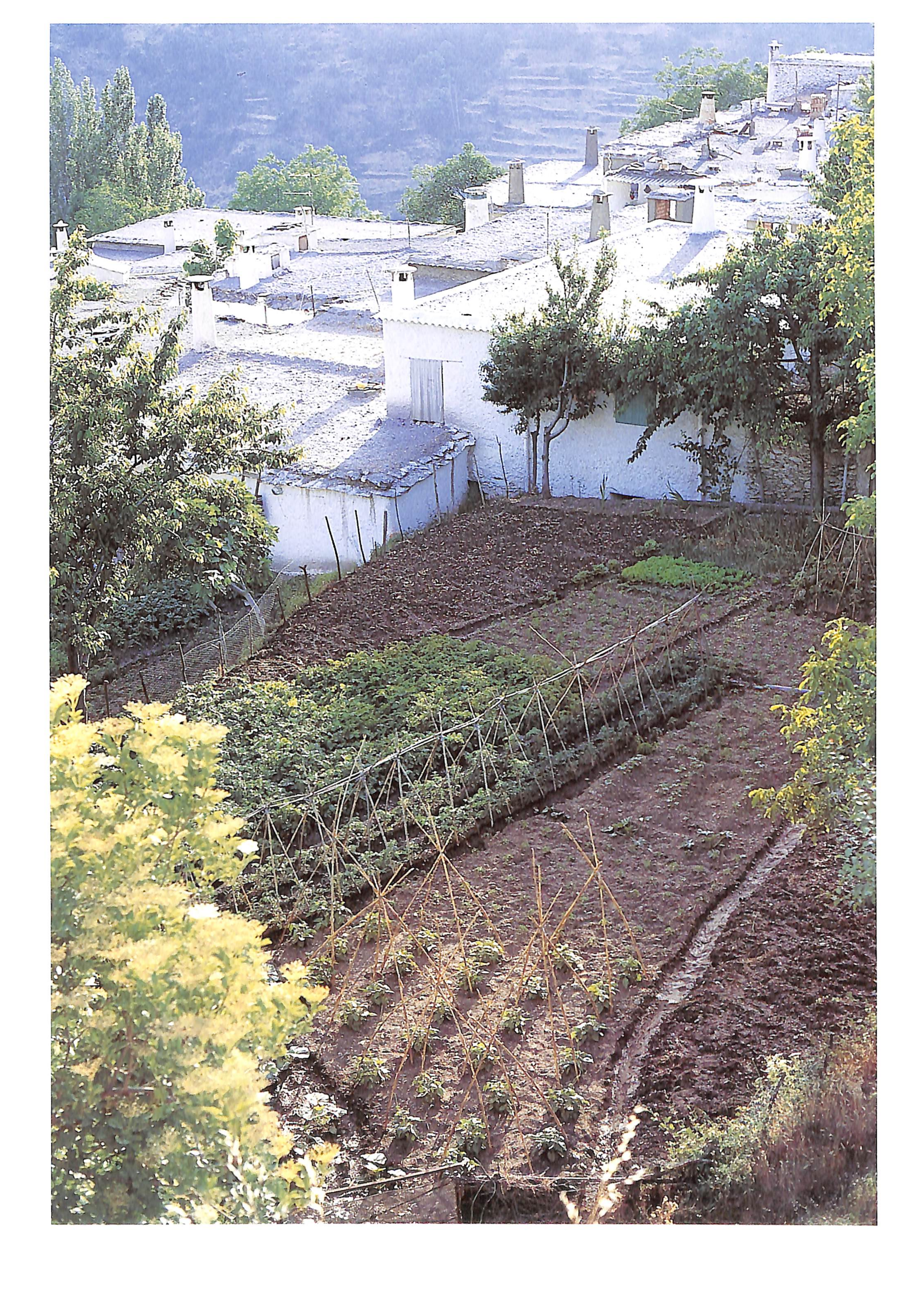
يبدو أن هذا السّد الذي يشير إليه النّص هو سدّ «قنطرة أسكابة» La Contraparada، وبأنّ الجدولين أو القناتين هما السّاقيتان المُرسيتان المعروفتان بالقناة «الجوفية» la Aljufía أو ساقية الشّمال، و«القِبلة المُرسِيّة» la Alquibla أو ساقية الجنوب، وكان منشؤهما من الجهة اليسرى واليمنى، على التّوالي، لوادي «شقورة» Segura، الذي يسمّى أيضاً في جزئه الأخير بـ«الوادي الأبيض» Río Blanco.

من هاتين السّاقيتين الكبيرتين، وهما الشّريانان الأساسيان للرّي بمُرْسِيَة، كانت تخرج، على شكل فرع، على اليمين واليسار، مجموعة من السّواقي الصّغيرة؛ ومن هذه، بِدورها، كانت تتفرّع مصارف أصغر للماء، ومن هذه المصارف تتفرّع قنوات بسقاياتها. وثمّة شبكة كثيفة من القنوات، كانت تسوق الماء من «شقورة» إلى أغوار الأراضي السّقوية المُرسيّة، التي تنتشر بها بعض القرى بين أشجار النّخيل والرُّمّان والتّين.

«لا ألپوخارّا» La Alpujarra. «بوبيون» Bubión (غرناطة). كانت المناطق الجبلية مستقرّاً للبربر.

«البرّاثين» Albarracín (ترويل). مدينة - إقطاعية تابعة لأسرة «بني رزين» البربرية.





والعديد من هذه القرى السّقوية، المندثرة اليوم، أعطت أسماءها للسّواقي التي كانت ترويها. وذلك هو الشّأن بالنّسبة لـ «الوسطى»، التي هي اليوم «ألغواثا» Alguaza؛ و«البَرك» التي سمّيت باسمها ساقية «البركة» Albarque... وفي مناسبات أخرى، كانت العائلة المسلمة التي تسكن في القرية هي التي منحت اسمها العائلي للسّواقي التي تروي أراضيها؛ على سبيل المثال، ترك بنو سعد اسمهم لساقية «بِنيثا» Benizá، وبنو بُترُج لساقية «بِنيپُوتْرُوش» Benipotrox.

كما أشرنا من قبل، استقرّ في الأراضي المُرسيّة العرب ذوو الأصل المصري. كانت أرض مُرْسيَة ومناخها الجيد يذكّرانهم بمصر. وإن كانت، السّاكنة المتنوّعة من كل أطراف الأندلس، مع مرور بعض الوقت، قد اختلطت (من أصل قوطي، إسپان – رومان، وعرب وبربر)، لتنتج عنها السّاكنة الأندلسية (الإسپانية – المسلمة)، التي قال عنها ابن خلدون:

«فتجد لأهل الأندلس ذكاء العقول وخفّة الأجسام وقبول التّعليم...»[3].

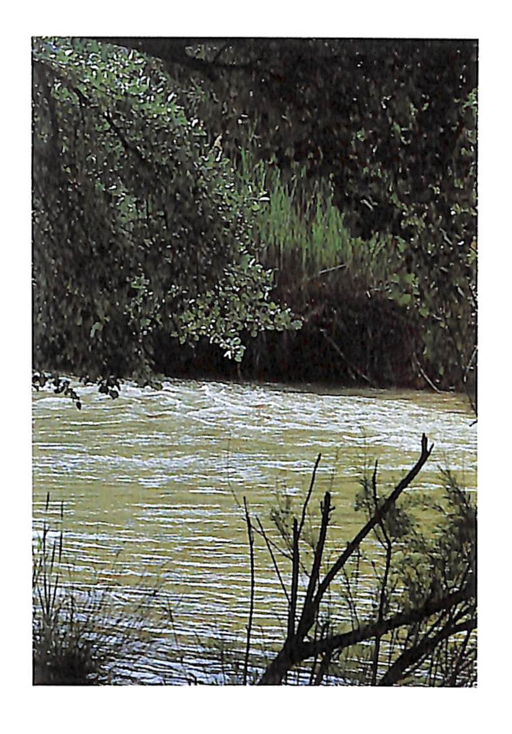
ربما كانت الأصول المصرية البعيدة لأندلسيي مُرْسِيَة أحد الأسباب التي جعلت المؤرّخين العرب يقارنون باستمرار نهر «شقورة» بالنّيل[4]، أو كذلك، بسبب فيضاناته الرّهيبة التي أتلفت الأراضي البستانية المُرسيّة، في بعض المناسبات، كما فعلت ذلك في فترات لاحقة.

ولذلك يحدِّثنا الحِمْيَري عن نهر يتصرّف مثل النّيل، وهو يقصد نهر «شقورة»، وحتى «وادي التّين» Guadelentín.

كما يصف العُذري، وهو جغرافيٌّ عربي من القرن الحادي عشر، نواحي مُرْسِيَة ومناطقها السّقوية بمياه «شقورة»:

«أرضها يسقيها نهرٌ مثل نيل مصر، يجري باتجاه الشّرق، وأصله من عين تسمّى «مُلنَهاشة» Mulnahasha... وبنهر تُدمير (شقورة) توجد نواعير تسقي المحاصيل. وسواقي الرّي التي تنشأ منه تبدأ من «ألكانتاريّا» Alcantarilla، وتصل إلى أراضي أهل مدينة مُرْسِيَة، على حدود قرية طاوس، وهي قرية من أرويلة Orihuela. ثم إنّ أهل أرويلة بدأوا يشقّون ساقية من هذا النّهر عن طريق منطقتهم إلى أن انتهت إلى مكان يسمّى كاترال Catral. وطول هذه السّاقية... يبلغ 28 ميلا»[5].

على ما يبدو، هذه السّاقية من أرويلة إلى «كترال» ما تزال محفوظة. وإحدى المعلومات المهمّة عن الأراضي السّقوية لمُرْسِيَة هي تلك المتعلّقة بمدينة «الحمّة» Alhama، التي تسمّى بالعربية



نهر «شقورة» Segura، الذي سماه المسلمون «الوادي الأبيض» وهو يقطع «إل خينيتِه» El Ginete (مُرْسِيَة).

«حَمَّةُ بالأقوار»، لقربها من قرية «بالأقوار» Bi-Laqwar. كانت بها حمّامات ساخنة طبيعية من المياه العلاجية، وكان يأتي إليها الكثير من الأندلسيين، الذين كانوا مولعين بهذا النّوع من الحمّامات، وقد كان النّبع ذا مياه وافرة، بحيث أن الماء الفائض منه، بعد تغطية احتياجات المستحمّين، كان يُستعمل لريِّ الأراضي البستانية للقرية.

كما كانت هناك مناطق سقوية مهمّة في «قُرى تُدمير» (مُرْسِيَة)، «مُولا» Mula، «شنطجيالة» Chinchilla، و«سياسة» Cieza. وبعض هذه المناطق كانت تسقيها مياه عيون مثل العين المسماة بـ«عين الأسْوَد»، وهي عين كانت تنبع وسط نهر «شقورة»، في منطقة «سياسة».

حسب ما يرويه المؤرِّخ الرّازي (القرن العاشر)، فإن الماء المنبثق من هذا النّبع، وهي مياه كبريتية مُرَّة الطّعم، كان يرتفع إلى علوّ قامة. ويروي أن هذا الماء المنبجس إنما كان تسرُّباً قوياً للنّبع القديم الذي كان موجوداً بمدينة «إيّين» Hellín، وكان يسقي حقولها عند وصول العرب؛ إلا أن المسيحيين أغلقوه، فتفجر بقوة في «عين الأسْوَد» Fuente del Negro. وهذه العين ستتخذ مع الوقت اسم «دفقة سياسة» Borbotón de Cieza.

في بَلَنْسِية، كان نهر «توريا» Turia، الذي كان يسمّى آنذاك «وادي الأبيض» Guadalaviar، ينقسم إلى عدّة أجزاء، وكانت تتفرّع من كل جزء ساقية، إلى أن بلغ عددها ثمان. وهذه السّواقي، على جهة اليمين، كانت «كوارت» Quart، «مسلاتة» Mislata، «فابارا» Favara و«روبيّا» Rovella، وعلى جهة اليسار: «مونكادا» Moncada، «طورموس» Tormos، «مِستايّا» Mestalla و«راسكانيا» Rascanya.

وعلى ما يبدو، ظلّت هذه السّواقي تعمل إلى آخر أيام الحُكم الإسلامي لمملكة بَلَنْسِية، مُزوِّدة بالماء وخاصة الأراضي السّقوية الواقعة في محيط مدينة بَلَنْسِية.

وبعد انتزاع بَلَنْسِية من يد المسلمين في 1238، منح الملك خايمِه الأول» Jaime I لأراغون، مجموعة من المواثيق لبَلَنْسِية. وأحد هذه المراسيم الملكية لخايْمِه الأول التي وُقِّعت في عام 1239، تخبرنا عن وفرة السّواقي بالأراضي الإسلامية البَلَنْسِيّة. وفي هذا المرسوم، يخوِّل لنبلائه ولكل من أسهم في استرداد بَلَنْسِية، توزيع الأراضي والماء.

> «منا ومن أهلنا نمنحكم ونعطيكم، إلى أبد العصور، لكم جميعاً ولكل واحد من أهالي وسكان المدينة (يقصد الغازين) ومملكة بَلَنْسِية، وكل نواحي تلك المملكة، جميع السّواقي وكلَّ ساقية على حدة من السّواقي المجانية والحرة، الكبيرة والمتوسّطة والصّغيرة، بمياهها وعيونها وقنواتها، وأيضاً مياه المنابع، باستثناء السّاقية الملكية التي تذهب إلى «بوكول» Pucol؛ تأخذون الماء من سواقيها ومنابعها، وفائضها ومن عيونها بشكل دائم، بالنّهار والليل: بحيث



«سهل ريكوتهِ» Valle de Ricote. قرية في الأراضي السّقوية المُرسيّة.

تستطيعون السّقي منها وأخذ الماء دون أي تكليف أو خدمة أو ضريبة، وأن تأخذوا تلك المياه، كما كان ذلك قديماً، وكما كان ذلك مقرّراً ومعروفاً في زمن المسلمين»[6].

احتفظ الملك الكتالوني – الأراغوني بالسّاقية الملكية أو ساقية «بينول» Pinol، والتي تسمّى أيضاً «مونكادا» Moncada، إلا أنه في سنة 1262 أهداها إلى الإقطاعيين الذين كانوا يملكون أراضي حول مجراها، مع بعض الشّروط لصالح الأملاك الملكية.

وقد دوّن الرّحالة الفرنسي، البارون دى باسّا François Jaubert de Passa، الذي زار إسبانيا بتكليف من الحكومة الفرنسية في الرّبع الأول من القرن التّاسع عشر، وبشكل شبه تفصيلي، ملاحظات حول الأراضي السّقوية الكتالونية والبَلَنْسِيّة؛ ونشر لاحقاً كتاباً مهمّاً: «رحلة بإسبانيا»

Voyage en Espagne، والذي تُرجم (إلى الإسپانية) تحت عنوان «قنوات الرّي بكتالونيا ومملكة بَلَنْسِية» *Canales de riego en Cataluña y reino de Valencia*.

وفيه، يقول لنا جوبير دي پاسّا Jaubert de Passa، مشيراً إلى بَلَنْسِية، بحماسة مؤرِّخ عربي من الأندلس أكثر منها لفرنسي، هو سليل للثّورة الليبرالية لسنة 1789:

«(...) نفس هذه الصّخور والجبال هي المستودعات التي تنشأ منها أربعة أنهار غزيرة المياه، وعدد كبير من الجداول، تمّ تعديل مجراها بحسب احتياجات شعبٍ مُزارع (...) الخضرة الدّائمة تنعش البلد، وفي خضم الإنتاجات الأكثر غنى وتنوعاً، وصلت الصّناعة لتؤقلم، دون جهد، عدداً كبيراً من النّباتات الدّخيلة، غابات من أشجار البرتقال والخرّوب والزّيتون تشكِّل السّياج الكبير الذي يحيط بهذه الأراضي الممتازة، حيث بسط شعب مجتهد وشجاع، معارفه التّجريبية، بنجاح كبير، في أحد أهم الفنون.



«أباران» Abarán (مُرْسِيَة). جزء من ناعورة تعمل بالتّيار المائي.



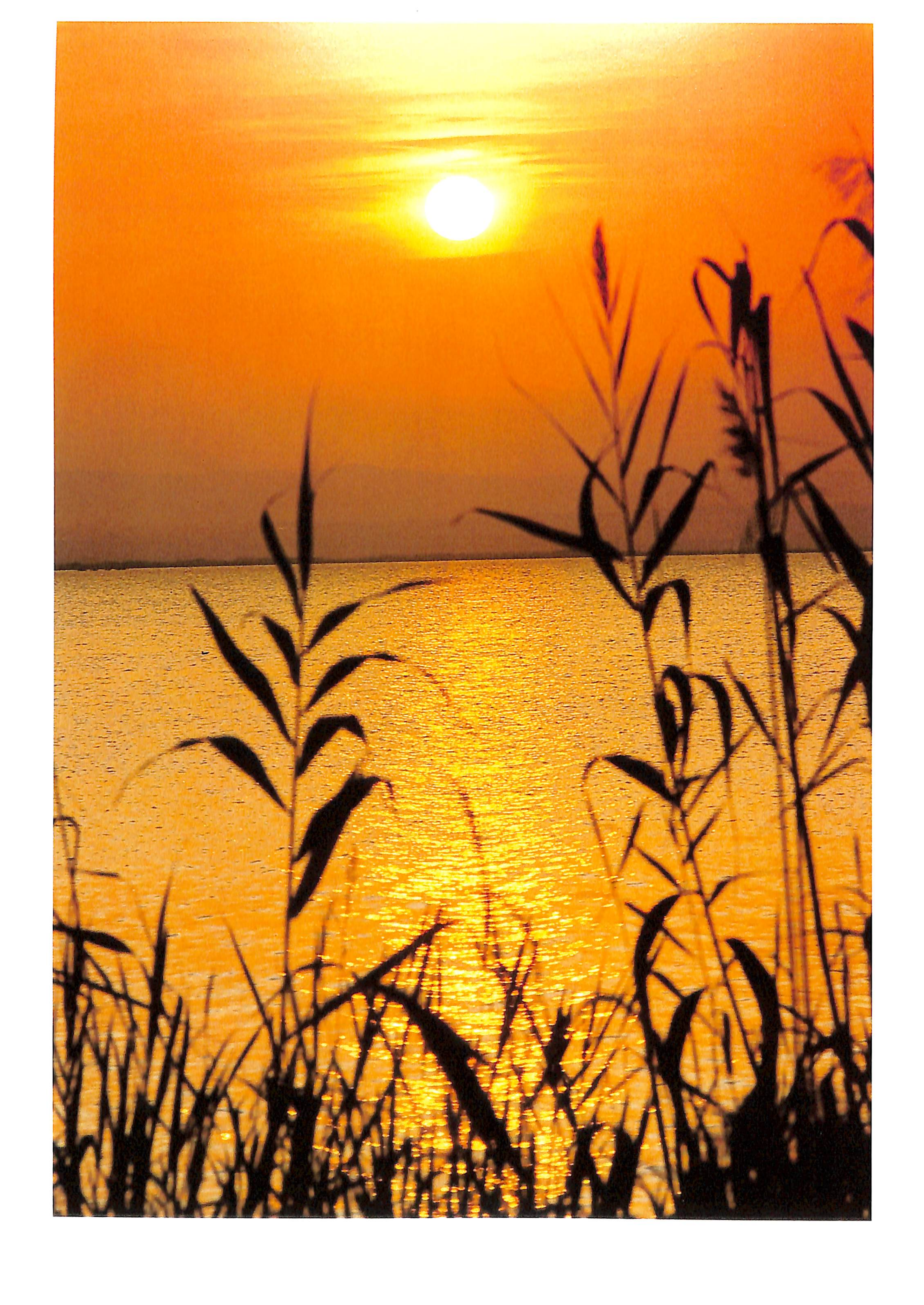


«طَرّاكونة» Tarragona. الإيبرو الأدنى، بمناطق بستانية شاسعة.

ثمّة مجموعات من النّخيل جلبها معه من صحارى الجزيرة العربية ما زالت تشهد على حضوره، بعد كل هذه السّنين التي مرَّت على رفضه ليضطرّ إلى العودة إلى سواحل أفريقيا. في بداية القرن الثّالث عشر، طفقت تلك السّاكنة التي كانت ما تزال نشيطة وقوية تزرع السّهول الجميلة لمملكة بَلَنْسِية بطريقة عجيبة. وهي ممارسة تستحق الاحترام، حتى مع أخطائها، إذ كانت تعطي يومياً نتائج جديدة وتحسُّنات مهمّة. كانت الفلاحة تزدهر، بينما كانت التّجارة تروِّج المنتوج الفائض؛ والأرض، التي كانت مقسَّمة إلى قِطَع جدّ صغيرة تحميها القوانين، كانت ملزمة بِيَد الإنسان إلى أن تنتج ما هو ضروري لتغطية كل احتياجاته. كانت مدن وقرى عديدة تعمر الجبال والسّهول، ممتدّة إلى غاية ضفّة البحر»[7].

«أباران» Abarán (مُرْسِيَة). جزء من ألواح النّاعورة.

ولاحقاً، عندما يتحدّث عن العادات والأعراف في الحقل البلنسي، يقول بشدّة:



«تلت هذا التّقسيم الأوّلي غزوات جديدة. وتم إخضاع مملكة بَلَنْسِية بشكل كامل، والمسلمون المهزومون فقدوا في ساحة المعركة ممتلكاتهم وحرّيتهم في آن واحد.

ذلك الانتصار أغنى جيشاً على حساب ممتلكات شعب بأسره؛ سلب مُزارعين أذكياء، لا يكِلُّون، اضطرّوا إلى مغادرة حقولهم، ليجعلها في أيادٍ غير مؤهَّلة، سرعان ما كانت ستضيّع ثمرة إنجازاتهم، لو لا أن الملك «دون خايْمِه»، الذي كانت مؤهلاته العظيمة تجعله أهلاً للعرش ومتفوِّقاً على عصره، فرض عليهم احترام القوانين القروية وتلك المتعلّقة بالعادات القديمة؛ بحيث أن نفس هؤلاء الأشخاص الذين تمّت إهانتهم واضطهادهم بدعوى أنهم همجيون، كان عليهم أن يستمرّوا في إملاء قوانين لهم، وأن يكونوا بمثابة مرشدين لأسيادهم الجُدُد. هذا الاحترام لتشريع المسلمين وهذا التّقدير المُولَّى لتلك الممارسات التي كرَّستها التّجربة الطّويلة، حافظت على الزّراعة، بل وأحياناً، دافعت عن قضيّة المهزومين»[8].

إذا ما تركنا جانباً حماس المؤلِّف، الذي يستبق الحركة الفكرية الرّومانسية – الشرقية التي ستتطوَّر في الرّبع الثّاني من القرن التّاسع عشر، يتأكد لدينا، مرّة أخرى، من خلال نص ج. پاسَّا، أن الملك (خايْمِه الأول) كان من أهم المسؤولين عن الحفاظ على العادات الزّراعية الإسپانية – الإسلامية في بَلَنْسِية.

وبفضل «المواثيق» التي دوّنها، وصلتنا أخبار حول الأراضي السّقوية بالمملكة البَلَنْسِيّة، إذ أن الوثائق التي وصلتنا عن هذا الموضوع من قِبل المؤرِّخين الأندلسيين نادرة للغاية.

ومن بينها، وثيقة الجغرافي الإدريسي (القرن الثّاني عشر)، الذي يخبرنا عن نهر بمدينة بَلَنْسِية تُستعمل مياهه لريِّ الحقول، والبساتين والحدائق. أو الإشارة التي ينقلها المؤلف الحِمْيَري حول بَلَنْسِية:

«(...) بَلَنْسِية ذات الحُسن والبهجة والرَّونَق، فأين الخمائلُ ونُضرتها، والجداولُ وخُضرتها، والأنديةُ وأرَجها، والأوديةُ ومُنعرجها، والنّواسمُ وهبوب مبتلّها والأصائلُ وشُحوب معتلّها، دارٌ ضاحكت الشمسُ بحرَها وبُحيرتَها»[9].

كما أن هناك إشارات إلى محيط السّواقي ببَلَنْسِية في بعض الكتب الإخبارية المسيحية – الوُسْطَوية، مثل كتاب «التاريخ العام الأول» *Primera Crónica General*، عندما حوصرت

بَلَنْسِية، «البحيرة» La Albufera عند الغسق.

بَلَنْسِية من قِبَل «السّيِّد» El Cid في أواخر القرن التّاسع. ويُحكى فيه أن فقيهاً مسلماً بلنسياً، هو الوقّاصي، على إثر صعوده إلى أعلى برج لأسوار المدينة، بدأ يتحسَّر من الاضطهاد المسيحي لبَلَنْسِية وعلى ضَياع هذه المدينة:

«بَلَنْسِية، آه يا بَلَنْسِية، كم من الأنواء قد أتتكِ وها قد أتتك الآن ساعتك... مآذنك النّاصعة التي كانت تلمع من بعيد، فقدت حسنها الذي كان يبدو بديعاً على أشعة الشّمس. ونهرك الزّاخر الغزير، «الوادي الأبيض»، مع كل المياه الأخرى التي تنتفعين بها الشّيء الكثير، يخرج من الأم، ويذهب إلى حيث لا ينبغي له. سواقيك الصّافية التي كنت تستغلينها كثيراً، أصبحت كدرة؛ ولقلّة تنظيفها، الآن يملأها الوحل. وبساتينك الغنية الغناء التي تحيط بك، حفر الذّئب المسعور عن جذورها ولم تعد تُزهِر»[10].

كذلك بين أراضي بَلَنْسِية، امتازت أراضي الرّي بمنطقة «كاستيّون» Castellón و«غانديّا» Gandía في الشّمال، وبمنطقة «إلْش» Elche و«نوبيلدا» Novelda في الجنوب.

الرّيّ في سهل «الإيبرو» وجُزر «الباليار»

كانت مياه نهر «الإيبرو» el Ebro وروافده، «كيليس» Queiles، و«أويربا» Huerva، و«خالون – خيلوكا» Jalón-Jiloca من جهة ضفّة اليمين، و«الغاليّيغو» El Gállego و«إل ثينكا» El Cinca، من جهة ضفّة اليسار، إلى جانب «ألفامبرا» Alfambra، الذي يصبُّ في «الوادي الأبيض» Guadalaviar بأراضي «تِرويل» Teruel، تشكِّل محاور الرّيّ الرّئيسية لما يسمّى اليوم بأراغون Aragón، والذي كان في العصر الإسلامي يندرج في إطار «الثّغر الأعلى» (أو المنطقة الحدودية لشمال الأندلس) وفي كورة «سانتابير» Santaver.

ويحدّثنا المؤرِّخ العُذري أيضاً عن هذه المنطقة، مشيراً إلى أن سَرَقُسطة شُيِّدت ما بين خمسة أنهار: «الإيبرو» (إبره)، «غاليّيغو» (جَلَق)، «خالون» (شالون)، «أويربا» (بلطش)، ونهر «فُنْتُش» Fuentes. ويقول عن «الغاليّيغو» إنه يروي بساتين «الرَّبال» Arrabal الشّهيرة، عند مخرج مدينة سَرَقُسطة، وبأن نهر «فوينتِس»، الذي يجري على مقربة من الأسوار السَّرَقُسطية باتجاه الشّرق، يروي العديد من البساتين التي كان يزرع فيها الكثير من أشجار الفواكه.

أما نهر «أويربا» (بلطش)، فيروي لنا العذري أنه، على مقربة منه، كانت هناك قرية بعين عجيبة، إذ كانت تظلّ جافّة طوال السّنة، وفي الليلة الأولى من أغسطس يبدأ الماء بالتّدفّق منها،

ويستمرّ كذلك طيلة اليوم إلى وقت الغروب. وعندما تغيب الشّمس، يتوقف الماء عن التّدفّق إلى غاية تلك الليلة من السّنة الموالية.

وهو يقدّم إشارات عن سدٍّ (سدّ بني الخطَّاب)، بقرب «ألموناثيد» Almonacid، كان يمتلئ بالماء الغزير لإحدى العيون، وكان توزيعه مُنظَّماً من قِبَل أهل ذلك المكان.

فيما يتعلّق بالأنهار، فهو يحدِّثنا عن مناطق شاسعة يرويها، بوجه خاص نهر «فوينتيس»، و«الخالون» و«الغاييّغو»، لكن دون إعطاء تفاصيل عن أيّة سواقي أو قنوات.

وتتفق الدّراسات الرّاهنة في تأكيد أنه، في محيط منطقة الفارو - طرّاغونا - سَرَقُسطة، على الضّفة اليمنى للإيبرو، أقيمت أهم شبكة ريٍّ للعهد الإسلامي في أراغون. يذكر جان غي ليازو Jean Guy Liazu، في دراسة مهمّة أُنجِزت في 1964، حول الزّراعة السّقوية بسهل الإيبرو وإرثها الإسلامي، يذكر مجموعة من السّواقي التي كانت تشكل الشّبكة الأساسية للرّي الأراغوني خلال الحقبة الإسلامية: «كانيت» Canet، «إرويس» Irues، «پراديپلا» Pradiela، «فورون» الكبرى Furón Mayor، «ألموثارا» Almozara، «المظفَّر» Almudafar، «غاليغ» Galeg و«أوردان» Ordan.

من بينها، كانت ساقيتا «ألموثارا» و«المظفَّر» الكبيرتان، اللتان يزوّدهما الإيبرو، وساقيتا «غاليغ» و«أوردان» اللتان تزوّدهما مياه «الغاييّغو»، تروي الأراضي البستانية الشّاسعة لسَرَقُسطة، بينما كانت ساقية «پراديپلا»، التي يزوِّدها نهر «كيليس»، تروي منطقة «توديلا» Tudela (تطيلة).

أما بالنّسبة لـ «تِروال» Teruel، وهي المنطقة التي يدرجها المؤلفون العرب في كورة أو إقليم «سانتابير» Santaver، فقد كانت ترويها مياه «الوادي الأبيض» و«وادي الحمراء» Alfambra، من خلال ساقية رئيسية، كانت تنشأ من سدّ «لوس پيلايريس» los Pelaires، وتتوزّع مياهها بواسطة سَوَاقٍ ثانوية.

إنّ جُزر «الباليار»، أو «الجزائر الشّرقية» كما كانت معروفة لدى الأندلسيين، تذكرها النّصوص العربية باسم «ميورقة» Mallorca، «مِنورقة» Menorca و«يابسة» Ibiza. وقد خضعت بشكل نهائي لحكم قُرطُبة في أوائل القرن العاشر، خلال إمارة عبد الله.

ووفقاً للجغرافي الزُّهري (القرن الحادي والثّاني عشر)، كانت «ميورقة» غنيّة بالزّراعات، كثيرة الفواكه. وفي نفس الصّدد، يقول الرّحَّالة ابن حوقل (القرن العاشر):

> «هي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي الفرنجة، واسعة الخير كثيرة الثّمار، رخيصة الماشية لكثرة المراعي»[11].



أراغون. ساقية بمياه نهر «الخالون» El Jalón.

ويقول لنا الحِمْيَري (القرن الرّابع عشر) بأن «يابسة» كان بها عشرُ مراسٍ، وأنهار وقرى عديدة. كما أن مِنورقة أيضاً كانت بها زراعة أشجار الفواكه.

وكل ذلك يشير إلى نشاط كثيف للرّي بجزر الباليار في الحقبة الإسلامية، على الأقل منذ أواخر القرن العاشر. وحسب دراسات حديثة، فإن الرّي في «ميورقة» الإسلامية كان يُنجز بشكل أساسي من خلال عدّة قنوات - سبق لنا أن فصّلنا طريقة تصريفها للماء - وأحواض ترويها شبكة مركّبة من سواقٍ وبِرَك كانت توزّع الماء القادم من القنوات، مُشكّلة منظراً متُدرِّجاً بديعاً لأشجار الفواكه، أخذ بالاندثار جزئياً على إثر «الاسترداد» المسيحي.

وفي جزيرة «يابسة»، كان يُمارس نظام ريٍّ عجيب: «لاس فيشيس» las feixes، وهي شبكة من القنوات بجانب البحر، في الأراضي المنخفضة، «أراضي لا أحد» التي تحيط بالبحر. وقد أنشئت هذه الشّبكة فوق مستوى البحر، وكانت مزوّدة بمنافذ للمحافظة على دفق الماء العذب، الذي عندما كان يفيض، كان يلقى إلى البحر، بفتح المنفذ.



«بيّانويبا دي أويربا» *Villanueva de Huerva* (سَرَقُسطة). قطعة أرضية بأشجار الفواكه.

الأراضي السّقوية في المنطقة الجنوبية للأندلس

فيما يتعلّق بجنوبي الأندلس، فإنّ الكتب الإخبارية العربية صريحة في وصفها للبساتين المحيطة بالمدن الأندلسية والمُنيات، وإقامات الاستراحة الخاصّة بالأعيان، التي كانت تجري بها جداولُ وسواقٍ، وحيث كان يوجد العديد من السّدود التي تخزِّن ماء الأنهار أو الآبار المخصَّصة للرّي. كما أن هناك إشارات إلى مياه جارية أو مخزَّنة في أعمال الشّعراء الأندلسيين، الذين ألهمتهم السّواقي والسّدود في أكثر من مناسبة[12]:

وليلٍ لنا بالسّدّ بين معاطفٍ   من النّهرِ ينسابُ انسيابَ الأرقمِ

هذه الكلمات لابن عمّار، وزير الملك الإشبيلي، المُعتمِد، وهو يتذكّر سدَّ بلدته الأصلية، «سيلبيس» Silves.

ومع أنه ليست هناك معلومات دقيقة ومحدَّدة، في الكتب الإخبارية العربية وفي كتب الجغرافيين حول السّواقي وشبكة توزيع الماء في وسط الأندلس، فهناك العديد من الإشارات إلى أساليب الرّي في عدّة مناطق أندلسية.

كما يفصِّل لنا ابن حوقل، الذي جال الأندلس في النّصف الثّاني من القرن العاشر، والذي تتّهمه ألسنة السّوء بأنه كان جاسوساً للخلافة الفاطمية (التي كانت خصماً للأمويين القُرطُبيين)، قدِم إلى الأندلس لأخذ معلومات إليها:

«وليس بها مدينة (...) غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة فيها ضياع عداد وأكرة وسعة وماشية وسائمة وعدّة وعتاد وكُراع وزروعهم، فإمّا بُخوس حسنة الرَّبع كثيرة الدّخل أو أسقاء على غاية الكمال وحُسن الحال».

ثم يقول لاحقاً، مشيراً إلى المسافة الموجودة بين قُرطُبة ومدن أندلسية أخرى، بأسلوب يقترب من أسلوب الأدلّة السّياحية الحالية:

«ومن كركويه إلى قلعة رَبَاح، مدينة كبيرة ذات سور من حجارة وهي على وادٍ لها كبير، منه شُرب أهلها ويزرعون عليه، وبها أسواق وحمّامات ومتاجر مرحلةٌ، والطّريق إلى قرى ذات عمارة»[13].

وعن مدينة «بيَّانة» Baena، يقول الحِمْيَري:

«وهي من مدن قَبرة وعلى يمين الطّريق الذّاهب من قُرطُبة وشرقي قَبرة، بينهما عشرة أميال، وهي على ربوة من الأرض طيبة التّربة، كثيرة المياه السّائحة (...) وهي كثيرة البساتين والكروم والزّيتون. وهي على نهر مربلة يأتيها من جهة القبلة، وهو نهر كبير، عليه الأرحاء الكثيرة»[14].

كما نرى، بتهذيب نصوص الكتب الإخبارية العربية وأوصاف الجغرافيين، نجد ما يكفي من الإشارات إلى الأراضي السّقوية، بمساحات مهمّة في منطقة الأندلس الجنوبية، وحتى في مناطق أخرى، والتي، مع قلّة الوصف فيها، تحوي بشكل ضمني تقنية كاملة للتّوزيع.

ولعلّ الثّغرة المهمّة الوحيدة حول هذه المسألة هي عدم توفّر إشارات دقيقة عن شبكات توزيع الماء في جزء من هذه المنطقة.

في حين أنّ هناك العديد من المعطيات الدّقيقة، التي تستند إلى دراسات أثرية، فيما يتعلّق بمملكة غرناطة الإسلاميّة، إذ أن الحُكم الإسلامي بهذه البقعة استمرّ إلى غاية عام 1492.

لقد استقرّت الزّراعة السّقوية بمملكة غرناطة، على ما يبدو، في السّهول الفيضية النّهرية، حيث تطوَّرت المروج الجميلة، التي يتحدّث عنها الإخباريون الإسبان – العرب والرّحاَّلون الذين زاروا غرناطة.

اثنان من هؤلاء الرّحالين، أحدُهما مسلمٌ والآخر ومسيحيٌّ، وهما شاهِدا عيان بفارقِ أربعين سنة بينهما، يقدِّمان لنا تقريراً سطحياً عن تيّارات الماء التي كانت تجري في المروج الغرناطية. وهما معاً يتقاسمان الحماس ذاته تجاه غرناطة.

يروي لنا عبد الباسط بن خليل بن شاهين، وهو رحَّالة مصري زار مملكة غرناطة عام 1466م، قبل «الاسترداد» ببضع سنوات، انطباعَه عندما وصل إليها (مُترجم عن النّشرة الفرنسيّة):

> «بدت لي غرناطة بلداً بهيجاً وواسعاً، من بين أكبر بلاد الأندلس؛ (...) بها جميع صنوف الصّناع وهي تشبه دمشق الشّام؛ بها مياه جارية، بساتين وحدائق وكروم... في 28 من جمادى الأولى (16 من يناير / كانون الثّاني) خرجتُ متوجهاً إلى جنان غرناطة وبساتينها، فرأيتُ منظراً بديعاً لوفرة الفواكه والخُضر. ثم في اليوم الأخير من الشّهر، ذهبنا لنجول في كروم غرناطة، الواقعة في الجهة المقابلة للحدائق، فشاهدت كروماً وأشجار تين كان منظرها عجيباً»[15].

ومن جهته، فإنّ الرّحّالة الألماني هيرونيموس مُنتْسَر، الذي سبق أن ذكرناه، والذي كان بغرناطة بعد «الاسترداد» بسنتين، في 1494 م، يكاد يتوافق مع بن خليل:

> «عند وصف غرناطة، أكبر مدينة في هذه المملكة، بوسعي أن أقول إنها مملكة أكثر منها مدينة (...) وباتجاه الجنوب والشّمال والشّرق، يمتدّ سهل شاسع ورائع، معظمه مُحاط بتلال. وهذا السّهل الكبير يمكن سقايته من جميع الجوانب، وأرضه خصبة وثَرَّة لدرجة أنها تعطي محصولين في السّنة (...) إنها جدّ معطاءة، وبها أشكال متنوعة من الأشجار، وخاصّة شجر الزّيتون والسّفرجل والتّين واللوز والرُّمّان والبرتقال والليمون، إلخ. وبها فواكه تقريباً على مدار السّنة (...) وعلى سفوح الجبال، في سهل كبير على امتداد ميل

تقريباً، توجد بساتين كثيرة وأشجار وارفة يمكن سقايتها بقنوات الماء (...)».

ثم يضيف لاحقاً:

«يجري من الجبال الشّاهقة، من خلال سهلين يوجد بينهما جبل «الحمراء»، نهران جدُّ غزيرين، وأنهار أخرى أصغر، من أودية أخرى، تروي غرناطة بأسرها، من خلال شبكة للقنوات موزعة بذكاء يثير الإعجاب. ومعظم مروجها تتمتّع بِرَيٍّ جدٍّ وفير»[16].

كما ذكرنا آنفاً، كانت شبكة السّواقي التي تسوق الماء إلى «جنّة العريف» وبساتين أخرى لمدينة غرناطة، من «السّاقية الملكية» الكبرى التي يزوِّدها نهر «حَدَرّه» Darro، قد أنشئت بأمر من السّلطان النَّصْري الأول لبني الأحمر.

كما كانت مملكة غرناطة تُروى بواسطة مياه العيون الوفيرة، بل وحتى بواسطة نظام القنوات في منطقة «ألمِريَّة».

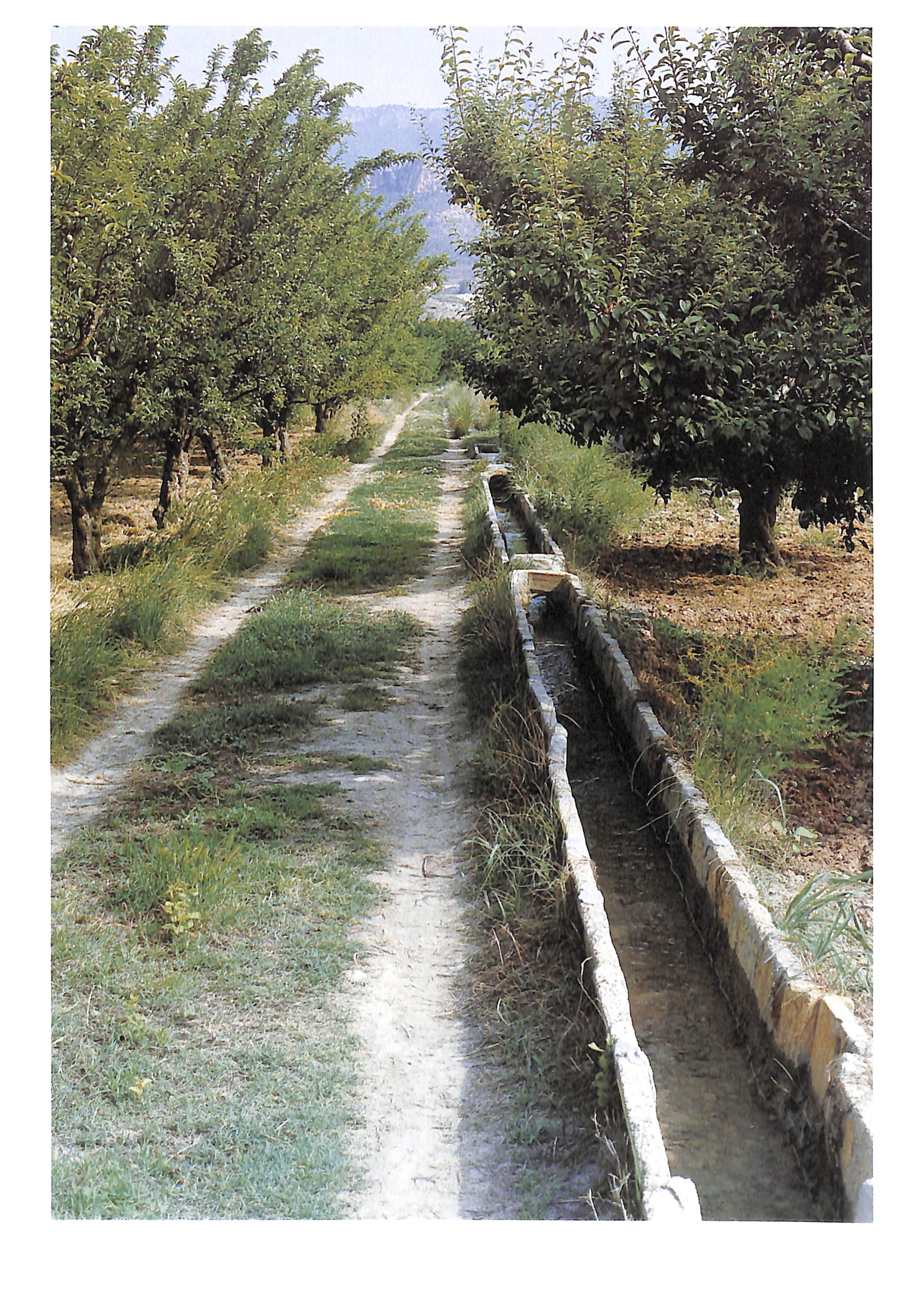
بالإضافة إلى ذلك، استُعمِل نظام معقَّد، خاصّة في سهل «أندرش» Andarax، الذي يُعرف بالنّفق. وهو عبارة عن أنفاق لِصرف الماء، بانحدار خفيف وببعض الطّول، دون تفرُّعات، كانت تُنشأ، بالعرض، في قاع النّهر. وكانت قاعدتها تُعزَّز بجدارين من الحجر غير مرتفعين، وتُكسى بالبلاط الصّخري. وكانت تجمع المياه المتسرِّبة، لتوزِّعها بواسطة السّواقي.

وعبر كل بلاد الأندلس، كانت هناك مناطق مروية بفضل اجتهاد سكانها، لتمتدّ الخضرة إلى مناطق مُهملة، لم تكن تمارَس فيها الزّراعة في ذلك الوقت. وكان أصحاب هذا الشّأن هم الأندلسيون و«المستعربون» mozárabes (المسيحيون الذين كانوا يعيشون تحت الحُكم الإسلامي).

يحول ضيق المجال دون تقديم المزيد من الإشارات الجغرافية حول مناطق سقوية أخرى بالأندلس؛ كما أنه لا يسمح لنا بالشّروع في محاولة لمقاربة الحياة اليومية لهؤلاء المزارعين الأندلسيين المجتهدين. فحسبُنا إذن هذه العُجالة.

«مالقة» Málaga. ساقية مع لألاء ضوء الغروب.





الفصل السّابع

توزيع الماء والتّقنيات المتنوعة

موظّفو ومجالس ومحاكم الماء

حول توزيع الماء، على مرّ التّاريخ، أُنشِئت مجموعة من القوانين والوظائف التي تقوم على تنفيذها، تعود إلى حضارة آشور Asiria في الألفيّة الثّانية قبل الميلاد، وتستمرّ في الإمبراطورية الرّومانية (القرن الرّابع ق. م. - القرن الخامس الميلادي).

في الأندلس، لا بدّ أن توزيع الرّيّ ومراقبة تنفيذ القوانين المحيطة كان يمارسها موظف، وهو «صاحب السّاقية» El zabacequia أو موزِّع الماء، برتبة مماثلة لرتبة «صاحب السّوق»، الذي يراقب السّوق. ومثله، كان على «صاحب السّاقية» أن يخضع لسلطة القاضي، الذي كان يُدير القضاء العادي، وإن كانت له بعض الاستقلالية.

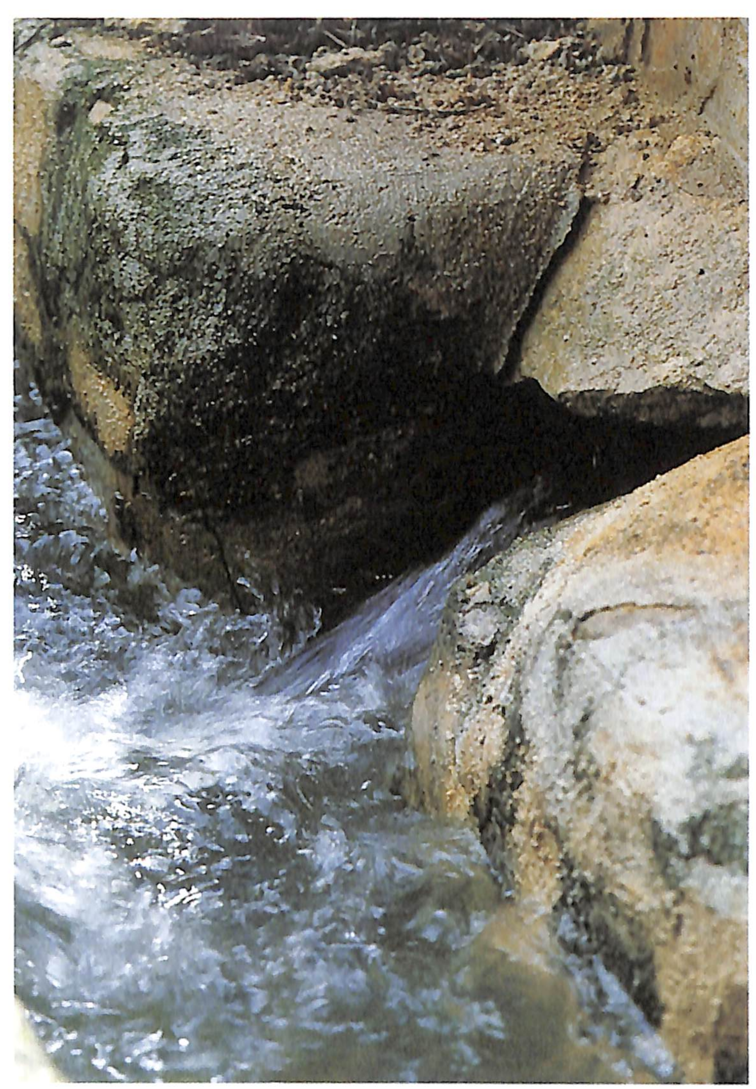
ولا بدّ أن «صاحب السّاقية» الذي كان يُعيَّن من قِبَل الوالي (الحاكم) أو مباشرة من الأمير، كان يحلُّ العديد من النّزاعات بين أصحاب الحق في الرّي، ولا بدّ أنه كان مراقباً حريصاً على توزيع المياه بالقسط. كما أنه كان، بالضّرورة، يحرص على أن يبقى الماء الذي يجري في السّواقي نظيفاً، والسّواقي نفسها أيضاً، على يد المستخدِمين أنفسهم. ويحرص حرصاً شديداً، أيضاً، على أن تُحترَم أدوار توزيع الماء الدّقيقة من طرف مُلاَّك الأرض الأندلسيين، لتجنُّب أي نوع من أنواع المكر أو أيّة نيّة غير سليمة «للتسلُّل» قبل الوقت.

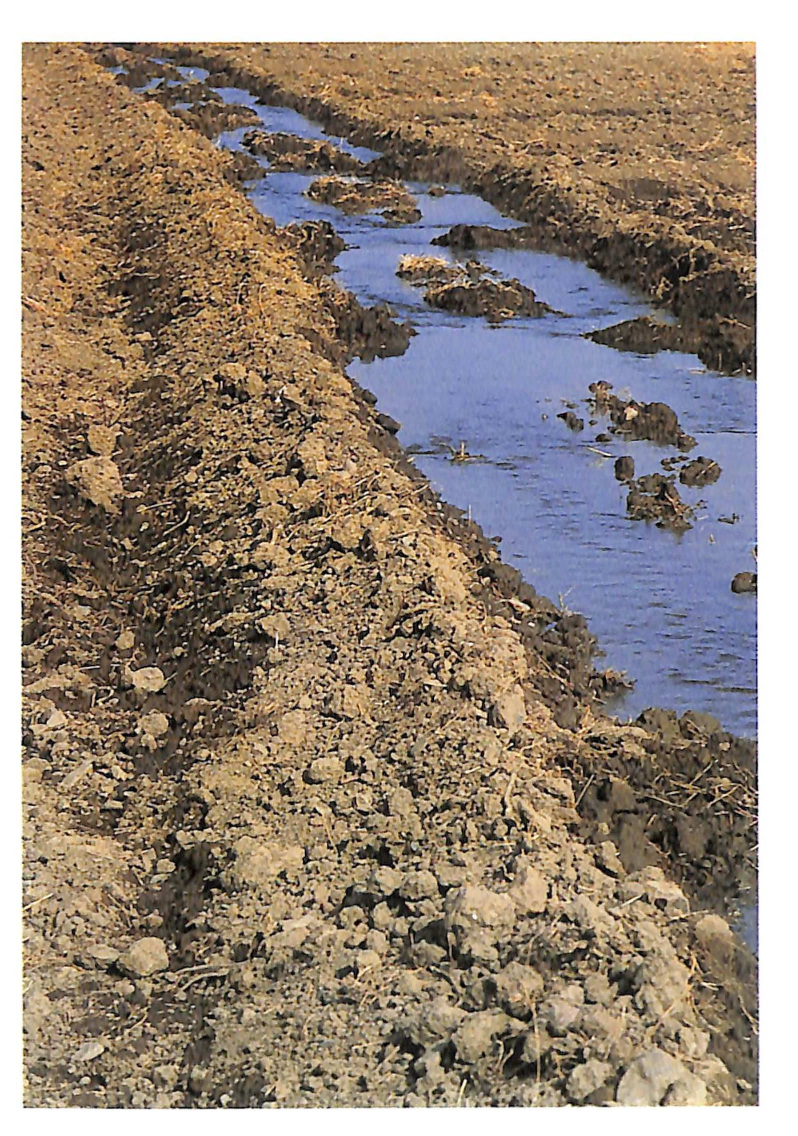
وكانت «أحكامهم» أو قراراتهم شفهية - شأنها شأن أي حكم في إدارة القضاء الإسلامي - بل لعلّهم كانوا يفرضون غرامات ببضعة دراهم، تجعل المخالِف يفقد الرّغبة في أن يعاود الكرَّة.

يكون هذا الموظف الرّسمي من أصلٍ حَضَري، أي ينتمي إلى مجموعة موظفي المدينة، إلى جانب «صاحب السّوق» و«صاحب المدينة»، ولا بدّ أنه كان يجد مشاكل حقيقية عند محاولته نقل مراقبته إلى أبعد من السّواقي الرّئيسية - وهي حدود سلطته - إلى السّاحة القبلية. وفي هذه الأخيرة، لم تكن مختلف سلالات «بَني فلان» العديدة التي تنتمي إلى عشائر، لتسمح بتدخُّل «صاحب السّاقية»، إذ كان هؤلاء هم المشرفون على تنظيم الرّيّ في السّواقي الثّانوية التي كانت تروي أراضيهم.

ولعلّ هذه الوظيفة في الإدارة الأندلسية كانت تحظى بأهمّيّة اجتماعية كبيرة، إذ أن فتيَيْ المنصور، العامريّين «مُبارك» و«المُظفَّر»، كانا ينتميان في بَلَنْسِية إلى «وكالة السّقاية»، وهي

«خينيتِه» Ginete (مُرْسِيَة). قناة في البستان.





الصّورة على اليمين: «مُرْسِيَة»، حصة من الماء

الصّورة على اليسار: ساقية وسط أراضٍ بور

مؤسّسة إسپانية – إسلامية كانت مهمتها مراقبة الرّي. وقد أصبح هذان العامريان أميرين على مملكتين للطّوائف: مُبارك ببَلَنْسِية، والمُظفَّر بشاطبة.

ومع ذلك، فإن شخصية «صاحب السّاقية» لا تُعرَف مباشرة من خلال النّصوص العربية، باستثناء بعض الإشارات غير الواضحة. وهذه الشّخصية تظهر من خلال النّصوص المسيحية، كما هو الشّأن في وثيقة أراغونية من القرن الثّالث عشر، يظهر فيها «صاحب ساقية» Çabacequia.

«(...) ذلك الذي يراقب الماء أو السّاقية، الذي يسمّى «صاحب السّاقية (...)»[1].

وسنرى لاحقاً كيف أن هناك إشارة إلى çabacequier في النّصوص البَلَنْسيّة، وإلى sobrecequiero في النّصوص المُرْسِيَة، وهي أسماء كلها مشتقة من العربية «صاحب السّاقية»،



أراغون، ساقية نهر «خالون» Jalón.

ومرتبطة بوظيفة إدارة الرّي، لكن مع بعض الفروق في المهام، بكل منطقة.

وتكتمل صورة الموظَّف الأندلسي المكلَّف بالرّي بمقارنتها بصلاحيات زملائه الآخرين في المراقبة العمومية للمدن الأندلسية: «صاحب السّوق» و«صاحب المدينة».

ويبدو أنه كانت هناك شخصيات إدارية أخرى بالأندلس مرتبطة بالرّي؛ كـ «قاضي المياه»، المختصّ بالقضايا المتعلّقة بالمياه، والمسمَّى بـ«أمين المياه»، وهو موظف برتبة أدنى يراقب الأراضي السّقوية الأصغر.

وشخصية «الأمين» هذه، وهو اسم عربي يعني مَن هو « أهل للثّقة»، «من هو مستأمَن»، انتقل إلى مناطق الرّيّ المسيحية بالصّيغة المشتقّة من العربية *alamín* في قشتالة، و*alamí* في بَلَنْسِية. وفي بعض الأحيان، ما وُرِث هو مضمون الكلمة، وهكذا سنرى في منطقة إلْش Elche (أليكانتِه) كيف بقيت عبارة el fiel del agua أو «المُستأمَن على الماء».

فيما يتعلّق بواجبات «صاحب السّاقية»، ثمّة أخبار مهمّة تقدِّمها لنا وثيقة «الامتياز الملكي» للملك خايْمِه الأول، بعد سنوات قليلة من غزو بَلَنْسِية (1238 م)، التي يأمر فيها أصحاب

السّاقية بتنظيف وإزالة الأوراق الجافّة من السّواقي؛ وأن يجعلوا أصحاب حقّ السّقي يُصلحون خلل السّواقي، ويرمّمون الجسور التي فوقها؛ وبمنع المستخدِمين من عدم إعادة الماء إلى السّاقية الرّئيسية، بعد ريِّ أرضهم، إلخ؛ كما أنها تنصّ على أن يراقب المستخدِمون إذا ما كان «صاحب السّاقية» يقوم بمهمّته أم لا، وإذا كان لا يفعل، عليهم أن يقدِّموا شكاية ضدّه أمام محاكم الماء[2].

للأسف، لم تُحفَظ نصوصٌ عربية لقوانين الرّي ببَلَنْسِية. لكن بوسعنا أن نتصوّر أن نفس القوانين التي ينصّ عليها «الامتياز الملكي» لخايْمِه الأول أو أخرى مماثلة هي التي كانت تُطبَّق في مناطق الرّي البَلَنْسيّة خلال الحُكم الإسلامي؛ فقد كانت قد مرَّت سنوات قليلة منذ «استرداد» بَلَنْسِية، وقد احتفظ الملك خايْمِه الأول، فيما يتعلّق بالرّيّ، بالعادات والقوانين التي كانت «في زمن المسلمين»، وفقاً لما ينصّ عليه الميثاق الخامس والثّلاثون[3]، المُوقَّع بمملكة بَلَنْسِية.

من الواضح أنه، في الأندلس، كانت هناك مجموعة من موظفي الإدارة الأميرية والمحلّية الذين كانوا يسهرون على تنفيذ قوانين الرّيّ، وخاصّة في المحيط الزّراعي للمدن الأندلسية.

لكن، كما هو الشّأن بالنّسبة لباقي النّشاطات والقوانين في العالم الإسلام التي يكتسي فيها ما هو جماعيٌّ أهمّيّة كبيرة، لا بدّ أن هذا العُرف كان موجوداً أيضاً في الرّي، لتتشكَّل بذلك مجموعات مستقلّة، حول سلالات عشائرية، لمستخدِمي نظام السّقي[4].

هذه الأُسَر، وبعضها من أصل بربري، المستقرّة في مناطق أكثر نأياً عن المدينة، تركت أثر مرورها في أسماء الأماكن البَلَنْسيّة والمُرْسِيّة، مثل «آل هوَّارة» فيما يتعلّق بساقية «فابارا» Favara (بَلَنْسِية).

وعلى مرِّ تاريخ الرّي الإسباني، بقِيَت سلسلة من المجموعات المؤسَّسية، التي تعتمد على أعراف وتقاليد تعود لِقرون.

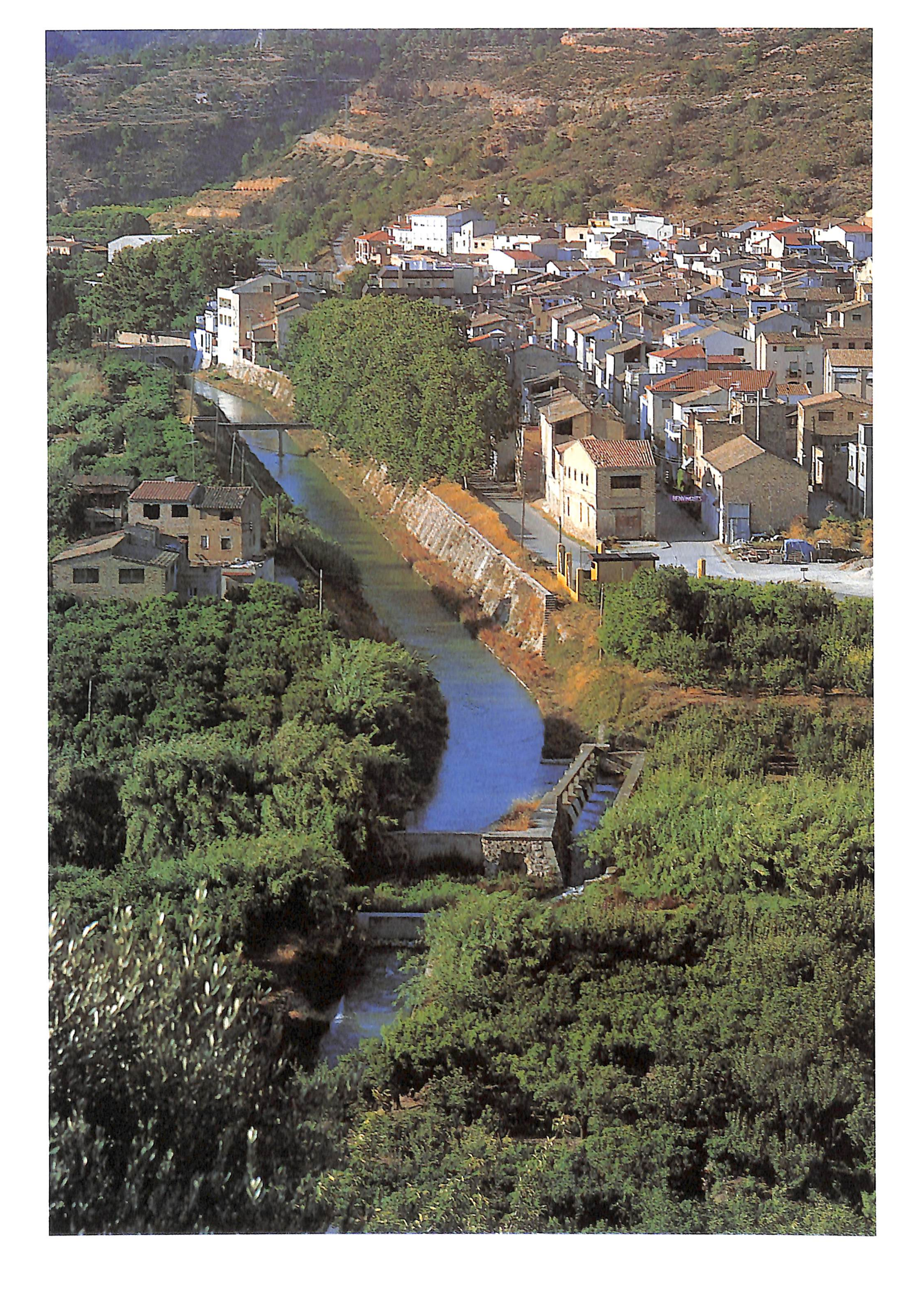
في العصر الوسيط، بدأت تظهر، في الأراضي «المستردَّة»، العديد من أخويات مستخدِمي نظام الرّي، كانت الأساس لمجموعات لاحقة لِمستخدمي هذا الحق، ستبدأ باكتساب استقلاليتها عن السّلطة الملكية أو الإقطاعية.

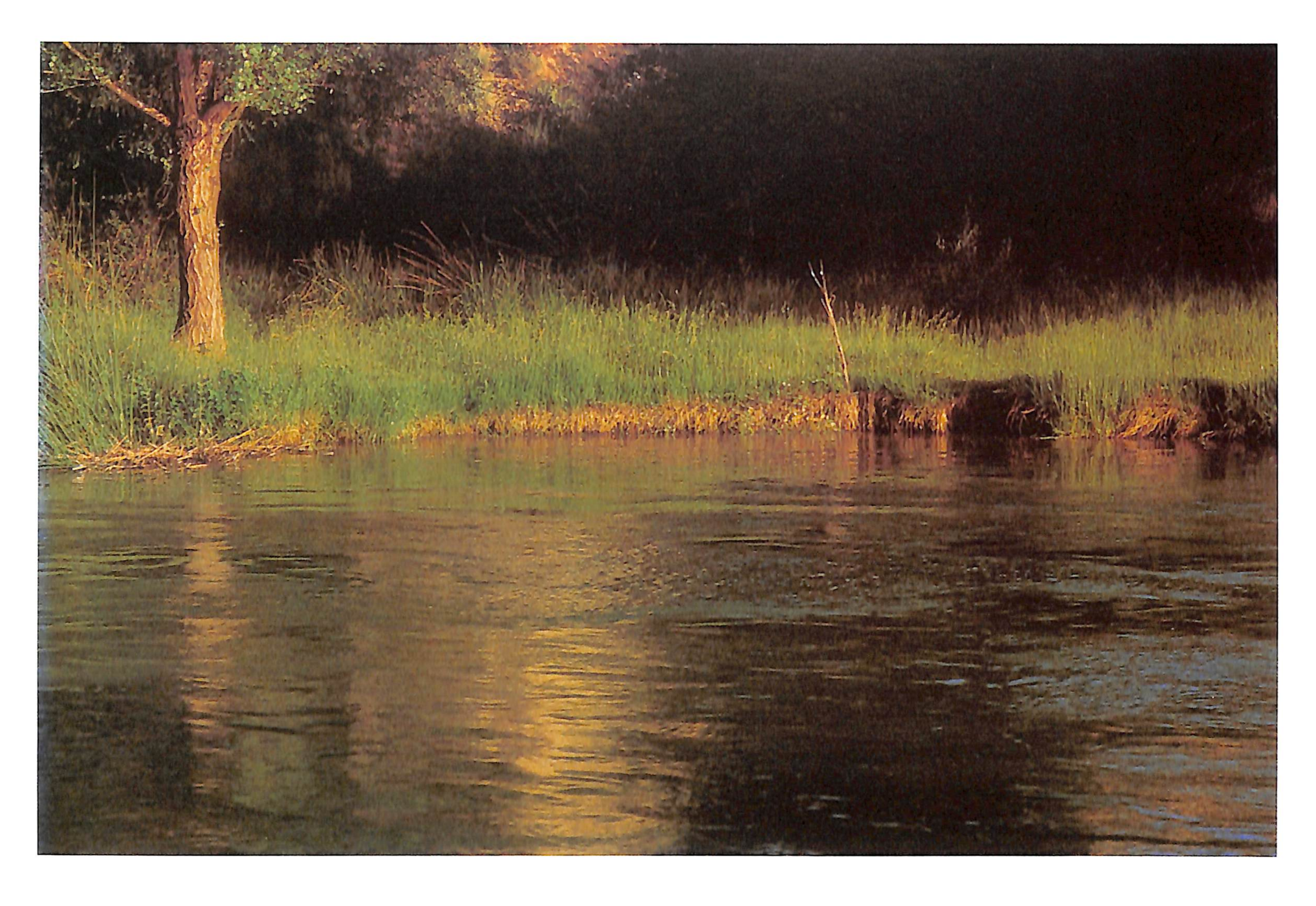
فقد وصلت إلينا مؤسّسات كـ «محكمة مياه مرج بَلَنْسِية» و«مجلس الرّجال الصّالحين للأراضي البستانية بمُرْسِيَة». والمؤسّستان كلاهما مؤلَّفتان من «مزارعين شرفاء وذوي صيت طيّب» - كما كانت تقول القوانين المؤسِّسة - وكانت تقيم مجالس عمومية، وفيها كان يتم تدبير الماء العام وكانت تناقش المشاكل التي يطرحها المستخدِمون، بإجراء شفهي بسيط.

هناك كانت تُسمع نفس الشّكاوى التي كانت تُسمع منذ قرون: سرقة الماء في وقت قِلّته، عدم احترام الدَّوْر، عدم تنظيف السّواقي، ضمن شكايات أخرى. وهكذا نرى أنّ الامتداد لم يكن مؤسّساتياً فحسب، بل بحكم المنطق بشرياً، فيما يتعلّق بالتّصرُّفات.

كانت «محكمة مياه بَلَنْسِية» (التي كان بها ممثلون من الجماعات الثّمانية لساقية «توريا» Turia)

«طَرّاكونة» Tarragona. ساقية نهر «الإيبرو» الأدنى، مع سدٍّ صغير.





طَرّاكونة. نهر «الإيبرو» الأدنى. أنوار الغروب وظلال على ساقية.

تجتمع كل خميس، أمام «باب الرّسُل» Puerta de los Apóstoles، لكاتدرائية هذه المدينة «في تمام الثّانية عشرة». وحسب بعض المؤلفين، يبدو أن أصلها مجهول.

لكن حولها أيضاً نشأ نقاش مُحتدم، حول احتمالية أصلها الرّوماني أو العربي أو المسيحي. من وجهة نظر الأصل العربي، هناك مؤلفون، من بينهم إ. ليفي پروڤنسال E. Lévi-Provençal ور. أرييه R. Arié، يجدون سابقة المحكمة البَلَنْسِيّة في «وكالة السّقاية»، مؤسّسة نشأت في عهد الخلافة القُرطُبية (سنة 960 م) وحافظ عليها خايْمِه الأول دي أراغون بعد ذلك بقرنين.

توزيع الماء وأعرافه المتنوعة

في العالم الإسلامي، يتم الانطلاق من مفهوم كون الماء هبة إلهية، وبالتّالي فهي ليست مِلكاً لأحد، يجب أن توزّع بالتّساوي بين من يحتاجون إليها.



طُلَيطُلة، سدود في نهر «التاج» Tajo.

لكن طريقة التّوزيع هذه كان من شأنها أن تختلف في الأندلس من مناطق إلى أخرى. وبوجه عام، كان الماء يوزَّع على كل مالكٍ بحسب مساحة أرضه، وفقاً لنظام معقّد نوعاً ما، حيَّر أكثر من دارِس. وسنحاول شرحه بنموذج بسيط. كانت كمية الماء الموزَّعة، مع المحافظة على النّسبة المتعلّقة بالأرض، تختلف بحسب دفق النّهر.

كان النّهر ينقسم بين السّواقي الرّئيسية بحسب الأرض التي تزوّدها كل ساقية. وبدورها، كانت كل ساقية تنقسم بالتّساوي بين فروعها وفقاً لنظام أدوار دقيق. وهذه الأدوار أو النّوبات، التي كانت دائماً تبدأ بعكس التّيّار، وتنتهي باتجاه تيار النّهر، كانت بمدةٍ ونسبة تكرُّرٍ تختلف بحسب الأرض المسقيّة وأعراف المنطقة. وكان يُسمح بأخذ الماء مرّة واحدة في الأسبوع، أو عدّة أيام بلياليها كما كان الشّأن في «بوثويلو» Pozuelo و«بِرويلا» Veruela (أراغون)، حسب وثائق من القرن الثّاني والثّالث عشر.

أمّا العناصر التي كانت تشكل شبكة الرّي فكانت دائماً: سدٌّ كان يخزِّن ماء النّهر ليحيلها إلى

السّاقية؛ وساقية رئيسية أو «ساقية أم»، كان يصل إليها صبيب الماء، منقسمة إلى فروع، كما رأينا من قبل.

كانت وحدة القياس المستعملة لقياس النّسَب هي ال «فيلا» *la fila*، وهي وحدة مجرَّدة، لكنها تتمثّل في حجم معين. ولتحقيق هذا التّحصيص بشكل عادل، كان «للموزِّعات» partidores ولنظام الأدوار، المعروفة بالنّوبة أو «الدُّولة»، أهمّيّة كبيرة. كان «الموزِّع» عبارة عن مُنشأة تنقسم من خلالها مياه القناة الرّئيسية وتتوزع، بنسبة معينة، نحو السّواقي الثّانوية وفروعها، بواسطة بوابات.

كانت ال «فيلا» (أو «إيلا» Hila بالقشتالية) تعادل، بوجه عام، ساعة من تدفّق الماء. وهذه القاعدة التي تستند إلى السّاعات هي إحدى خواص توزيع الماء في العالم الإسلامي. لكن بكم ساعة يتعلّق الأمر على مرِّ ما نسمِّيه يوماً واحداً؟ في بعض الأماكن، كالشّام، كان ذلك من طلوع إلى غروب الشّمس – تقريباً اثنتا عشرة ساعة – وفي أخرى، مثل اليمن وجزيرة العرب، خلال أربع وعشرين ساعة.

وفقاً ل ت. ف. غليك T. F. Glik، في بَلَنْسِية و«كاستيّون» Castellón و«غانديّا» Gandía كان يُمارَس نظام ريٍّ يستند إلى الاثنتي عشرة ساعة، يسمّيه المؤلف بـ«النّمط الشّامي»، حيث يُلحَق الماء بالأرض، وعندما لا يكون هناك عَوز وقِلّة، لم يكن نظام الدّولة (أو الأدوار) يُحسَب بالوقت؛ بينما في «إلْش» Elche و«نوبيلدا» Novelda (أليكانتِه Alicante) ومناطق أخرى من الأندلس، مثل «مَيُورْقة» Mallorca، بنظام ريٍّ قصير المدى، كان يتم الفصل ما بين حقوق الأرض وحقوق الماء، وكان يُسمح ببيع الماء – لكن ليس حق الماء – بأدوار متوسّطة أو وحدات زمنية تعتمد على قاعدة الأربع وعشرين ساعة. وهو النّظام الذي يسمّيه الكاتب بـ«النِّظام اليمني»[5].

ولنذكرنّ أن العرب الذين قدِموا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي استقرّوا بمناطق مختلفة من شبه الجزيرة الإيبيرية، مدفوعين، في مناسبات عديدة، بالمقارنة مع بلدانهم الأصلية، الذي كان يتيح تأقلماً أفضل مع تلك الأماكن. وليس من المستغرب أن يكونوا قد تركوا بصمة ما في أراضيهم الأندلسية المتبنّاة، كما هو الشّأن مثلاً بالنّسبة لنُظُم الرّي المستعمَلة.

إلا أنه، في بَلَنْسِية، كانت هناك العديد من التجمّعات الحضريّة البربرية، فكيف يمكن تفسير استعمال النّظام الشّامي إذن؟ على ما يبدو، تم فرض النّظام الشّامي على البربر وعلى باقي السّاكنة من قبل حاكم أموي، هو عبد الله البَلَنْسي "El Valenciano"، ابن أخي الأمير الحَكَم الأول (القرن التّاسع)[6].

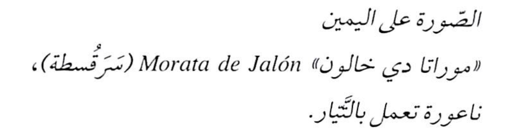
حاول الأمراء الأمويون الأوائل، لشوقهم الدّائم لبلاد الشّام الأصلية، إعادة إنشائها من جديد في الأندلس من خلال مشاهد وعادات.

لكن، يحضُرنا سؤال آخر، كيف كانوا يقيسون وقت الرّي؟ على ما يبدو، بواسطة ساعات مائية – وقد فصّلنا في بداية هذا الكتاب طريقة عملها – أو من خلال مراقبة طول معيّن للظّل، بعد مرور بعض الوقت من طلوع الشّمس. على سبيل المثال، منذ بزوغ الضّوء الأول للفجر إلى أن يبلغ ظل المستخدِم الذي يعكسه نور الشّمس طول ثمانية أقدام. والوقت المستغرَق كان يعادل ساعتين، وهي التي كانت تؤخذ كمقياس. ساعة شمسية عجيبة، تظهر فيها بوضوح حدّة الملاحظة لدى أهل القرى عندنا.

في بعض الأحيان، مع الوقت استمرّت تلك الأعراف والعادات تُذكَر، كما هو الشّأن في توديلا Tudela (نابارّا)، إذ ما زال النّاس هناك يقولون *hora del elmá* أي «ساعة الماء»، فكلمة *elmá* تعني «الماء» باللغة العربية.

بعد مرور قرون من الزّمن، أقيمت ببلداتنا البستانية، حول نظام الرّي والدُّولة، «أسواق» مزادٍ حقيقية لماء الرّي. وشيئاً فشيئاً، بدأ نظام المزايدات يتعقّد وكذلك تصنيفات حِصص ال «فيلا» أو ال «إيلا». فعلى سبيل المثال، يذكُر المؤرِّخ خ. موسو J. Musso (القرن التّاسع عشر) أن مستخدمي نظام الرّي، في «لوركا» Lorca (مُرْسِيَة)، كانوا يجتمعون في الثّامنة صباحاً في بيت يسمّى «ألبورتشون» Alporchón. وهناك، بعد أن يسمعوا من الدّلاّل حصّة الماء المعروضة للمزاد، كانوا يقومون بالمزايدة عليها، إلى أن يحتفظ بها من دفع أعلى ثمن.

ثم كان يتم اللجوء إلى «الشّركة» Se jaricaba، أي كانت تُجمَع حصتان لمالكَين مختلفين للحصول على كمية أكبر من الماء. وبذلك، كان إذا ما اشترك صاحب الحصّتين مع آخرَين

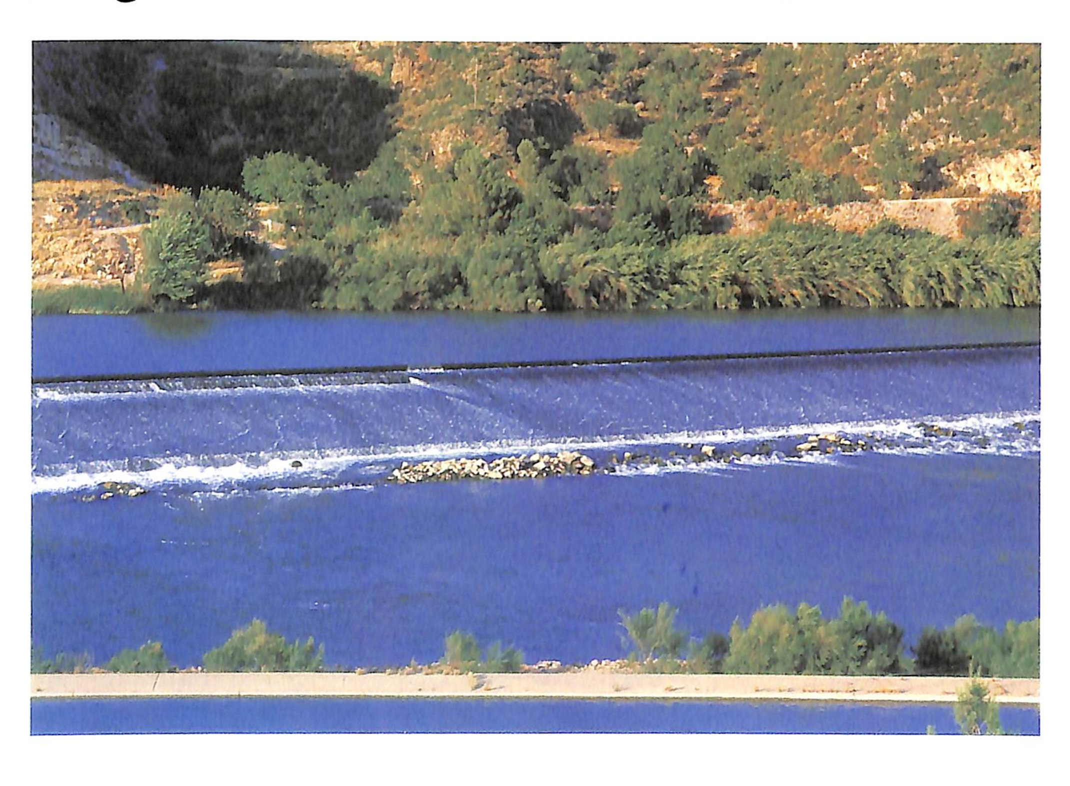


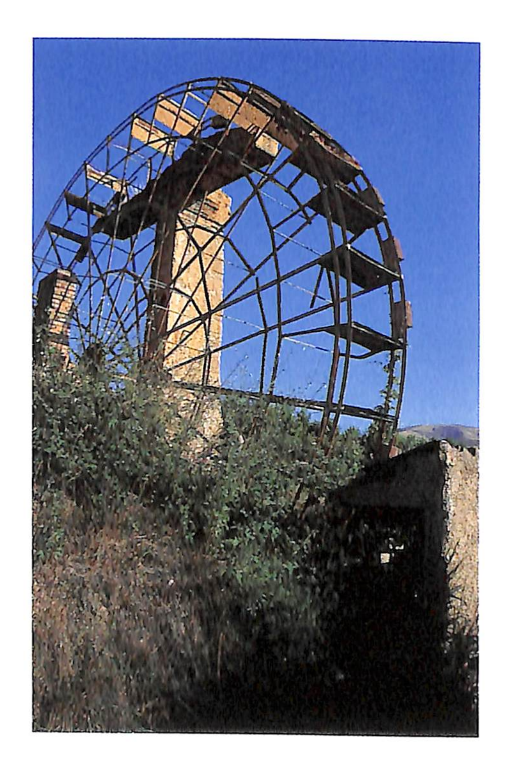
الصّورة على اليمين

«موراتا دي خالون» Morata de Jalón (سَرَقُسطة)، ناعورة تعمل بالتّيار.

الصّورة على اليسار

«بنيفاييت» Benifallet (طَرّاكونة)، سد.







«موراتا دي خالون» Morata de Jalón (سَرَقُسطة)، ناعورة مهجورة.

يملكان حصّة واحدة، كان الأول يستطيع أن يسقي بصبيب الأربعة، خلال نصف مدّة الوقت الذي كان سيخصَّص له في حالة استعمال صبيبه لوحده، بينما كان الآخرون يفعلون ذلك خلال رُبع تلك المدّة[7].

وما زلنا نذكر كيف كان البستانيون، خلال عقد الخمسينيات، في بلدة من إقليم أليكانتِه قريبة من «أرويلة» Orihuela، يتجمعون أمام الكنيسة، مُحدثين جلبة في السّاحة، قبل الشّروق، للحصول على دور الرّيّ الذي كان من نصيب تلك البلدة في ذلك اليوم.

السدود، منشآت حيوية

كانت السّدود في الأندلس تؤدّي مهمّة جدّ محدّدة: كانت لتحويل مياه التّيّار، أكثر من تخزين الماء. ودون رغبة منها في منافسة أخواتها – السّدود العظيمة التي أنشأها الرّومان قبلها بقرون، حوَّلت هذه السّدود الماء إلى السّواقي، والقناطر، إلخ، وأوقفت في مناسبات عديدة التَّيّار المندفع للأنهار خلال فيضانها، ورفعت مستوى الماء الجاري إلى النّسبة الضّرورية للتّمكُّن من تحويلها.

كانت الجاليات اليمنية، عند وصولها إلى شبه الجزيرة، تعرف تقنية السَّدّ، لأنها كانت قد مارستها باليمن، بلدها الأصلي، لعدّة قرون، بل وحتى ما قبل المسيح.

كانت هنالك سدودٌ في الأندلس بأسره، في المناطق المروية بالمياه النّهرية مثل أراغون، وطَرّاكونة وبَلَنْسِية ومُرْسِيَة، ذلك أنّ هذا النّوع من المنشآت كان من العناصر الضّرورية لتحويل مياه ذات مجرى متقطِّع.

وكان تركيب السّد عبارة عن بناء من الحجر يقطع تيار النّهر، بأُسس عميقة ومدرَّجة من الجهة التي يذهب باتجاهها التَّيّار.

وعن السّدود بالأندلس، يحدِّثنا بعض المؤرِّخين الإخباريين الإسپان – المسلمين. وفي مناسبات عديدة، بكثير من التّفصيل.

فيروي لنا المؤرِّخ ابن حيّان (القرن الحادي عشر) بحماس إصلاح سدّ قُرطُبة، على مقربة من الجسر الرّوماني، وترميم هذا الأخير في عهد الخليفة الحَكَم الثّاني (961–976 م)، والنّص عن التّرجمة الإسپانيّة:

> «في الأربعاء، اليوم الخامس من شهر ذي القعدة لهذه السّنة 360 هـ (30 من أغسطس 971 م) بدأ بناء السّد، المصنوع بعناية، وكانت مواده من أغصان شجر الشّعْراء، المستقدمة من جبل قُرطُبة، عليها حجارة كبيرة ورمل ممزوج بالطّين الخالص، على عَدْوة الوادي الكبير، بقُرطُبة، بجانب الجسر، قصد (...) تحويل

تيار النّهر في تلك المنطقة، حتى تجفَّ أركانه (أي الجسر)، والتي كانت حركة الماء فيها، مع مرور الزّمن، قد نزعت طبقة الجبس، فكان لذلك يُخشى وقوعه (...) وقد كان الخليفة المُستنصر بالله، يأتي في مناسبات كثيرة ليراقب البناء بنفسه (...) وعندما انتهى ترميم الجسر، بدأ ترميم الحفرة التي استلزم فتحها في سدّ الأرحاء الموجود في هذه الجهة، من أجل الاشتغال على الأركان، والتي كان لا بدّ من ردمها. وقد تمّ العمل على ذلك، وعلى تمتينها، إلى أن أصبح كل شيء على أحسن حال، ومكتملاً (...) بدأت الأرحاء بالطّحن، وعادت كما كانت من قبل بفضل الله تعالى»[8].

ولعلّ السّدود كانت أيضاً مجالاً لاستجمام الأندلسيين، فقد كانوا يذهبون إليها في أوقات فراغهم، كما بوسعنا أن نذهب نحن اليوم في نُزَهٍ إلى بحيرة أو حوض. ويذكر الشّاعر ابن زيدون (القرن الحادي عشر) في أشعاره أحد السّدود التي كانت بنهر «الوادي الكبير» وهو يشقُّ قُرطُبة، ويسمّى سدّ «مالك»، كان الأندلسيون يذهبون للاستحمام في مياهه الهادئة، أو التّجوّل بالمراكب أو حتى للشُّرب. ولا بدّ أنهم كانوا يفعلون ذلك مع وجبة خفيفة طيّبة.

وهناك إشارات أخرى إلى السّدود في الأندلس، يقدِّمها لنا الجغرافي الحِمْيَري، من خلال أوصافه الشّهيرة، التي سبق أن ذكرناها، لأنهار مُرْسِيَة ولوركا، في الوقت التي يخبرنا فيه عن طريقة عملها:

«فإذا احتيج إلى السّقي به عولي بالسّداد حتى يرقى المجرى الأعلى فيُسقى به، وعلى هذا النّهر نواعر في مواضع مختلفة تسقى به البساتين»[9].

نواعير التَّيّار المائي العظيمة والسَّواني البسيطة

كانت نواعير التَّيّار (أو الدّواليب)، فعلاً، كما يقول لنا الحِمْيَري، وفيرة في كل الشّبكة النّهرية بالأندلس، كما سنرى. وحول النّواعير وأعرافها بإسپانيا، توجد مراجع وفيرة وممتازة، نفصِّلها في القائمة البيبليوغرافية لهذا الكتاب. ومرّة أخرى، يجبرنا حيّز النّص على إعطاء إشارة مختصرة عن موضوع واسع ومهمّ.

كانت النّواعير النّهرية قد استُعمِلت من قَبل، لدى الرّومان، خاصّة في «لا بيتيكا» la Bética، ولا بدّ أنها بقيت في العهد القوطي، استناداً إلى الإشارات غير الدّقيقة التي يعطيها سان إيسيدرو الإشبيلي (القرن السّابع) عن العجلات las rotae في كتابه «الأصول» *Etimologías*، كما أشرنا في

البداية. إذ كانت عجلات التَّيّار الرّومانية، بحسب وصف ڤيتروڤيوس Vitrubio، تغرف الماء في صناديق صغيرة أو دِلاء تُفرغه عندما تصل إلى أعلى المسار.

في الأندلس، بين النّواعير كبيرة الحجم، لا بدّ أن هذا النّوع من العجلة الرّومانية ظل يُستعمل، وبالإضافة إلى ذلك، استُعملت أخرى، كان لها، بحسب تورِّيس بالباس Torres Balbás، وهو نظامٌ:

«فيه العجلة أو الأسطوانة، تكون في محيطها أُطُرٌ فارغة أو قنوات من ألواح، بُثقوب صغيرة لدخول الماء وخروجه»[10].

ويشير هذا الباحث المعروف إلى أنّ هذا النّوع من النّواعير ربما يكون من أصل شرقي، لوجوده بوفرة في أنهار الشّرق، وإلى هذا النّوع تنتمي ناعورة مرج مُرْسِيَة، وناعورة فاس (المغرب)، التي لا تقلّ عنها شُهرة.

استناداً إلى خواص النّاعورة، سنتحدَّث بداية عن اسمها. في الأندلس، كانت معروفة بالاسم العربي، «ناعورة»، وأيضاً بالاسم العجمي، «دُولاب». وكلمة «ناعورة»، على ما يبدو، تشير إلى «النَّعير» الذي تُحدِثه العجلة المذكورة وهي تدور لترفع ماء النّهر أو التَّيّار الذي أُنشِئت عليه. وقد كان ذلك الرّفع يحدث بواسطة مقصورات مُركبَّة في العجلة نفسها، بدِلاءٍ أو بواسطة أوانٍ من الفخّار مربوطة إلى العجلة (القواديس). وفي دورانها المستمرّ، وهي مدفوعة بالتَّيّار، كانت أوانيها تجمع ماء النّهر وترفعه، بين الصّرير والماء المنسكب، إلى أقصى ارتفاع في دورتها؛ وهناك كانت تسكُبه، بالضّرورة، في قناة يوزَّع منها إلى السّواقي والبِرَك وشبكة القنوات الحضرية.

كان لهذه الآلات الهيدروليكية عنصران: أحدهما من النّوع المرِن، القاعدة، والآخر متحرِّك، تشكِّله العجلة نفسها. وبوجه عام، كانت العجلة خشبية، لكن الدّعامة، في تلك العجلات ذات الحجم الكبير، كانت تُبنى من الحجر.

أمّا فيما يتعلّق بزينة العجلة، فقد كانت تتعقّد بقدر أحجامها: مربعات ومخمَّسات منقوشة على دائرة العجلة. وعند مزجهما، كانت تظهر أنجم من ثمانية أضلاع أو أكثر، تقطعها خطوط البرامق، التي كانت تعطي للعجلة منظراً جميلاً.

كانت هناك عجلات من الحجم الكبير في الأندلس، إذ أن الأحجام كانت، عامّةً، بحسب الانحدار الشّديد أو القليل للماء. ومن بين النّواعير العظيمة، يصف لنا الجغرافي الإدريسي (القرن الثّاني عشر) ناعورة بطُلَيطُلة، تقع على مقربة من جسر «القنطرة» Alcántara:

«كان لطُلَيطُلة قنطرة على نهر تاجَه من عجيب البنيان، وهي قوس واحدة

والنّهر يدخل تحت ذلك القوس بعنف وشدّة جري ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة»[11].

ولعلّ تلك التّسعين ذراعاً، المبالَغ فيها بعض الشّيء من قِبَل الجغرافي الأندلسي، تعادل 42 متراً من الارتفاع، الأمر الذي ليس بالسّيئ. ولا بدّ أن هذه العجلة كانت استباقاً «لآلة خوانيلو» *artificio de Juanelo* المعروفة، في القرن السّادس عشر.

ولم تكن أقل شهرة من الطّليطليّة، ناعورة «البولافيا» أو «أبو العافية» Albolafia بقُرطُبة، التي يصل قطرها إلى 15 متراً، والتي كانت تستخرج الماء من «الوادي الكبير»، بجانب السّد والطّواحين الآنفة الذّكر. وكان الماء الذي تستخرجه يُساق عبر قنطرة وقناة إلى غاية «برج الحمَّام» Torre del Baño، لقصر الخلفاء.

بعد أن أمر ببنائها الأمير المرابطي ابن تاشفين في عام 1136 م، حاكم قُرطُبة في تلك الحقبة، تم تفكيكها في عام 1485، لأنّ صريرها كان يزعج الملكة «إيسابيل الكاثوليكية»، خلال إقامتها بالقصر القُرطُبي.

واسم «البولافيا» Albolafia يحوي أطروحة بأكملها. ففي بداية الأمر، اعتُقِد لفترة معينة بأن الأمر يتعلّق بمصطلح عربي آخر للإشارة إلى النّواعير الكبيرة، لكن، على ما يبدو، فإن المصطلح يأتي من «أبو العافية»، وهو الاسم الشّخصي للمُعلِّم الذي أنشأ هذه الآلة.

كانت هناك عجلات ضخمة أيضاً بألمِريَّة؛ وبِكاماراسا Camarasa (لاردة Lérida)، على ضفتي نهر «سيغرِه» Segre، بقُطرٍ يصل 11 متراً؛ وفي «پالما دِل رِيُّو» Palma del Río (قُرطُبة)، بجانب نهر «الخينيل» El Genil (شنيل)...

الصّورة في الأعلى

«موراتا دي خالون» Morata de Jalón. ناعورة تعمل بالتّيار، ما زالت تستعمل.



الصّورة في الأسفل

«موراتا دي خالون» Morata de Jalón. جزء من القاعدة الحجرية للنّاعورة.



«ألكنتاريّا» Alcantarilla (مُرْسِيَة). ناعورة التّيار العظيمة، من نفس شاكلة ناعورة «البولافيا» أو «أبو العافية» Albolafia بقُرطُبة.

قليلة هي النّواعير التي وصلت إلى عصرنا هذا، وما زالت تتبع هذا العُرف: «لا رويدا» La Rueda، قرب «إسكارتون» Escartón (سَرَقُسطة) في نهر «الإيبرو»، وناعورة «موراتا دي خالون» Morata de Jalón؛ «لا نيورا» La Ñora (وهو الاسم المُرْسي للنّاعورة) في «ألكنتاريّا» Alcantarilla، بجانب «ساقية القِبلة» القديمة... وهناك أخرى أُعيد بناؤها حديثاً، مثل «لا رويدا» La Rueda لبلدة «لا نيورا» La Ñora (مُرْسِيَة)، التي أنشئت في عام 1936، والتي تُجلب مياهها من ساقية «الجوفيّة» Aljufia.

ولنعُد إلى الأندلس. فبفضل استعمال تلك النّواعير الضّخمة، كان الإسپان – المسلمون يستقطبون مياه الأنهار، بتصريفها بواسطة سواقٍ، لترتفع بذلك مساحة الأراضي المروية، بنسبة مهمّة.

وكانت النّواعير، كما رأينا، تستعمل أيضاً في سَوق الماء إلى المدن الأندلسية، وحتى إلى مُنْيات السّلاطين الكبيرة، التي سنتوقّف عندها لاحقاً.

فيما يتعلّق بالنّواعير، فقد بقي عدد كبير من النّصوص التّاريخية والأدبية، سواء في الفترة الإسلامية أو التي تليها، يشير إلى النّواعير على طول المشهد الأندلسي، وإلى خاصياتها الأساسية:

فالحِمْيَري يشير إلى أنّ الأراضي البستانية لمُرْسِيَة كانت تُسقى بمياه «شقورة» Segura، ليس فقط بواسطة ساقيتي «الجوفيّة» و«القِبلة»، «بل أيضاً بواسطة عجلات رافعة تسمّى دواليبَ وسَوَانٍ».

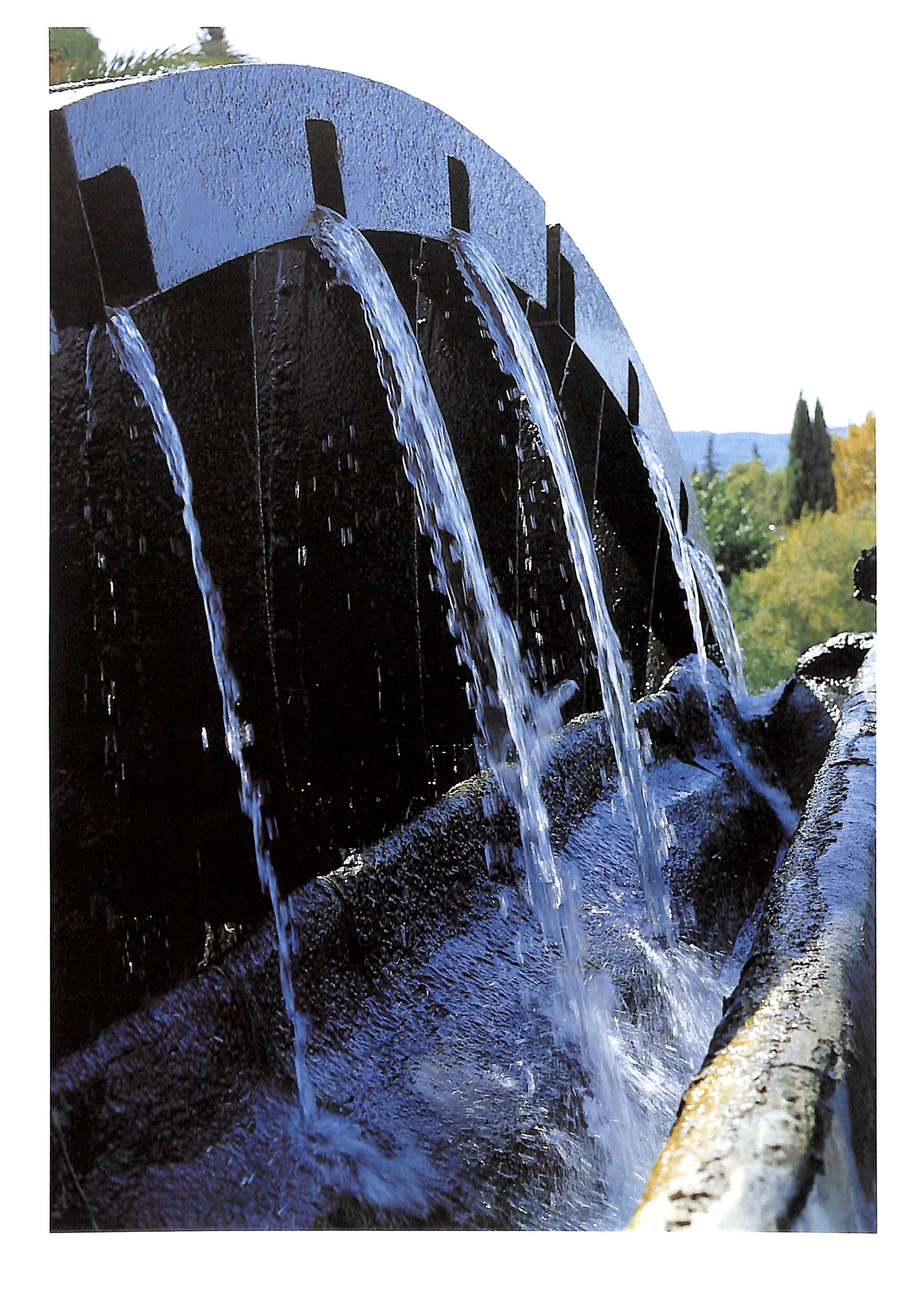
يتحدّث كتاب «تاريخ الرّازي المسلم» Crónica del Moro Razis، الذي ينقل إلى اللغة القشتالية الوُسْطَوية كتاب «أخبار ملوك الأندلس» لأحمد الرّازي، العائد إلى القرن العاشر، عن النّواعير (المسمّاة هنا بالسَّوَاني) التي كانت في «الوادي الكبير»، في قُرطُبة، بجانب القصر:

> «وجعل على النّهر سَوَانيَ، وهي أمام باب القصر، وهي كثيرة حتى أنهم لا يستطيعون رؤية النّهر»[12].

كان الصّرير الذي تُحدثه النّاعورة مصدر إزعاج بالنّسبة للبعض، وموضوع إلهام بالنّسبة للبعض الآخر: فقد عشق ابن تمّام الحجّام، وهو شاعر من القرن الحادي عشر، صوت دولاب (ناعورة)[13]:

يا حُسنَ ما نظروا من الدُّولابِ	والغيمُ يحسدُهُ لدى التّسكابِ
تشدُو فيُطربُنا تَردُّدُ شَجْوِها	فكأنّما أخذَتْهُ عن زِريابِ
وإذا الظّلام أتى تشوّق صوتها	فكأنّما داودُ في المحرابِ

«ألكنتاريّا» Alcantarilla (مُرْسِيَة). ناعورة. جزء من صبيب الماء في القناة.





جزء من ناعورة تعمل بالتّيار، من أصل أندلسي في المنطقة البَلَنْسِيّة.



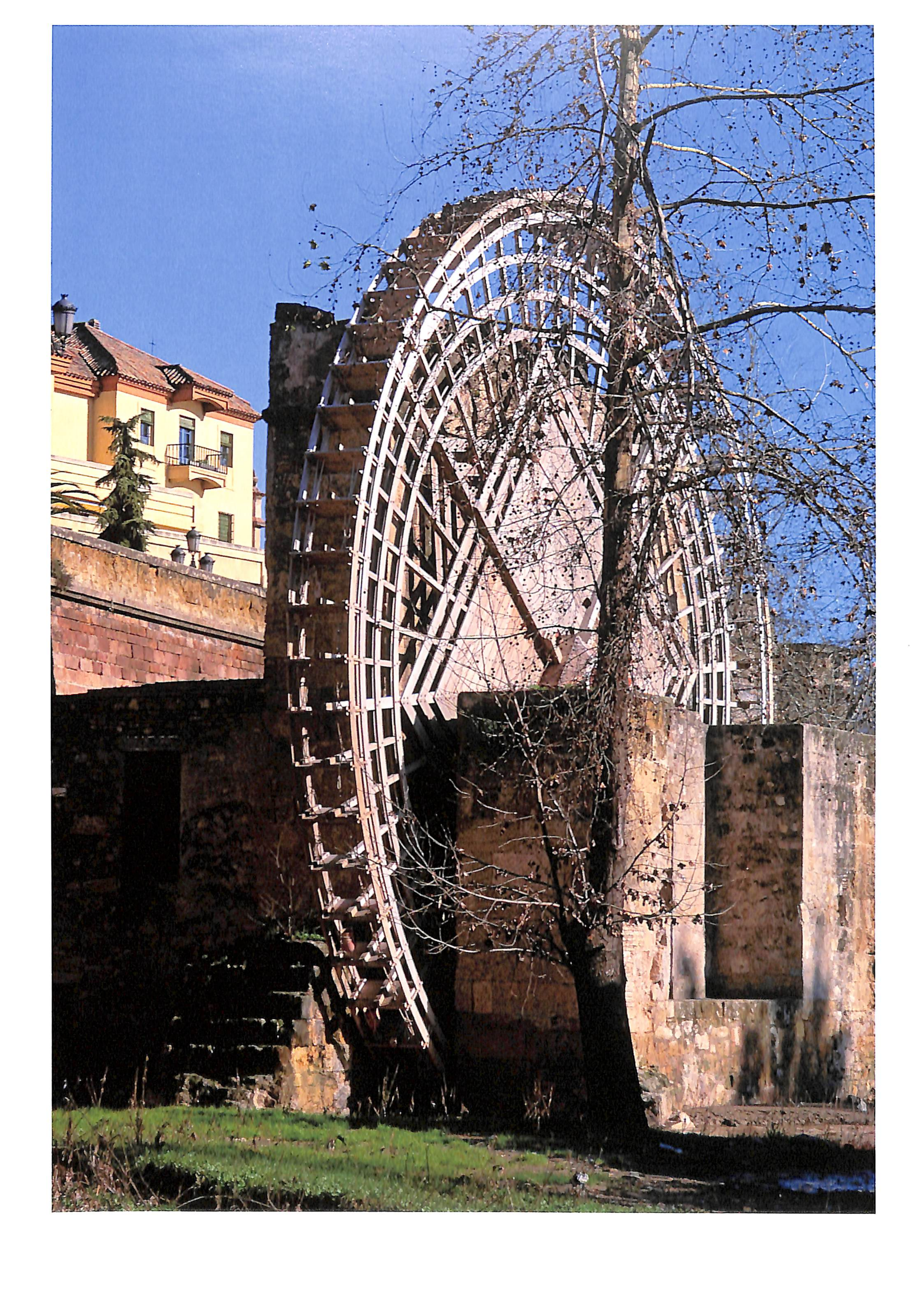
طُلَيطُلة. جسر «القنطرة» Alcántara. على مقربة منه، يحدّد الجغرافي الإدريسي موقع ناعورة التّيار العظيمة لنهر التّاج.

فشاعرنا المُرهف يقارن صرير النّاعورة بأغاني المُطرب البغدادي الشّهير زِرياب، الذي وصل إلى قُرطُبة في القرن التّاسع، والذي شكّل نقطة تحوّل في أنماط الموسيقى. كما أنه في فورة شعرية، يربط صوت النّاعورة بتراتيل الملك داود.

ولعلّه يمكننا أن نعتقد بأن هذا التّعظيم للنّاعورة كان خاصاً بالشّعراء العرب المجازيين، إلا أنّ هناك نماذجَ تستمرّ في هذا النّهج في فترات لاحقة بالأندلس. بيدرو مِدينا Pedro Medina، في مؤلفه «كتاب أمجاد إسپانيا» *Libro de las grandezas de España* (إشبيلية، 1548) يتحدّث عن النّواعير الموجودة في نهر «الخينيل» وهو يقطع إيثيخا Écija (إسْتِجَة):

> «في أماكن عديدة، يستخرجون الماء من النّهر (لريِّ مزارع القطن، والقصب والبساتين وأشياء أخرى) بعجلات شديدة الارتفاع، وُضِعت على أُسس قوية داخل الماء؛ في حين يجعلها تيار النّهر تدور، فيرتفع الماء بصناديقها الخشبية بكميات كبيرة... وفي الكثير من الأحيان، يُسمع الصّوت الذي تُحدثه هذه العجلات على بُعد مسافة كبيرة؛ خاصّة بالليل، حتى أنها تبدو وكأنها تُحدِث موسيقى مُتناغمة»[14].

كانت عجلات الماء في قشتالة الوُسْطَوية تسمّى أيضاً بـ*açudas* و *aceñas*. والعبارتان كلاهما تنحدران من العربية: «السَّدّ» و«السَّانِيَة»، على التّوالي. ومن خلال النّصوص المسيحية، نرى





طُلَيطُلة، «لا مانتشا». عجلة تعمل بقوة الجرّ الحيوانية، بدِلاء كانت تستخرج الماء من الآبار.

كيف يظهر المصطلحان باستمرار، لكن، مع الوقت، بدأ مصطلح «السَّوَاني» يشير إلى العجلات المتحرّكة، بواسطة قوة الجرِّ الحيواني، التي تستَخرج الماء من الآبار، وأيضاً إلى عجلات الأرحاء على التَّيّارات النّهرية.

وإلى جانب العجلات الهيدروليكية الهائلة، والتي كانت بمثابة مزوِّدات عظيمة بمياه الأنهار، كانت تكثر على طول الحقل الأندلسي السَّوَاني الصّغيرة، التي كانت تستخرج الماء من الآبار المحفورة، في حالة بُعد المسافة عن الأنهار.

كان ذلك أحد أُسسِ التّوسّع الزّراعي في الأندلس، الذي أتاح فرصة الاستغلال الزّراعي الصّغير، والمؤلَّفِ أساساً من مجموعات عائلية.

وحيث لم يكن يوجد ماء جارٍ على السّطح، كان يتم التّنقيب عن المياه الجوفية، ولهذا الغرض، كانت المصنّفات الفلاحية للمؤلِّفِين الأندلسيين، ابن العَوَّام وابن لُيون، تزخر بالتّعليمات الدّقيقة التي كانت تقدِّم لِصغار المُلاَّك «مفتاحاً» للعثور على الماء داخل أراضيهم. وبعد ذلك، كان يأتي

قُرطُبة. ناعورة «أبو العافية» Albolafia الشّهيرة، في «الوادي الكبير».



بقايا لناعورة جرّ في الحقل الطُّلَيطُلي.

إنشاء النّاعورة والعمل المُجِدّ.

بالنسبة لِكارو باروخا Caro Baroja، فإن نواعير الجرّ (الحيواني)، المسماة أيضاً بـ«نواعير الدّم» de sangre، دخلت على أيدي الشّاميين في القرن الثّامن، أي بُعَيد وصولهم إلى شبه الجزيرة.

بوجه عام، وبشكل جدّ مبسَّط، كانت ناعورة الجرّ عبارة عن عجلة خشبية كبيرة، عمودية، بدِلاءٍ أو قواديس تستخرج الماء من البئر. وهذه العجلة بدورها، كانت تُحرَّك بواسطة عجلات



حقل مدريدي، عجلة جر.

مسنَّنة، ومتَّصلة، تدفعها رافعة تجرُّها خيول، وهي متَّصلة بالمحور الرّئيسي للآلة.

ما زالت بعض نواعير الجرّ القيِّمة هذه محفوظة، كذخائر حقيقية في الحقول الإسپانية؛ كقطعة لمتحف أثري، أكثر منها كآلة، إلا أنّ المرء، لضياعها، يشعر ببعض الحنين.

وعلى فقدانها، تشهد أسماء الأماكن الوفيرة التي تشير إليها، وتذكِّرنا بأنه، في أزمنة أخرى، كانت هناك ناعورة ما.



«لا ألپوخارّا» *La Alpujarra*. «كاپيليرا» *Capileira*. ينبوع عمومي، وكثيراً ما كان
هذا الأخير يعطي اسمه للمكان الذي يقع فيه.

الفصل الثّامن

مصطلحات حول علم المياه

عبر جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية

بوسعنا أن نتوقع الأهمّيّة التي كانت لفن استعمال الماء في الأندلس من خلال الكمّيّة الكبيرة للمصطلحات من أصل عربي، المرتبطة باستعمال الماء أو المتعلّقة بها بشكل ما، والتي مع تطور صوتيٍّ كبير أو خفيف، بقيت في لغتنا القشتالية.

على امتداد جغرافية شبه جزيرتنا، نستطيع أيضاً أن نتعقّب:

1. الأماكن التي وُجِدت فيها آلة ما مرتبطة بالاستعمال الهيدروليكي.
2. في أيّ مكان كانت توجد ممارسات تقليدية لتوزيع الماء والرّي في الأزمنة الأندلسية القديمة، وحتى لاحقاً.
3. الأماكن التي كانت توجد فيها منابع وتيّارات للماء، وللأسف، لم يعد لوجودها أثر اليوم.
4. المصطلح العربي، أو في جميع الأحوال، الإسپاني – العربي، للتّيارات النّهرية.

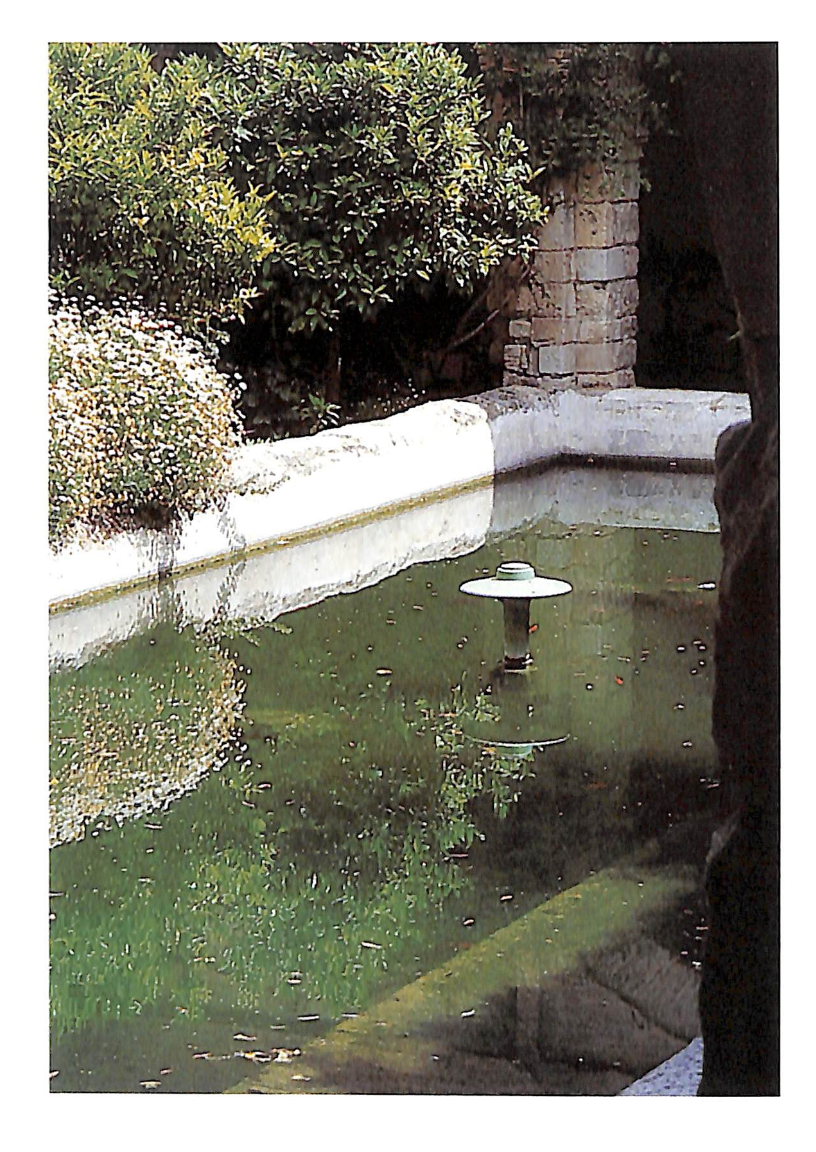
يمضي الزّمان والنّاس، لكن الأعراف، والتّقاليد والأماكن ظلت – على الأقل إلى اليوم – تاركة لنا، كما لو أن الشّأن يتعلّق بأداة ناجعة للبحث الأثري، مجموعة من أسماء الأماكن، بمثابة مؤشّرات للأنشطة الهيدرو – زراعية التي كان يزاولها، في معظم أرجاء شبه الجزيرة الإيبيرية، أجدادنا الأندلسيون، ثم الموريسكيون لاحقاً.

كان الإسپان – المسلمون، بأسلوب عمليٍّ للغاية، وإن كان يمتزج بجرعات كبيرة من التّقليد، يضعون أسماء للأماكن بحسب مزيّة أو ظرف ما يبرُز فيها، لتمييزها عن باقي المواقع.

هذه الممارسة بقيت مألوفة على امتداد تاريخنا، وبذلك ما زلنا نستطيع أن نجد، إلى الآن، في خرائط القرى الإسپانية أسماء مثل «شارع الماء» calle del Agua، «ساحة النّافورة» plaza de la Fuente، «زقاق السّاقية» callejón de la Acequia، «طريق النّهر» camino del Río، إلخ.

وإذا ما أضيف إلى ذلك بقاء الجذر الصّوتي للكلمة العربية، سنكون بذلك أمام بقيّة أثرية إلى حدٍّ كبير، بوسعنا أن نُعرِّفها بالعبارة الشّهيرة «من زمن المسلمين»، والتي يطلق عليها اسم «الاصطلاح العربي» أو arabismo. لكن، في معظم الحالات، فإن المستعمِل الإسپاني للغة، عندما يستخدم هذه الأسماء، ينطق كلمة يجهل صوتها، وإن كان يفهم معناها، وبطبيعة الحال،





الصّورة على اليمين: «خايين» Jaén. بِركة Alberca إسپانية- عربية (من العربية «البِركة»).

الصّورة على اليسار: «بلانكا» Blanca (مُرْسِيَة). ساقية Acequia من العربية «ساقية».

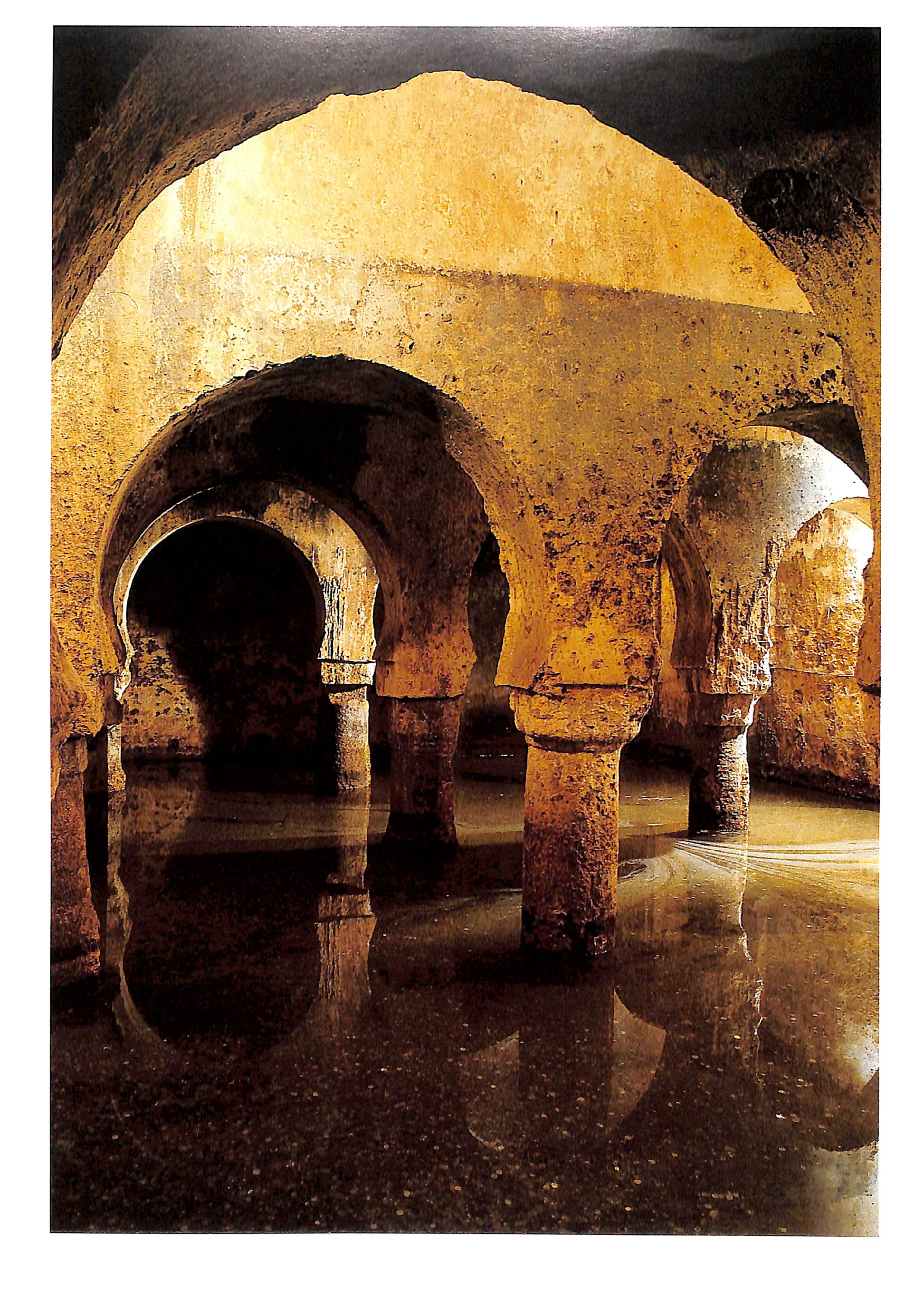
فهو يجهل أصلها.

لقد اهتم باحثون كبار في فقه اللغة العربية مثل دوزي Dozy وإغيلاث Eguílaz وإنغلمان Engelmann بدراسة هذا الحقل المثير للمصطلحات ذات الأصل العربي. وقام بذلك دارسون آخرون من زاوية الرّي، مثل نوڤونِن Neuvonen، أو من الزّاوية اللغوية، التّاريخية والاجتماعية - الثّقافية.

مسرد صغير لمصطلحات من أصل عربي مرتبطة بعلم المياه

من ضمن المصطلحات ذوات الأصل العربي، التي تحوَّلت صوتياً، إلى حدّ كبير أو قليل، نظراً لتطوُّرها المعجمي، والتي توجد في لغتنا القشتالية - بحوالي 30٪، كثيرةٌ هي التي ترتبط بالماء.

«كاثِريس» Cáceres. Aljibe أو جُب عربي (الجِباب).



في المصطلحات المتعلّقة بالرّي نشهد، بالإضافة إلى ذلك، تنوعاً إقليمياً، إذ يُستعمَل نفس المصطلح بمعنى مختلف، من منطقة إلى أخرى. فعلى سبيل المثال، كلمة sinia (من العربية «السَّانِيَة») تعني ناعورة متحرّكة بالقوة البشرية أو الحيوانية، بينما في بَلَنْسِية وكتالونيا أصبحت، مع الوقت، تشير إلى أيّة عجلة هيدروليكية تتحرّك بواسطة التّيّار، في حين حافظت في مُرْسِيَة على معناها الأصلي، حيث كانت تُستعمَل تسمية «ناعورة» للعجلات الهيدروليكية التي تعمل بالتّيّار.

ليس هدفنا إنجاز دراسة فيلولوجية مفصّلة، بل مجرّد دراسة تقريرية، واجتماعية إلى حدّ ما. وبذلك، إذا ما وضعنا هذه المصطلحات المرتبطة بالماء والرّيّ في قائمة حسب التّسلسل الأبجدي، ووضعناه مقابل المصطلح العربي، سنجد:

Aceña (السَّانِيَة):	طاحونة داخل النّهر. (آلة لاستخراج الماء)
Acequia (السّاقية):	حفرة أو قناة تقاد من خلالها مياه الرّي
Ador (الدّور):	في «غانديّا» (بَلَنْسِية)، دور الماء
Albala (البراءة):	في «أليكانتِه»، قسيمة مزاد مياه الرّي
Albañal (البلّاعة):	دوامة
Albellón (البالوعة):	مجرى، مصرف للمياه
Alberca (البِركة):	حوض للماء
Albufera (البحيرة):	بُحيرة
Albuhera (البحيرة):	خزّان اصطناعي للماء
Alcantarilla (من القنطرة):	قناة في الطّريق. وكذلك، قناة جوفية لجمع وتصريف مياه المطر أو الصّرف
Alcarraza (الكرّاز):	جرّة من الخزف النّفّاذ الذي يتيح رشح الماء، وتبريد ذلك الذي يوجد بالدّاخل
Alcubilla (الكوبة):	خزّان للماء
Alfaguara (الفوّارة):	نبع غزير
Alfaida (الفائضة):	فيضان النّهر لتدفّق مياه المدّ
Alfaque (الفك) :	رصيف رملي عند مصبّ النّهر
Alfardón (الفرضة):	مساهمة مفروضة من أجل استغلال المياه
Aljibe (الجباب):	بئر أو خزّان

Aljofaina (الجُفينة):	إناء للماء
Almahacén (المخزن):	في «لوركا» (مُرْسِيَة)، ماء الرّي الذي لا يوزَّع، للاستعمال الجماعي
Almarraja / almarraza (المِرَشَّة):	آنية من الزّجاج بها ثقوب، تستعمل للرّش أو للرّي
Almatriche (المَطريج):	قناة للسّقي
Almenara (المنهر):	شقّ يُساق من خلاله الماء الفائض من السّواقي إلى النّهر
Almijara (المأجلة):	خزّان
Alquézar (القصارة):	قَطع ينجز في مياه النّهر لاستعمالها في الرّي
Arcaduz (القادوس):	دلو أو إناء للنّاعورة
Atabe (الثّقب):	فتحة تُترك في بعض القنوات لإخراج الهواء المنحبس فيها
Atanor (التّنّور):	نبع، قناة لسَوق الماء. (وكذلك فرن محفور في الأرض)
Azarbe (السَّرب):	قناة للتّصريف تجمع المياه الميتة من البوابات
Azuda / azud (السَّدّ):	ناعورة، وكذلك سدّ التّحويل
Azumbre (الثُّمن):	في «إلش» و«نوبيلدا» (أليكانتِه)، مقياس للماء
Canal (القناة):	قناة (جوفيّة) للماء
Cenia (السّانِيَة):	ناعورة تتحرّك بالتّيّار أو بالدّواب، حسب المناطق
Dula (الدُّولة):	في «إلش» (أليكانتِه) و«غانديّا» (بَلَنْسِية)، دور الماء
Jarique (الشّريك):	في «لوركا» (مُرْسِيَة)، اشتراك عدّة حصص للماء الذي اشتري في مزاد، للحصول على دفق أكبر للرّي
Jarro (جرّة):	في «لوركا» و«خوميّا» (مُرْسِيَة)، مقياس للماء يعادل نصف ساعة من التّزوُّد (بالماء)
Merancho (مرج):	في مُرْسِيَة، ساقية للصّرف لتفريغ المياه
Noria (النّاعورة):	عجلة رافعة للماء
Rafa («من «رَفع):	في مُرْسِيَة، لوح موضوع وسط السّاقية لوقف الدّفق وتحويل الماء إلى قناة أخرى، أو ببساطة، لرفع مستوى السّاقية
Rambla (الرَّملة):	أرض رملية تُفرغ فيها مياه النّهر الفائضة أو مياه الأمطار الغزيرة

Tahúlla (تحويلة):	في مُرْسِيَة و«أرويلة» تشير إلى مقياس للأرض. في «لوركا» هي أيضاً مقياس للماء، يعادل ساعة من التّزوّد (بالصّبيب.
Tanda (من «تنظيم»، حسب كوروميناس) :	دور للرّي
Zafariche (الصّهريج):	خزّان أو بركة مياه

وما زال في وسعنا أن نتعقب أثر المزيد من المصطلحات.

أسماء الأماكن العربية المتنوّعة في الجغرافية الإسپانية، كبصمة اجتماعية – ثقافية

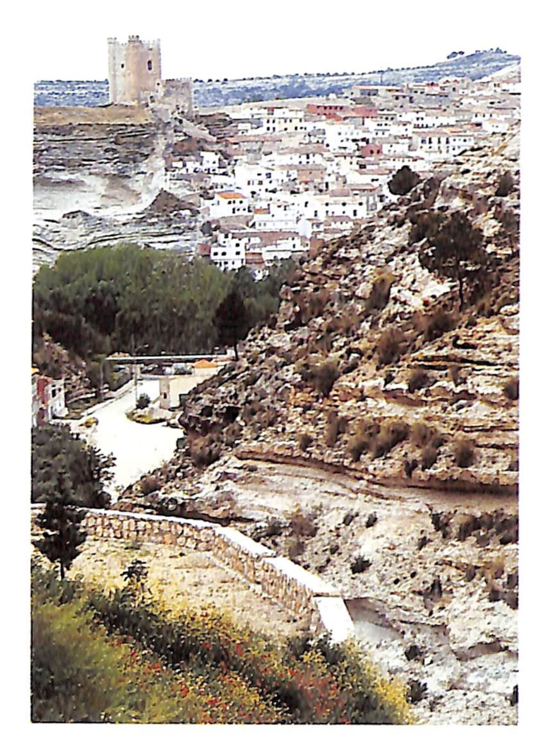
ثمّة مصدر آخر لتعقب الآثار الهيدروليكية للأندلس هو أسماء الأماكن. فبفضلها نعرف، أوّلاً، أن العرب كانوا قد استقرّوا هناك، أو الإسپان – المسلمون، على أيِّ حال. لكن، بوجه الخصوص، نعرف أنّ المكان الذي ندرس اسمه كان موجوداً منذ تلك العصور القديمة، وأنه قد ورد في الخرائط الموجزة للجغرافيين الأندلسيين أو في نصوص المؤرِّخين الإخباريين العرب، الأمر الذي لا يفتأ يمثِّل بعض الفخر الإقليمي بالنّسبة لساكنته.

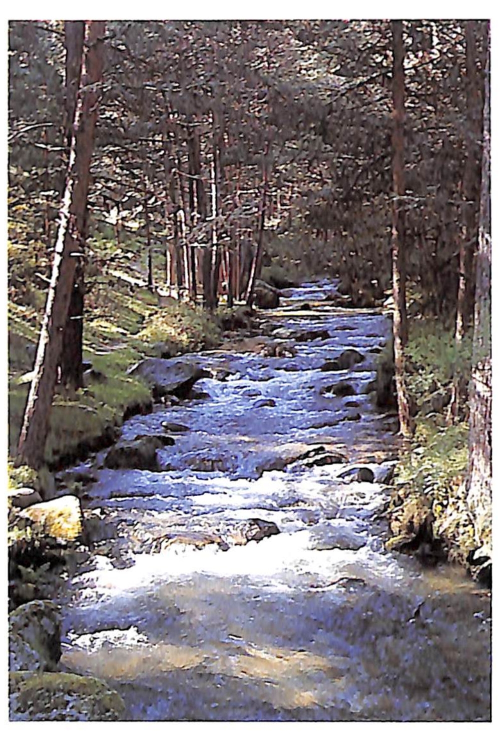
أكبر شخصية في مجال دراسة أسماء الأماكن العربية في شبه جزيرتنا العربية – كما في مواضيع كثيرة أخرى عن الاستعراب – كانت، بلا شك، شخصية السّنيور ميغيل أسين پالاثيوس Miguel Asín Palacios1، بمؤلفاته المهمّة حول أسماء الأماكن العربية بإسپانيا. وقد تلت أعماله أعمال أخرى قيّمة مثل كتاب ابن أخته خايِمِه أوليڤير أسين Jaime Oliver Asín، حول اسم المكان الذي نشأ عنه اسم «مدريد»، وعلاقته بالماء، والذي سبق أن أشرنا إليه. كما برز عمل إلياس تيريس Elías Terés حول أسماء الأماكن النّهرية.

تستجيب أسماء الأماكن التي سنقوم بتحليلها للطّابع العملي – الذي ذكرناه سابقاً – الذي كان يميز الإسپان– العرب الأندلسيين، عند وضعهم أسماء لِقُراهم أو أماكنهم أو تضاريسهم الجغرافية. وبين تلك الأسماء، نستطيع أن نرى تلك الأنشطة أو الاحتياجات أو الحالات الأكثر اعتياديةً بين ساكنة الأندلس.

هناك سيطرة واضحة للأنشطة الزّراعية والهيدروليكية في سائر شبه الجزيرة. على سبيل المثال Almunia (المُنْية)، Almorox (المرج)، Atarfa (الطَّرفة)، Albires (البئر)، إلخ.

في مناسبات أخرى، يُذكِّرنا اسم المكان بالموقع الذي استقرّت فيه عائلة أندلسية عريقة، تركت اسم مؤسّسها، أو اسم قبيلته لتلك البلدة: وهو الشّأن بالنّسبة ل «مكينيثا» Mequinenza





الصّورة على اليمين

«سيغوبيا» Segovia. «نهر المسلمين» Río Moros.

الصّورة على اليسار

«قلعة خوكر» Alcalá de Júcar (ألباثيتِه). اسم مكان يشير إلى وجود قلعة عربية.

(سَرَقُسطة)، التي تدين باسمها لقبيلة «مكناسة» البربرية، التي يعود أصلها إلى الأطلس الكبير (جنوبي المغرب)، والتي استقرّت هناك في حوالي القرن الثّامن.

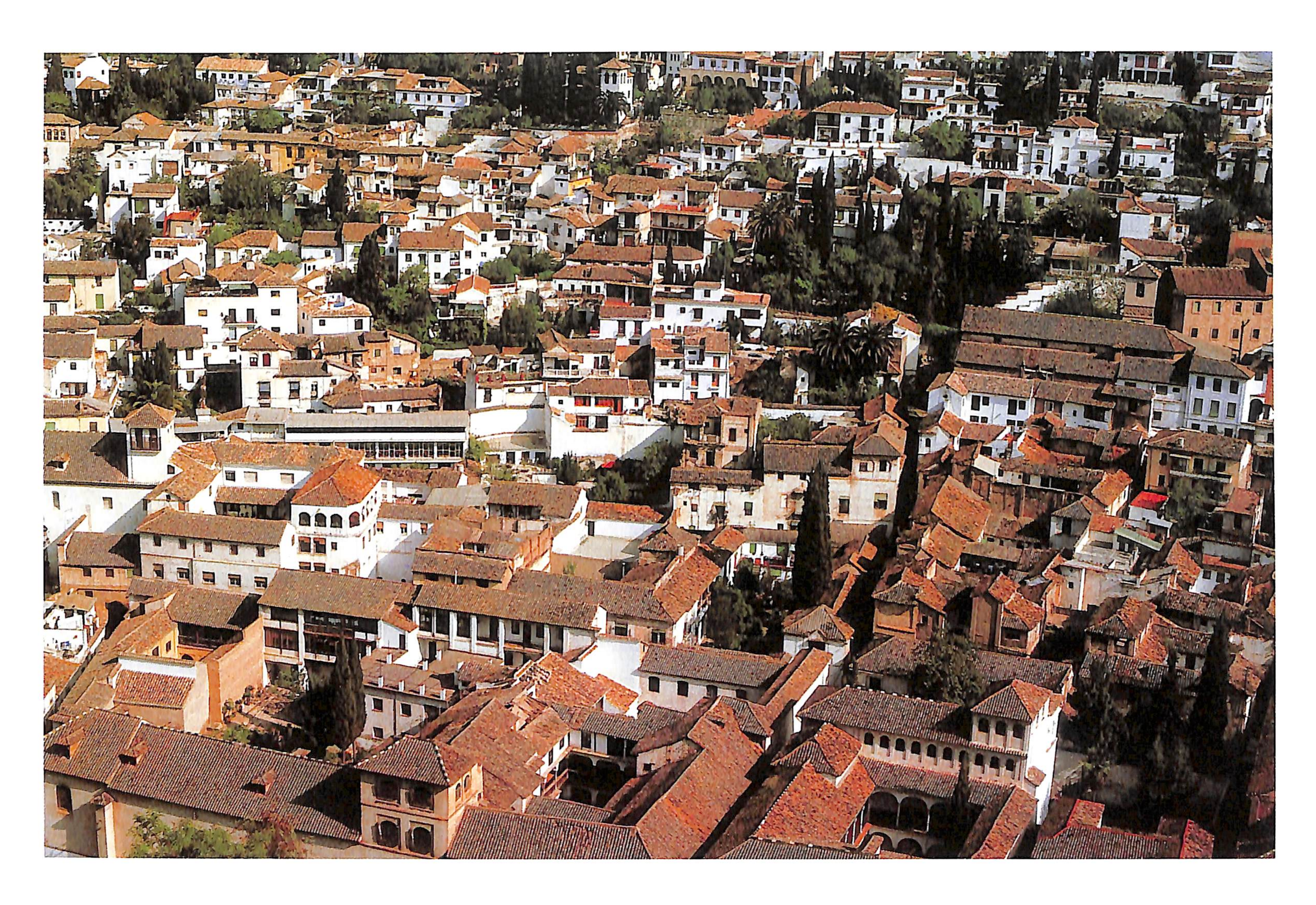
وكذلك اسم Albuixeh (بَلَنْسِية)، من «أبو إسحاق»، وهو لا شك الشّيخ المؤسِّس للسّلالة التي أعطت اسمها للبلدة. و Albarracín، وهي مملكة طوائف لصغار سلاطين سلالة «بني رَزين» البربرية: عاصمة بني رَزين.

أحياناً أخرى، يشير اسم المكان إلى المدينة في حدّ ذاتها، كما هو الشّأن بالنّسبة ل Medina (مدينة)، بتركيبات مثل «مديناصيدونيا» Medinasidonia، «مديناثيلي» Medinaceli (مدينة سالم)، «مدينة ريوسيكو» Medina de Rioseco، إلخ.

كما تشير إلى بلدات صغيرة: *Albalate* (بلدة)، Alcora (الكُورة)، أو إلى مناطق من المدينة مثل *Arrabal* (الرَّبَض)، *Sueca* (سُوَيْقَة)، Ador (الدُّور)، إلخ.

وفي مناسبات عديدة، تشير إلى تضاريس جغرافية، إلى جانب أحداث تاريخية: Gibraltar (من «جبل» و«طارق»، وهو البربري المشهور الذي عبر المضيق لينزل في تلك الصّخرة، مع الجيوش العربية الأولى التي غزت شبه جزيرتنا في القرن الثّامن): جبل طارق.

بينما في مناسبات أخرى، لا تعود الإشارة إلّا على التّضريس الجغرافي الذي يقع فيه المكان: Culla (قُلَّة / قمة)، Alcudia (كُدية)، Azagra (صخرة)، Almeida (هضبة)، Gándara (أرض مرتفعة وصلبة)، Zafara (صحراء)، Moguer (مُغر)، إلخ.



غرناطة، حي «البيازين» *Albaicín*. اسم مكان من أصل عربي.

كما بقيت آثار الضّيافة تجاه العابرين للسّبُل الأندلسية. وهي تلك الأسماء، بحسب أسين پالاثيوس، التي تبدأ بـ *mas* أو *maz*: «مسالفسار» *Masalfasar*، «مثالاثيتي» *Mazalacete*، «مثارالبوثاكي» *Mazarlbuzaque*، «مثارّاثين» *Mazarracín*، «مثارامبروث» *Mazaramroz* (منزل عمروس)... والتي تشير إلى فنادق أو أنزال على الطّريق، بدأت تنشأ من حولها البلدات.

ويدلّ العديد من الأماكن على المنزلة الإدارية أو العسكرية التي كانت لها بالأندلس، بل بقي حتى ذكر الحاكم الإقليمي لها في تلك الفترة. وذلك هو شأن *Calatayud* (من «قلعة» و«أيّوب» -وهو أيّوب بن حبيب اللّخمي، مؤسّس ووالي هذا المكان: قلعة أو حصن أيّوب.

كما تشير إلى معاقل عسكرية أو استراتيجية مثل «قلعة» *Alcalá*، «القَصَبة» *Alcazaba*، «بُرج» Borge أو Burch، «المحصن» *Almazán*، «المنارة» Almenares (برج الحراسة)، ومواقع دينية عسكرية مثل Rábita أو Rábida (رابطة ل «نُسَّاك» محاربين، مثل المرابطين، وهم أيضاً مؤسّسو الرّباط (المغرب).

أمّا الأسماء التي تعود إلى الحِرَف، فتقتصر بالعادة على الأحياء، الواقعة اليوم في مدن كبيرة نسبياً، مثل *Albaicín*، في غرناطة (رَبَض البيازين)، أو Alfajarín (رَبَض الفخّارين)، كذلك بغرناطة، إلخ.

أسماء الأماكن المرتبطة بالماء

عددها لا يُحصى في شبه جزيرتنا. ولكي نقوم بتتبّع أثر الاستغلال الهيدروليكي، سنقوم بتصنيفها بحسب الأنواع والأقاليم، متَّبِعين في الجزء الأكبر منها أسماء الأماكن التي أشار إليها أسين پالاثيوس1:

أ. **بحسب الأنواع:**

هناك كثرة غامرة لتلك التي تتعلّق بالعجلات الهيدروليكية وتخزين المياه، ممّا يؤكد الاهتمام الكبير الذي كان لدى الأندلسيين بالماء.

ب. بحسب الأقاليم:

في «ألباثيته» Albacete:

القادوس	Alcadoz:
الحَمَّة	Alhama:
الجبّ	Aljibe:
النّواعير	Anorias:
عين	Ayna:

في «ألمِريَّة» Almería:

البحيرة	Albojaira:
الخابية	Alhabia:
الحَمَّة	Alhama:
تصغير الحَمَّة	Alhamilla:
النّاعورة	Anoria:
تصغير النّاعورة	Norela:
ناعورة	Noria (اسم قرية):

في «أليكانتِه» Alicante:

أرض سقوية بمنحدر التّل (بالمغربية)	Albatera:
البِركة	Alberca:
البُحيرة	Albufera:
تصغير البُحيرة	Albufereta:
تصغير البِركة	Albureca:
السَّدّ	Azut (اسم ساقية):

في «آبيلا» Ávila:

البِركة	Alberca:

في «باداخوث» Badajoz (بطليوس):

البُحيرة	Albuela:
الجبّ	Aljibe:

في «كاثيريس» Cáceres:

البُحيرة	Albuela:
كذلك البُحيرة	Albuhera:
القنطرة	Alcántara:
القُنَيطرة	Alconétar:
الغدور	Algodor:
الجبّ	Aljibe:
وادي الذّئب	Guadalupe:
ناعورة	Nora:

في «قادس» Cádiz:

Aljibe:	الجبّ أو الخزّان

في «ثيوداد ريال» Ciudad Real (المدينة الملكيّة):

Albuhera:	البُحيرة
Alcubilla:	(تصغير) خزّان لماء الرّي
Aljibe:	الخزّان

في «قُرطُبة» Córdoba:

Añora:	النّاعورة
Guadalbarbo:	وادي البربري
Guadalcázar:	وادي القصر
Jauja:	خَوخَة أو بوّابة النّهر، وفقاً لِدوزي Dozy

في «كوينكا» Cuenca:

Alberca:	البركَة
Alcantarilla:	القُنيطِرة
Alcadozo:	القادوس
Huete:	الوادي

في «غرناطة»:

Alhama:	الحَمَّة
Aljibe:	الخزّان
Jete:	شاطئ / ضفّة
Noreta (اسم قرية):	ناعورة
Ñora:	ناعورة

في «غوادالاخارا» Guadalajara:

Alboreca:	البُرَيكة
Almadrones:	في هذه الحالة، عبارة مُستعربة تعني «السّاقية الأم»
Guadalajara:	وادي الحجارة

في «أويلبة» Huelva (ولبة):

Gibraleón:	جبل العيون

في «أويسكة» Huesca (وَشقة):

Río de Alcanadre:	وادي القناطر
Torres de Alcanadres:	أبراج القناطر

في «خايين» Jaén (جيان):

Guadiel:	تصغير بالقشتالية القديمة لوادي، نهر
Guarromán:	وادي الرُّمّان
Honsares (اسم لمزرعة):	عين / عُنصر

في «ليون» León:

البئر	Albires:
ضفاف النّهر	Algadefe:
ناعورة	Nora:

في «لاردة» Lérida:

ناعورة	Naura:

في «لوغرونيو» Logroño:

القناطر	Alcanadre:
جامع العيون	Gimileó:

في «مدريد» Madrid (مجريط):

بوجه عام، تشير إلى القنوات الجوفية للماء أو إلى منابع أو عيون سطحية:

فجّ البئر	Ajalvir:
البئر	Albir:
كوبة أو خزّان الماء	Alcubillas:
ضفّة النّهر	Algete:
جدول البلاّعة	Arroyo Albalá:
أقنية جوفيّة	Canillas:
تصغير للكلمة السّابقة	Canillejas:
وادي الرّملة	Guadarrama:
مجريط أو مجرى الماء في الهواء الطّلق؛ وكذلك، قنوات جوفية (بحسب خ. أوليڤير أسين)	Madrid:

في «مالقة» Málaga:

تصغير قنطرة	Alcantarilla:

في «ميورقة» Mallorca:

القناة	Alcaná:
البُحيرة	Albufera:
حوض صغير	Alfabia (اسم جبل):
الشّطّ	Axat (اسم حقل):

في مُرْسِيَة:

البِركة	Alberca:
البُضَيض، الماء القليل	Albudeite:
البُحيرة	Albufera:
تصغير قنطرة (جسر)	Alcantarilla:
الحَمَّة	Alhama:
النّاعورة	La Ñora:

في «أوبييدو» Oviedo:

السَّانِيَة	Haceña:

ناعورة	Nora:

في «سلامانكا» Salamanca (شَلَمَنْقَة):

البركة	Alberca:
السّانِيَة	Haceña:
تصغير السّانِيَة	Haceñuela:

في «إشبيلية» Sevilla:

البئر الممتلئة	Algámitas:
وادي القناة	Guadalcanal:

في «صوريا» Soria:

خزّان صغير لماء الرّي	Alcubilla:
حَمَّة الماء السّاخن	Alhama

في «طَرّاكونة» Tarragona:

السّدّ	Azud:

في «ترويل» Teruel:

النّهر الأحمر	Río Alfambra:

في «طُلَيطُلة» Toledo:

تصغير قنطرة	Alcantarilla:
الغُدور	Algódor:
الجبّ أو الخزّان	Aljibe:
قناة للرّيّ)اسم ساحة)	Almaguer (corral de):
مرج العيون	Aloyón (مزرعة):
السّانِيَة	Azaña:
وادي الأرزة (اسم لمرج)	Guadalerza:

في «بَلَنْسِية» Valencia:

البحيرة	Albufera:
عَدْوَة النّهر	Aledua:
معصرة الزّيت	Almásera (molino):
برج السّدّ	Burjassot:
وادي السّواقي	Guadasequies:
الوادي الأسود	Guadasuar:

في «ثامورا» Zamora:

(تصغير) خزّان لماء الرّي	Alcubilla:

في «سَرَقُسطة» Zaragoza:

حَمَّة المياه السّاخنة	Alhama:
الشّراب الوفير	Jaraba:

ضمن هذه القائمة الإقليمية، لاحظنا وفرة كبيرة لأسماء الأماكن المرتبطة بالماء، وكذلك للأسماء ذات الأصل العربي المتعلّقة بالرّي، في تلك المناطق التي ظلّ فيها الموريسكيون (أي الإسپان ذوو الأصول المسلمة، بعد انتهاء «الاسترداد» من قِبَل «الملكين الكاثوليكيين») لوقت أطول.

هؤلاء الموريسكيون، في بدايات القرن السّادس عشر، كانوا تقريباً قد فقدوا لغتهم العربية، ولكن كان ما زال يُسمَح لهم بالاحتفاظ بعاداتهم وحِرَفهم، لكن ليس بالاحتفاظ بدينهم. وقد اشتغلوا، بوجه خاص، في الزّراعة السّقوية، التي برعوا فيها، واستقرُّوا بأمرٍ ملكي، بعد إجلائهم من غرناطة، بشكل أساسي في مناطق من مُرْسِيَة وبَلَنْسِية وأراغون، حيث تم استقبالهم بشكل جيد (ولذلك بقوا هناك، وبقي العديد من الأسماء ذوات الأصل العربي والمتعلّقة بالرّي في تلك المناطق).

كما بقيت أسماء الأماكن ذوات الأصل العربي في تلك المناطق الأكثر انغلاقاً اجتماعياً على ذاتها، كما هو الشّأن في منطقة الوسط وإكستريمادورا.

بالإضافة إلى أسماء الأماكن التي دُرِست لغوياً، تتبدّى لنا باستمرار، في رحلاتنا عبر شبه الجزيرة، أسماءٌ كثيرة تحمل بعض الشّبه بالأصوات العربية، مثل «أطاثار» El Atazar (مدريد)، «أئينسا» Aínsa (أويسكة)، إلخ. لكن، قبل أن نُطلق العنان للخيال، حول معقل أو آخر من أصل عربي، لنتصرّف دائماً بالحذر اللغوي المطلوب، الذي يقابل الخيال المتدفّق.

أسماء الأماكن المتعلّقة بالأنهار والأعراف الهيدروليكية

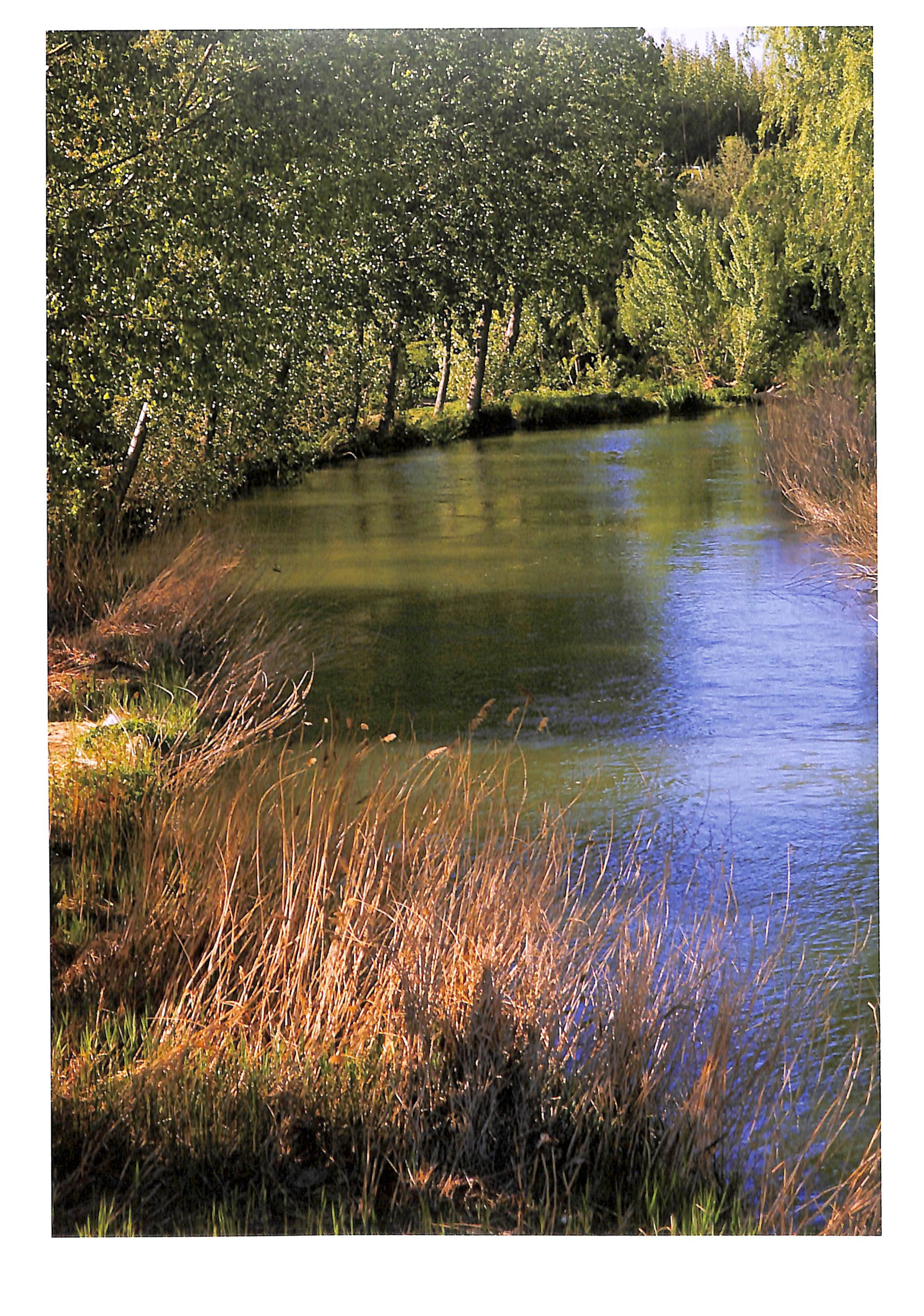
تشكِّل الأنهار كذلك برهاناً جيداً على مرور الحضارة العربية الإسلامية عبر شبه جزيرتنا. ولعلّ هناك حالاتٍ للعديد من أسماء الأنهار التي ليست من أصل عربي، بالمعنى الصّحيح، وإنما من أصل لاتيني أو ما قبله، قام بقولبتها بالعربية الحُكّام الجدد لشبه الجزيرة، لتصل إلينا بتلك القولبة والتّطورات الصّوتية.

في النّصف الجنوبي للهضبة إلى غاية المتوسّط، سواءٌ من جهة الشّرق أو الجنوب، تكثر الأسماء الإسپانية – العربية للأنهار الإيبيرية. مع استثناء طريف: يحدث ثمّة إطناب، إذ نقول «نهر»، ثم نكرّر مرّة أخرى نفس المعنى باللغة العربية، «وادي»، إلى جانب النّعت الذي يُعطى له. وبذلك نقول «نهر الوادي الكبير» Río Guadalquivir.

لكن، إذا ما تقدَّمنا، سنجد، تبعاً لأسين پالاثيوس:

وادي عيسى	Guadaisa (نهر صغير في «مالقة»)
وادي الوحل	Guadajoz (قُرطُبة)
الوادي الأبيض	Guadalaviar (ترويل)
وادي البيضاء (نبات بأوراق بيضاء)	Guadalbaida (جدول بقُرطُبة)

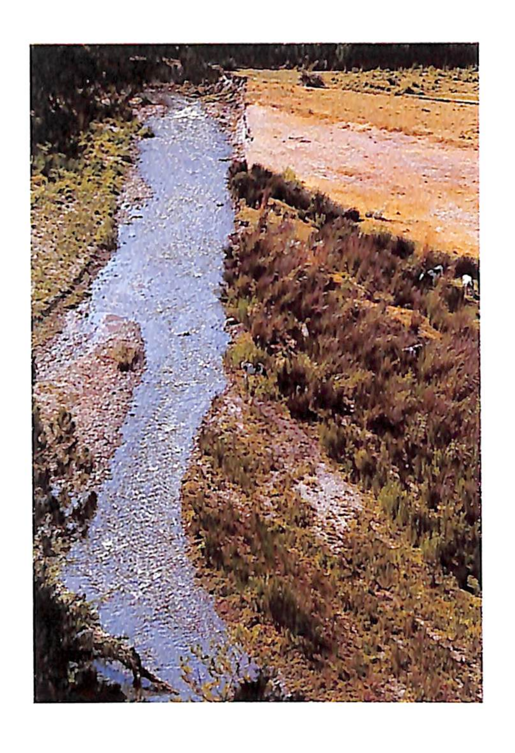
في اللّغة العربية، يسمّى النّهر «واد»، ولذلك فجزء كبير من أسماء الأنهار الإسپانية يبدأ بـ«غوادال» Guadal



وادي القُطْن	Guadalcotón (خايين)
وادي العين	Guadalén (ثيوداد ريال)
وادي الفجّ (وفقاً ل إ. تيريس)	Guadalfeo (غرناطة)
وادي الحراسة (وفقاً لكوبارُّوبياس)	Guadalhorce (مالقة)
الوادي الأحمر	Guadalimar (قُرطُبة)
وادي المحصن	Guadalmazán (جدول بقُرطُبة)
وادي المدينة	Guadalmedina (مالقة)
وادي المَيس	Guadalmez (ثيوداد ريال، باداخوث وقُرطُبة)
كلمة مركّبة من «وادي»، أداة التّعريف العربية «ال»، والكلمة القشتالية *moral* (التوت)	Guadalmoral (قُرطُبة)
وادي الذّئب (ووفقاً ل إ. تيريس، وادي اللّوح)	Guadalope (ترويل)
الوادي الكبير	Guadalquivir (منطقة أندلُسيًّا)
وادي النّساء	Guadamesí (قادس)
وادي المَيس	Guadamez (باداخوث)
وادي الرّملة	Guadarrama (مدريد)
وادي الرُّمّان	Guadarromán (جدول بقُرطُبة)
وادي الطِّين	Guadatín (جدول بقُرطُبة)
وادي آنا (مكان صغير قرب «قلعة رَبَاح»)	Guadiana (ثيوداد ريال، إكستريمادورا، البُرتُغال وأويلبة)
وادي الذّئبة	Guadiloba (كاثريس)
وادي الدّكْن	Guajarax (طُلَيطُلة)
وادي سلامة	Guatizalema (أويسكة)

وكما يشير إ. تيريس في دراسته المهمّة حول أسماء الأماكن الإسپانية – العربية، في شبه جزيرتنا، هناك إشارات عديدة إلى «المُسلم» *moro* أو «المُسلمين» *moros*، لتسمية أماكن بهذه الكلمة. أحياناً، ستستحضر لنا ذكرى أساطير شعرية، ومآثر حربية، وأحداث سحرية أو ببساطة، ذكرى أحداث تحقيرية، مضخَّمة في الخيال الشّعبي؛ وكل ذلك مرتبط بـ«المسلمين» كشهادة ضمان.

وبذلك، كثيرة هي مجاري الماء التي ترتبط بـ«مسلم»: في «أستورياس» Asturias نجد: «جدول المُسلم» Arroyo del Moro؛ في «لاريدو» Laredo (سانتاندير): «عين المُسلم» Fuente del Moro؛ في «الجزيرة الخضراء» Algeciras: «عين المُسلم» Fuente del Moro؛ في «سيغوبيا» Segovia وفي «بياندار دي لا بيرا» Viandar de la Vera (كاثيريس): «نهر المُسلمين» Río Moros؛ في «بويتراغو» Buitrago (مدريد): «نهر المُسلمين» Riomoros؛ في «كاركابوي» Carcabuey


غرناطة. «غوادالفيو» Guadalfeo: وادي الفج.

(قُرطُبة): «النهر الموريسكي» Río Morisco؛ في مُرْسِيَة: «رملة المُسلم» Rambla del Moro، إلخ.

وباتّخاذ الحيطة المطلوبة التي ينبغي لنا أن نتعامل بها مع هذه الأسماء الشّعبية، التي ليست دائماً حقيقية، يفصِّل المؤلف أن أسماء الأماكن هذه:

> «(...) ليست عربية، ولكنها تُسهِم في توثيق آثار أخرى، البعض منها مثيرٌ للذّكريات بشكل عميق، تركها الإسپان - المسلمون في أرضنا، ومن جهة أخرى، في فحصِ جزءٍ - وإن كان محدوداً - من تلك الشّحنة الهائلة «للمُسلم» الذي تحرَّكت بكل تلك القوة، وتتحرَّك في وعي وخيال الشّعب الإسپاني»[2].

ولنعُد إلى الرّيّ وأعرافه، التي بقيت فيها أسماء من أصل عربي أو إسپاني - عربي. ففي تركيب شبكة السّواقي، كان هناك تدرُّجٌ من الأكبر إلى الأصغر، بنظام تراتبي لتوزيع الماء.

عن تلك السّواقي، بوسعنا أن نقول إنها كانت تقريباً ذات طابع مستقلّ، وبهذا الطّابع، دخلت «كُتب التّوزيع» Libros de Repartimiento. ولم تكن هذه الكتب سوى توزيع للأراضي والأملاك، التي أعطاها الملوك المسيحيون للمحاربين، الذين غزوا إسپانيا المُسلمة.

كانت للسّواقي أيضاً أسماءٌ محدّدة، وصل بعضها إلينا. لكن أكثر ما يثير الدّهشة هو أن العديد من هذه السّواقي يحمل اسم العائلة الإسپانية - العربية أو البربرية التي كانت تصبح من أملاكها الزّراعية، وقد بقيت ذكرى تلك السّلالات العربية - التي تُرصَد بصمتها في بادئة «بني» - مرتبطة بنُظُم الرّي، بل وحتى أعطت اسمها للمكان، خاصّة في مُرْسِيَة وإلْش (وفي باقي بَلَنْسِية)، كما يشير خوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja.

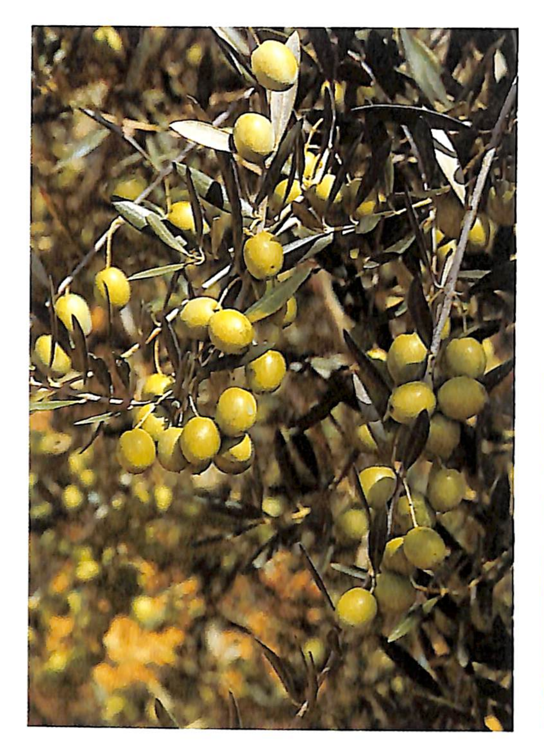
بهذه الطّريقة، في مُرْسِيَة، هناك مجموعة من السّواقي الثّانوية التي تستقبل الماء من نهر «شقورة» Segura تحمل أسماء عائلية بوضوح مثل «بني أحمد» Bendamé، «بني توصف» Benetucer، «بني علي» Benialé، «بني خيزران» Beniaján، و«بني أشكورنة» Beniscornia.

و«بنو أشكورنة»، بالإضافة إلى ذلك، أعطوا هذه التّسمية لاسم مكان بستاني: «بقعة بني أشكورنة» Rincón de Beniscornia.

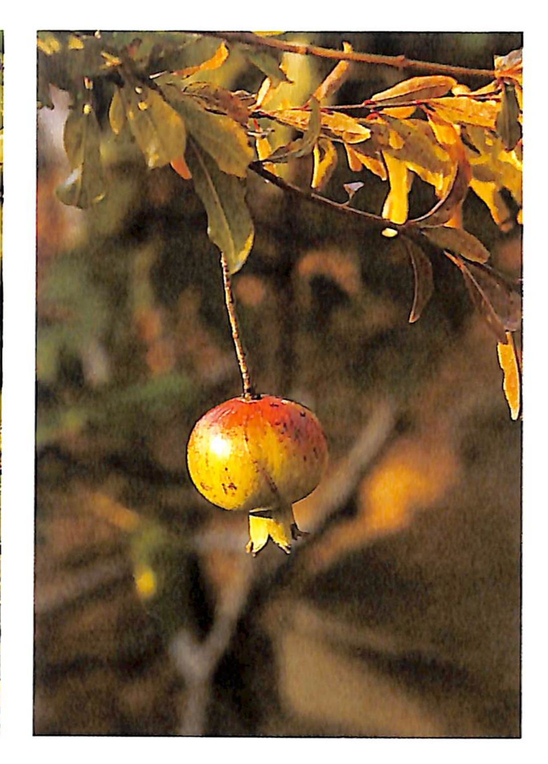
فيما حافظت سواقٍ أخرى على الاسم الذي يربطها بالرّي، مثل ساقية «ألخيروس» Algirós، على مقربة من «ألثيرا» Alcira (بَلَنْسِية)، والتي ينحدر اسمها من «الزُّروب»، جمع «زَرب»، انبجاس الماء. وكذلك ساقية «راسكانيا» (الأراضي البستانية لبَلَنْسِية)، التي تستوحي اسمها من ras (رأس) و canya (قناة)[3].

وفي بعض الحالات، تعطي السّاقية اسمها للنّهر، كما هو الشّأن بالنّسبة لنهر Guadasequies في بَلَنْسِية: وادي السّواقي.

فكما نرى، إن قراءة التّاريخ، والجغرافيا وحتى الأحداث الاجتماعية - الثقافية لا يمكن أن تُنجَز فقط من خلال النّصوص، وإنما أيضاً من خلال عالَمٍ، هو عالم أسماء الأماكن (الطّوپونوميا)، الذي ما زال يملك الكثير ممّا يمكن أن يقال.







فاكهة الرُّمّان. استُقدِمت إلى قُرطُبة من الشّام في عهد عبد الرّحمن الأول.

تين. اشتهرت به «مالقة»، وكان الأندلسيون يصدِّرونه.

إشبيلية. زيتون «ألخارافِه» *Aljarafe* (الشَّرَف)، من نوع «مانثاتيا» *Manzanilla*. شهير في كل الأندلس، كان يؤكل منقوعاً في الماء المملّح.

الفصل التّاسع

الماء في العُرف الزّراعي الأندلسي

الفلاحة: هبة ربانية، فن وسحر

يقول ابن ليون التّجيبي الألميري (1282–1349 م)، وهو عالم زراعي معروف عاش في غرناطة النَّصْرية، من أُرجوزة له بمقدِّمة مُصنَّفه «كتاب الفلاحة»:

الحمد لله على أن علَّمنا
من الفلاحة أكثر فن عُلِما
فكمُلت طِيباً بها أقواتُ
وظهرت من سرِّها آياتُ
(...)
والله قد جعل في الفلاحة
أكثر أرزاق الورى المحتاجة
فقوِيَت بها العناية لِما
من المنافع بها تقوَّما
(...)
ضمَّنت المقبول منها والذي
بأرض أندلسٍ في الكُثر أحسنه
كي يعلم المعتني بها مرّه
ما عَلِم الفلاحُ منها في عمره

ويضيف لاحقاً: «تعريف فن الفِلاحة: هو معرفة كل الأشياء المحتاجَة للزّراعات»[1].

بهذه العبارات، يختصر ابن ليون الأهمّيّة الكبرى والتّقليد الثّري الذي كانت عليه معرفة الفِلاحة وممارستها في الأندلُس على مرِّ القرون.

في شبه جزيرتنا، كانت هناك جذور متينة للفلاحة في زمن الرّومان، وحتى قبل ذلك. كان كولوميلا Columela (خونيو موديراتو Junio Moderato)، وهو إسپاني – روماني ولد في

قادس Cádiz في القرن الأول ق. م.، كان خبيراً زراعياً وقد ترك بمؤلَّفه «أعمال الحقل» De re rustica، مصدراً أساسياً للمعلومات حول الزّراعة الرّومانية، يستند إلى مؤلفات المصنِّفين «كاتو المراقب» Catón el Censor و«ترنسيوس بارُّون» Terencio Varrón. وهي مؤلَّفات عرف الخبراء الزّراعيون الأندلسيون استغلالها وتطبيقها بحكمة، بعد ذلك ببضعة قرون.

وبذلك، استطاع هؤلاء الخبراء الزّراعيون أن يضمّوا إلى التّراث الزّراعي المحلّي والمتوسّطي المعرفة التي كان العالم الإسلامي قد اكتسبها على امتداد حدوده الشّاسعة، إذ أنه لم يكن فقط قد احتكّ ببيزنطة عبر مصنَّفات الفلاحة اليونانية، بل كانت هناك معارف زراعية في المحيط الإسلامي، أصلها من مصر، وبلاد ما بين النّهرين القديمة، وفارس والهند في عهد الخلفاء الأمويين بدمشق (القرن الثّامن).

كان تأثير الفلاحة النّبطية مُهماً بوجه خاص، وهو شعب من أصل عربي ما قبل إسلامي، كان مستقرّاً ما بين البحر الميت والبحر الأحمر، من خلال مصنَّف «كتاب الفلاحة النّبطية»، الذي تمّ تداوله كثيراً في الأندلس، والذي دوّنه شخص يدعى ابن وحشية النّبطي في حوالي القرن العاشر.

في العصور القديمة، وحتى في العصر الوسيط، كانت الفلاحة مرتبطة بمعارف علم النّبات والطّب، لكن كان لها أيضاً جانب سحري. إلى هذه الممارسة يشير عالم الاجتماع التّونسي ابن خلدون (1332–1406 م) عندما يذكر كتاب «الفلاحة النّبطية»، والذي يعتبره هذا المؤلِّف كتاباً يونانياً تُرجِم إلى العربية.

«وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النّبطية، منسوبة لعلماء النَّبَط مشتملة من ذلك على علم كبير. ولما نظر أهل المِلّة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب و كان باب السِّحر مسدوداً والنّظر فيه محظوراً، فاقتصروا منه على الكلام في النّبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر (أي السِّحر) منه جُملةً»[2].

المدارس الزّراعية بالأندلس

سواءٌ أكان هناك سحر أم لا، فقد وصلت إلى الأندلس من كل أرجاء العالم الإسلامي سلسلة من الأخبار المتعلّقة بالفلاحة والتي، بالإضافة إلى المعرفة بالتّقنيات الفلاحية التي كانت موجودة منذ التّارتيسيين والرّومان – كما أشرنا – نتجت عنها مدرسة مهمّة للخبراء الزّراعيين الأندلسيين. لكن لِنَرَ كيف بدأ هذا المسار.

بدأ الازدهار الزّراعي الأندلسي يظهر من خلال الهدية التي قدّمها الامبراطور البيزنطي، قسطنطين پورفروجنيتوس Constantino Porfirogéneta إلى الخليفة القُرطُبي، عبد الرّحمن

الثّالث (912–961 م). هذه الهدية كانت عبارة عن نسخة من كتاب «المادّة الطّبية» *La materia médica*، لِديوسقوريدِس Dioscórides، باللغة اليونانية. وكان لا بدّ من ترجمته إلى العربية، ولأنه لم يكن هناك من يعرف اليونانية بقُرطُبة، فقد بعث الامبراطور البيزنطي إلى تلك المدينة راهباً يونانياً، وهو عالم خبير باللغة العربية.

وقد كان محفوفاً بعلماء نبات وأطباء أندلسيين، مثل اليهودي حَسداي بن شپروط **חסדאי בן שפרוט** – وزير الخليفة – وكانوا كلّهم متعطشين إلى تعلُّم مختلف مواد كتاب ديوسقوريدِس، فنشأت بذلك، في قُرطُبة الخليفية، أول مدرسة للمترجمين في شبه جزيرتنا، حول المعارف الطّبية والصّيدلية والنّباتية والفلاحية.

وقد انبثق عن هذه المدرسة الأولى للدّارسين المهتمّين بمعرفة خصائص النّباتات، أيضاً دستورٌ للأدوية، صِيغ في صيدلية القصر الشّهيرة، التي كانت موجودة في مدينة الزّهراء (قُرطُبة)، في عهد الحَكَم الثّاني (961–976 م). وذلك كلّه، بالإضافة إلى تدوين «تقويم قُرطُبة» *Calendario de Córdoba*، الذي أُهدي إلى الحَكَم الثّاني، بمعارف أساسية حول علم الفلك وعلم الأرصاد الجوية والفلاحة، شكَّل السّابِقة المباشرة لمدرسة من العلماء الزّراعيين الإسپان – المسلمين.

نشأ أهم المصنِّفين الأندلسيين للكتبِ حول المواضيع الزّراعية في تلك المدن الأندلسية التي كانت ضواحيها المُبستنة قد تطوّرت بشكل أكبر، مثل قُرطُبة وطُلَيطُلة وإشبيلية ومُرْسِيَة وبَلَنْسِية وسَرَقُسطة وألمِريَّة.

وكان هناك، دونما ريب، العديد من المختصين الأندلسيين في الفلاحة، إلا أن أول مؤلف إسپاني – مُسلم ورد إلينا خبره هو أبو القاسم الزّهراوي، المعروف بـAbulcasis ؛ كان قُرطُبياً وعاش في القرن العاشر. وقد ألّف «مُختصر كتاب الفلاحة».

ثمّ ظهر في القرن الحادي عشر ابن وافد (1008–1074 م) وابن البَصَّال من طُلَيطُلة، ولقد كلّفهما الملك المأمون (1037–1075 م)، صاحب مملكة طُلَيطُلة، بالاعتناء ببستانه الملكي وتصميمه، والذي كان، شأنه شأن جميع البساتين الملكية بالأندلس، بمثابة حدائق بوتانيكيّة (نباتية) حقيقية، مع أقلمة نباتات مستقدَمة من أقصى الشّرق، كما سنرى لاحقاً.

كان لابن وافد أو ابن البَصَّال على حدّ سواء، بمؤلفاتها حول الفلاحة، تأثيرٌ كبير على اللاحقين من المؤلِّفين الأندلسيين. كما تُرجِمت كتبهم إلى القشتالية من قِبَل مدرسة المترجمين بطُلَيطُلة في القرن الثّالث عشر، بل إنهم عكسوا تأثيرهم حتى على مؤلِّفي عصر النّهضة في القرن السّادس عشر، مثل غابرييل ألونسو إرِّيرا Gabriel Alonso Herrera، الذي نشر في عام 1513 م، بتكليف من الكردينال ثيسنيروس، كتاب «الفلاحة العامّة» *Agricultura general*، مستلهَماً جُلّه من كتاب الطُّلَيطُلي ابن الوافد.

وعندما وقعت المملكة الإسلامية في طُلَيطُلة تحت نفوذ ألفونسو السّادس لقشتالة في عام

1085 م، هاجر ابن البَصَّال إلى إشبيلية، وهناك دخل في خدمة الملك المُعتمِد (1069–1090 م). وفي تلك المدينة، دأب على صُحبة ودروس علماء زراعيين مشهورين آخرين مثل ابن حجّاج وأبي خير، لتتشكّل بذلك المدرسة الزّراعية الإشبيلية المعروفة.

وبعد مضيّ قرن من ذلك، جمع إشبيليٌّ آخر، هو أبو زكريّا يحيى ابن العَوَّام، التُّراث الزّراعي لأسلافه ووضع مصنّفاً مهمّاً، هو «كتاب الفلاحة النَّبَطية»، مستنداً فيه، بشكل أساسي، إلى معلومات «كتاب الفلاحة» المنسوب إلى ابن وحشية النَّبَطي وإلى مصنّف أبي الخير.

وكما نرى، لم يكن العلماء الزّراعيون الأندلسيون يستهينون بالمعارف المستنِدة بالأساس إلى التّجربة العملية، إذ كان التّلاميذ يسيرون على خُطى معلّميهم.

وعن حياة ابن العَوَّام لا يُعرَف سوى القليل؛ سوى أنه قد عاش بإشبيلية في القرن الثّاني عشر، وكخبير متمرِّس في الفلاحة، قام بتجارب لزراعة وأقلَمَة أصناف في «ألخارافِه» أو «الشَّرَف» Aljarafe. ولعلّه كان من المُلاّك المتميّزين، فاستطاع أن يكرّس وقته للبحث الزّراعي، داخل منطقته هذه.

ورغم الإشارات القليلة التي تتوفّر لدينا حول حياته، بوسعنا أن نستشعر بعض المعطيات الذّاتية من خلال مؤلفه، كما أنه، كان بلا شك، شخصاً ذا تكوين علمي متين وعالماً مضطَّلِعاً بالمؤلّفات الفلاحية السّابقة، بالإضافة إلى كتب أخرى ذات طابع علمي، خارج هذه المادة، وإن كانت دائماً مرتبطة بها: علم النّبات، والمادة الطّبية، وعلم الفلك[3].

بفضل هذه المعارف المتينة، كان مؤلَّفه بمثابة المصنّف الزّراعي الأكثر أهمّيّة وبروزاً لعدّة قرون، حتى أنَّ أحد المتنوّرين من القرن الثّامن عشر، وكان قد درس العربية في شبابه، الكونت كامپومانيس de Campomanes، وهو سياسي نافذ في عهد كارلوس الثّالث، أمر خ. أ. بانكيري J. A. Banqueri بترجمة مخطوط ابن العَوَّام.

كان السّبب الذي دفع «كامپومانيس» هو تمكُّنه من تطبيق معارف هذا المؤلف الأندلسي في الفلاحة الإسپانية التي كان بصدد إصلاحها. وهكذا يصرّح في مقدِّمة الكتاب المذكور:

> «لقد كتبتُ في ذلك الوقت هذه المقدّمة مع الهوامش والنّسخة القشتالية، ومنذ ذلك الحين ما زلت أجزم بأن مُصنّف ابن العَوَّام، ليس فقط مفيداً، بل ضرورياً تماماً لأجل تحسين الزّراعة وتربية الماشية في إسپانيا»[4].

لكن، لنعد إلى الأندلس لمواصلة الحديث عن أهم الخبراء الزّراعيين، فقد ظهر في غرناطة في القرن الحادي عشر، التّغنري، الذي ولد في «تِغنار Tignar، الواقعة في سهل غرناطة؛ وفي القرن الثّالث عشر، ابن ليون، من ألمِريَّة، وإن كان قد استقرّ بغرناطة. وقد وصل إلينا مصنّف

ابن ليون – الذي افتتحنا هذا الفصل بمقتطف منه – كاملاً، وبوسعنا أن نقول بأنّه مُختصر على شكل أُرجوزة شعريّة لمصنفات المعلّمين السّابقين. ويَختصر عنوانه كل ما يكمن في الفلاحة من جمال: «كتاب إبداء المَلاحة وإنهاء الرَّجاحة في أصول صناعة الفِلاحة».

الإطار التّاريخي – الاجتماعي «للثّورة الخضراء» بالأندلس

عند وصولهم إلى شبه جزيرتنا (القرن الثّامن)، وجد المُسلمون اقتصاداً مرتبطاً بالزّراعة وتربية المواشي، تركه الرّومان والقوط الغربيون، يعتمد على بعض الزّراعات البُستانية (الحقليّة)، وإنتاج جيد للحبوب والكروم والزّيتون، بالإضافة إلى استغلال مهمّ للمواشي، يعتمد بالأساس على تربية الجياد والخنازير والغنم.

ومن جهة أخرى، كانت جغرافية شبه الجزيرة تقدّم تناقضات حادّة ما بين المنطقة الجافّة والرّطبة، الأمر الذي كان يفرض عملاً زراعياً شاقاً للحصول على نتائج مقبولة. ولم تكن قحولة الأرض أمراً غريباً على المسلمين، فقد قدموا من مناطق كانت خاضعة للجفاف بشكل دائم، كما كانوا متعوِّدين على الصّحراء.

وابتداء من القرن العاشر، كما أشرنا، ستتوفّر الظّروف الملائمة لكي يبدأ الأندلسيون توسّعاً زراعياً مهمّاً. هذه الظّروف كانت تستند إلى وصول أدب زراعي جديد وإلى ظهور المدارس المذكورة، التي – باستغلال ما حقّقه الرّومان والقوط الغربيون – أعطت الانطلاقة لإنتاج زراعي أكثر تقنيّة وعقلانية.

ولقد دعم الحكّام الأمويون توسُّع الفلاحة الأندلسية وشجَّعوها، بجعل ملكية الأرض أمراً مُتاحاً لصغار المُلّاك. وأضيف إلى ذلك تكثيف الإنتاج وتنويع الأصناف النّباتية وإدخال أنواع أخرى، مُستقدمة من الشّرق.

وقد حدث، بذلك، تحسُّن واضح في الاقتصاد الأندلسي، يعتمد على إنتاج مكثف أكبر مع فائض كافٍ للتّصدير إلى دول إسلامية أخرى.

لكن، كما هو الشّأن في حالات أخرى عديدة، اختلط الاقتصاد المكتفي ذاتياً بالتّوجيهات الدّعائية للسّلطة السّياسية، المعتمدة بشكل أساسي على حبّ الظّهور، وهي قيمة تشمل كافّة العصور.

في القرن التّاسع، وصل إلى قُرطُبة الموسيقي الشّهير، من حاشية البلاط ببغداد، زِرياب، الذي سبق لنا أن ذكرناه، والذي كان قد استدعاه، الأمير الأموي عبد الرّحمن الثّاني (822–852 م). هذا الموسيقي والمُطرب، الممثّل الجديد للأناقة العراقية، حمل إلى البلاط القُرطُبي الأذواق الرّفيعة لبلاط خليفة بغداد. وقد اشتهرت على يده، من جُملة أشياء أخرى عديدة، أطايب الذّوق

المطبخي، والتي كانت تشترط مجموعة من المنتجات على المائدة، لم تكن مطلوبة كثيراً من قِبَل الأندلسيين. وقد اشتهر الجوز واللوز والفستق والبندق للحلويات، والفول والهليون البرّي للمُقبّلات، في مآدب البلاط «المُشرَّق» لعبد الرّحمن الثّاني.

كما كان هنالك، إذن، كما هو الشّأن اليوم، نزوعٌ إلى تقليد أذواق واهتمامات مجتمعات أخرى تعتبر أكثر تطوراً. وفي حال الأندلس، كان لفرادة العادات الشّرقية الخاصّة بالعالم الإسلامي ما وراء المتوسّط الشّرقي، تأثيرٌ بارز، تجلّى في ولع الأندلسيين باحتياجات غذائية مختلفة مثل التّوابل والسُّكّر، وهي مواد كمالية حقيقية.

زراعات جديدة وقديمة

وبهذه الطّريقة، كان لا بدّ من إنتاج مجموعة من الزّراعات السّقوية الغريبة، بأقلمتها لأول مرّة أو بإعادة غرسها من جديد. وهو الشّأن بالنّسبة لقصب السُّكّر – وقد أدخل بشكل مبكر– الذي انتشر من بَلَنْسِية إلى مصبّ «الوادي الكبير». لكن، في الآونة الأخيرة للوجود الإسلامي بإسبانيا (مع الموريسكيين)، بقيت هذه الزّراعة مقتصرة على ناحية «موتريل» Motril، و«بيليث – مالاغا» Vélez–Málaga، و«ألمونييكَر» Almuñécar (المُنَكَّب)، بالتّناوب مع أشجار الموز، لينشأ، بذلك، في هذه المنطقة موطن طبيعي ملائم ما زال موجوداً إلى اليوم.

كما شكَّل الأرُز أيضاً، الذي كان يُنتَج في بَلَنْسِية، ابتداء من القرن الحادي عشر، أحد أُسس الثّروة الفلاحية. وإن كان الأرُز، على ما يبدو، موجوداً في شبه الجزيرة منذ عهد القوط الغربيين.

بدأت أشجار البرتقال واللّيمون والأُتْرُجّ، القادمة من منطقة شرق آسيا، تملأ الحدائق والحقول الأندلسية للمنطقة الجنوبية والشّرقية، شيئاً فشيئاً. وكان البرتقال المُرّ يؤدّي وظيفة تزيينية لا أكثر، فقد كان يوجد حوله اعتقاد خرافي يفيد بأنه يجلب الحظ السّيء. ومن بين النّباتات العطرية، كان يزرع الكمُّون في سالوبرينيا Salobreña(شلوبينية)، والكُزبرة.

من بين النّباتات المُلوِّنة، كان الزّعفران الأكثر تثميناً، وكان يُصدَّر إلى دول أخرى من العالم الإسلامي. كان يُزرع بمعدلات كبيرة في أراضي البور التّابعة لطُلَيطُلة وباييثاBaeza (خايين)، مغطياً بألوان زاهية الأفق المفتوح لتلك الحقول.

تركَّزت الزّراعات البُستانية، التي كان الأندلسيون فيها معلّمين بارعين، في المناطق التي يغلب فيها الرّي: بَلَنْسِية ومُرْسِيَة، وكذلك سهول الأنهار الكبرى مثل «الإيبرو» El Ebro و«التّاج» El Tajo، و«الوادي الكبير» Guadalquivir و«وادي يانَة» Guadiana. كما تركَّزت في سهل غرناطة البديع بين نهر «حَدَرّه» El Darro و«الخينيل» El Genil.

كانت الفواكه وافرة بكثرة، بعدّة أنواع وبجودة عالية. وممّا امتاز بعلوّ القيمة كان كرز

«كويمبرا» Coimbra (البُرتُغال)، وتفاح وإجاص «سينترا» Cintra (البُرتُغال) وسهول الإيبرو، وخوخ سَرَقُسطة، وكذلك تين إشبيلية ومالقة.

وقد اشتهر أحد أصناف التّين المسمّى بـ«دونييغال» doñegal، استجلَب الغزال (القرن التّاسع) أصوله من القسطنطينية إلى قُرطُبة، مخبأة بين الكتب، خلال إقامته بتلك المدينة كمسؤول عن بعثة دبلوماسية من قُرطُبة.

كان التّين المالقي يُصدَّر طازجاً أو مجفّفاً، وكانت السّفن تأتي إلى ميناء مالقة لتأخذ حمولات كبيرة من هذه الفاكهة.

وفي إحدى المرّات، تذمّر قاضٍ من مالقة، كان مستاءً من الحمية الغذائية التي أخضعه لها طبيبه، إذْ منعه من أكل تين بلده. ولقد حفظ لنا الحِمْيَري هذا النّص:

مالقة حُيّيتَ يا تينها   الفُلك من أجلك يأتينها

نَهى طبيبي عنك في علّة   ما لطبيبي عن حياتي نهى

وكانت للرّمان، الذي استُقدِم صنف «السَّفَري» *safarí* منه بشكل مبكر من الشّام، أصنافٌ عديدة، مثل «المُرسي» *murciano*، و«الياقوتي»، كانت تباع مكدّسة على حُصُرٍ، إلى جانب العنب والتّين، في سوق مالقة المزدحم. وكان رُمّان مالقة و«إلبيرة» Elvira ذا قيمة كبرى.

ومن بين المحاصيل البستانية الأكثر زراعة كان هناك الفول والبازلاء والهليون والخيار واليقطين والشّمّام والبطّيخ والخرشوف، والقرع والباذنجان... وكان بازلاء وفول سَرَقُسطة يتمتّعان بجودة استثنائية، فقد كان بالإمكان حفظهما حتى لمدة عشرين سنة، بعد تجفيفهما؛ كما اشتهر باذنجان طُلَيطُلة، وجوز سَبْتَة، بين الفواكه الجافّة.

كان بعضها من فواكه الصّيف، والبعض الآخر من فواكه الخريف، وبعضها من فواكه الشّتاء؛ والحال أن الأندلسيين كانوا يستطيعون استهلاك الفاكهة طيلة السّنة.

ولا بدّ من الإشارة إلى زراعات أراضي البور: الحبوب والكروم والزّيتون، إذ كانت بمثابة الإنتاج التّقليدي لشبه الجزيرة الإيبيرية منذ عدّة قرون.

من بين الحبوب، كان القمح والشّعير الأكثر إنتاجاً. وكانت تزرع في الأندلس عدّة أصناف للقمح، مثل الأبيض، الذي كان ذا جودة عالية، والمعروف بـ«المدهون»، و«الرُّيُون» (الأحمر)، و«الفُرفور» (الحنطة السّوداء)، وقمح «بلاطة» Balata (ما بين شنترين «سانتاريم» Santarem ولشبونة). لكن طُلَيطُلة كانت أفضل منطقة للحبوب في كل الأندلس.

كان القمح يخزَّن في مطامير للدّولة، فكانت ممتلئة في عهد الخلافة. وكان هذا القمح مخصَّصاً لتزويد جيوش الخليفة ودفع أجرتها عيناً، وإقراض البذور للفلاحين الضّعفاء، أو لإطعام

الفئات المحتاجة للمساعدة العمومية، وكذلك لتصدير الفائض منه إلى دول إسلامية أخرى، مع الرّبح المترتِّب عنه لِخزائن الدّولة.

وكان الشّعير، بين الحبوب، في المرتبة الثّانية من حيث أهمّيّة الإنتاج، وقد عَوَّض القمح في فترات الفاقة، خاصّة على إثر سقوط الخلافة في قُرطُبة. كان يُزرع في أوبيدا Úbeda (أُبَّدة)، وخايين Jaén (جيان) وإيثيخا Écija (إسْتِجَة). كما كان هناك أيضاً إنتاجٌ للدّخن والذّرة.

بالنسبة للزّيتون، كانت البُقَع الواسعة، ذات اللون الأخضر الباهت، لأشجار الزّيتون تغطّي مناطق شاسعة من الأندلس، التي أصبحت أكبر بلد منتج لزيت الزّيتون في العصر الوسيط. وكان أفضل الأنواع هو زيتون «ألخارافِه» Aljarafe (الشَّرَف) الإشبيلي، الذي كان يُحفظ لعشرين عاماً أو أكثر، دون أن يتعفّن، ولم يكن الزّيت يفسد قطّ.

ومن المناطق الجيدة لأشجار الزّيتون كانت قُرطُبة وخايين وألمِريَّة وباداخوث (بطليوس) وشاطبة. كان الزّيتون يؤخذ إلى المعصرة، حيث يُسحق في رحى، تحرّكها دابة أو آلة هيدروليكية، ويُعصَر في قفاف من الحَلفاء، بها ثقب في الوسط، يسيل منه الزّيت الأول الذي كان يُجمَّع في خزّان. هذه التّقنية التّقليدية صمدت، كبقيّة أثرية، إلى يومنا هذا. وفي بعض قرى الشّرق الإسپاني وفي مناطق أخرى من إسپانيا، في الخمسينات، كانت المعاصر ما تزال موجودة، وكان ما زال يمارَس هذا النّوع من الإنتاج الزّيتي.

وكانت رائحة عصارة الزّيتون الدّبقة والحادّة مميّزة حول المعاصر، بحيث لم تكن تترك المجال حتى للتّنفس.

كان الزّيت، بمستويات مختلفة من الجودة، يصدَّر إلى العالم الإسلامي والمسيحي على حدٍّ سواء. وكان جزءٌ من إنتاج الزّيتون يُستهلك قبل الطّعام أو كجزء من «الطّواجين» (طبخات باللحم).

كان الأندلسيون يحبّون الزّيتون الأخضر المنقوع في الماء المملَّح، والذي كانوا يجهّزونه للمقبّلات، وهو يشكِّل سلفاً لزيتوننا الأندلسي من نوع «مانثانيّا» Manzanilla، الذي يضفي البهجة على جلسات السّمر حول كأس من النّبيذ الإسپاني.

كان النّبيذ مُحرَّماً في الأندلس، لأسباب بديهية ذات أساس ديني. لكن ما كان ممنوعاً، على وجه التّحديد، هو السّكر وفقدان السّيطرة على الإرادة والوعي. وقد كان للمجموعات المستعربة (المسيحية) واليهود إنتاجهم للخمر، للاستهلاك الخاص.

وعلى الرّغم من التّحريم، كان الخمر يُصَنع في الأندلس، ويُشرَب، خاصّة من قِبَل الشّباب المحبِّين للَّهو، وأيضاً من قِبَل من ليسوا شباباً تماماً. لقد وصلتنا أخبار حفلات الإشبيليين البهيجة الذين كانوا يعبرون «الوادي الكبير» في مراكب للذّهاب إلى «تريانا» Triana (أطريانة) أو في رحلة إلى الجزر الصّغيرة. كانوا يستغلّون الفرصة، متشجِّعين بالجو اللطيف الذي توفّره

مياه النّهر ولحظة الاستجمام، لكن خاصّة، بغياب الرّقيب المحتسب، ليشربوا بعض كؤوس النّبيذ. وهي بهجة غالباً ما كانت تنتهي بإحدى المشاجرات.

استناداً إلى هذا، يقول لنا ابن عبدون (القرن الثّاني عشر)، وهو أيضاً إشبيلي، في رسالته «كتاب الحِسْبَة»:

> «يجب أن لا يُكرى قارب ممَّن يُعرف أنه يشرب الخمر فيه لنزاهة، فإنه موضع فساد وعدوان»[6].

ومن جهته، يعلق الشّقندي، وهو مؤلف من القرن الثّاني عشر، عن إشبيلية:

> «كَذَلِكَ أَخْبرنِي شخص آخر دخل بَغْدَاد وَقد سعد هَذَا والوادي بِكَوْنِهِ لا يَخْلُو من مَسَرَّة، وان جَمِيع ادوات الطّرب وَشرب الخمر فِيهِ غير مُنكر لا ناهٍ عَن ذَلِك وَلا منتقد مَا لم يؤدِّ السُّكر إِلَى شَرٍّ وعربدة»[7].

لكن عدا عن هذه المزيّة المُلفِتة، كانت زراعة الكروم جدّ ممتدّة في الأندلس. وكانت مزارع العنب تحتلّ سفوح الهضاب غير المرتفعة، أحياناً مستقرّة تحت ظلّ أشجار الزّيتون.

كانت الكروم تُزرع في مالقة، و«ألمونييكر» (المُنكَّب) وألمِريَّة وبَلَنْسِية ولوركا وسَرَقُسطة و«خيريث» Jerez (شريش) و«ألپوخارّاس» Alpujarras (البشرات) و«إلْش» Elche و«يابسة» Ibiza... وكان زبيب هذه الجزيرة مشهوراً، وكذلك زبيب مالقة وإلْش، وكثير الاستهلاك بين الأندلسيين، سواء إلى جانب فواكه جافة أخرى مثل التّين والجوز واللّوز والفستق، أو كمكوِّن للحلويات الأندلسية المُشكَّلة. كما كان يُصنع الرُّبّ (الدِّبس) من العنب، بطبخ عصيره.

وكان العنب الطّازج جدّ مثمن كفاكهة للمائدة. كان هناك تنوّع كبير في أصنافه، تختلف في المذاق والملمس والعصير واللون: العنب «العسلي»؛ المسمّى بـ«العَذاري»، ذو حبات طويلة ووافر العصير؛ «المِسكي» ذو مذاق حلو معسول معروف، إلخ. وفي سبتة فقط، يؤكّد أحد المؤرِّخين الإخباريين من القرن الخامس عشر أنه كان يوجد خمسة وستون صنفاً للعنب.

وقد استخدم الشّعراء الأندلسيون جمال هذه الفاكهة وعلاقتها بالشّراب المُسكِر، في بعض المناسبات، كإشارة إلى النّشوة الصّوفية.

أمّا بالنّسبة للنّخيل، وهي شجرة تميّز العالم الإسلامي، فقد كان مفضَّلاً لدى الأسرة الأموية. وفي «إلْش» Elche (أليكانتِه)، تمَّت أقلمة النّخيل بنتيجة جيّدة للغاية، حتى أننا لنملك اليوم هناك أحد أشهر رياض النّخيل في العالم.

كان العرب، وهم مستهلكون تقليديون للتّمر، يسمّون التّمر الطّري رُطَباً، وفي الشِّعر قارنوه بحُقّ من العقيق الأحمر مليء بالذّهب السّائل. وطقس الضّيافة الإسلامية الذي يقدَّم خلاله الحليب والتّمر للقادم الجديد، كإشارة إلى التّرحيب وحُسن الطّويّة تجاهه، غنيّ عن التّعريف.

كانت كثرة المنتوجات السّقوية في الأندلس وفيرة، بحيث لا يسعنا إلا أن نهمل عدداً كبيراً منها. لكن دائماً مع الأخذ بالاعتبار بأن جميع تلك الزّراعات كانت ممكنة بفضل الماء.

سقي الغراس في الأندلس ومهارات أخرى

تعطي المصنَّفات الفلاحية التي سبق لنا أن وصفنا مؤلِّفيها ومدارسها – والتي أدّت دوراً مهمّاً في التّوسّع الزّراعي الأندلسي – نصائح عملية، بشكل مستمرّ، لزراعة النّباتات. والوصف الوارد فيها دقيق حتى أنه ليخيَّل إلينا أننا نقرأ نصّاً حديثاً.

وهناك تشابه مؤكَّد بينها، في جميع المصنفات وفي المنهجية التي تستعملها، وإن كانت هناك بعض الاختلافات. ربما لأن جمع وتكرار ما قاله شخص آخر من قبل، لم يكن فقط أمراً مقبولاً، بل كان شرفاً، لأنه يعني قراءة علم معلِّم سابق، ذي خبرة عالية التّقدير.

إلى جانب العدد الكبير من النّصائح التّقنية التي تقدّمها المصنّفات الزّراعية، هناك أخبار عن أعراف زراعيّة معيّنة، خاصّة ببعض الفترات والأماكن، تفيدنا أيضاً كتحليل اجتماعي للوسط القروي. ومن جهة أخرى، هناك عادات تجذب القارئ لحيويتها وديناميكيتها.

بوجه عام، جلّ المصنفات الأندلسية التي وصلت إلينا تبدأ بتوضيح ما هي عناصر الزّراعة: الأراضي، المياه، الأسمدة والأشغال.

أمّا المياه – رائدة هذا الكتاب – التي تُنمي النّبات والأعشاب، وفقاً لابن البَصّال، فقد تكون من أربعة أنواع (وهو التّصنيف الذي سينقله باقي المؤلِّفين): ماء المطر، ماء الأنهار، ماء العيون وماء الآبار.

أفضل المياه ماء المطر، الذي تستقبله الأرض بشكل جيد للغاية وتتشبّع به، ولذلك فهو ملائم للنّباتات البستانية. وماء الأنهار جيد كذلك، لأنه يجري من خلال التّيّار، ويطرح ديدان الأرض. أما ماء العيون والآبار، فهي أكثر كثافة وأفضل بالنّسبة للنّباتات الجذرية المأكولة، مثل الفجل، أو الجزر أو اللّفت.

ويقول ابن ليون بأنّ المياه التي تجري باتجاه الجهة الشّرقية للمنابع جيدة، وتلك التي تنبع من الآبار أيضاً، ولكنه يعتبر المياه الصّادرة من الجليد والثّلوج الدّائمة مُضِرَّة بالغرس. أما المياه المستنقعيّة فتفسد محصول البطّيخ، بينما مياه الفيضانات تتلف أشجار الفواكه، إلى جانب زراعات أخرى، وإن كانت الرّواسب التي تخلِّفها مفيدة للأرض.



«لا مانتشا» La Mancha. حقل زعفران. هذا النّبات الملوّن كان يُصدَّر من الأندلس إلى باقي العالم الإسلامي.



ألمِريّة. أشجار اللوز. كان الأندلسيون يستهلكون اللوز ضمن المقبلات، في البلاط المُشرَّق لعبد الرّحمن الثّاني.



ليڤانتهِ، حقول الرُّمّان.

وهناك إجماع من قبل جميع المؤلّفين الأندلسيين على اعتبار ماء المطر الأفضل، بما أنه نعمة من السّماء لجميع أنواع النّباتات، وخاصّة للنّباتات الرّقيقة والضّعيفة. وربما كانت حاضرة لديهم الآية القرآنية التي تذكّر بالنّعم الإلهية المُتاحة من خلال ماء المطر:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾. (القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية 99)

أما بالنّسبة للرّيّ، فالمصنّفون يؤكدون بأن أشجار الفواكه، ما لم تكن في فترة الإزهار أو البرعمة، ينبغي سقيها باستمرار؛ وإن كان الزّيتون استثناءً، بالنّسبة لابن ليون، لأنه يحتاج إلى الماء في تلك الفترة. كما يجب سقي تلك النّباتات التي تكشف جذورها عند النّمو، فتلك علامة على أنها تطلب الماء. وإذا ما تركّدت مياه الرّي لسبب من الأسباب – إما لتسرّبها من البركة أو السّاقية – وبقيت راكدة لفترة، فهي تصبح مُضِرَّة بالنّسبة لغير أشجار الفواكه. أما النّباتات الضّعيفة فلا ينبغي الإكثار من سقيها.

هناك معلومة عجيبة تذكِّرنا بقدوم النّخل من موطن طبيعي شبه صحراوي، إذ أن هذه الشّجرة الصّامدة تقبل الماء العذب والمالح على حد سواء.

حول الأسمدة، يتفق جلُّ المؤلفين على الإشارة إلى أن «السّماد المصنوع سيئ بجميع أشكاله». وهم بذلك يقدّمون لنا تفصيلاً مهماً حول حرصهم على العناية بالنّباتات وحبّهم للطّبيعة، اللذين يشكلان جزءاً من التّربية الأندلسية.

كما يتفقون على اعتبار روث الحمام كسماد جيد، وإن كان قويّاً، ويوفّر الكثير من الحرارة، وبذلك فهو جيد بالنّسبة للغرس الذي يضعف مع البرد. وهم يمتنعون عن استعمال روث الخنزير والطّيور المائية، باعتبارها بمثابة سم للنّبات.

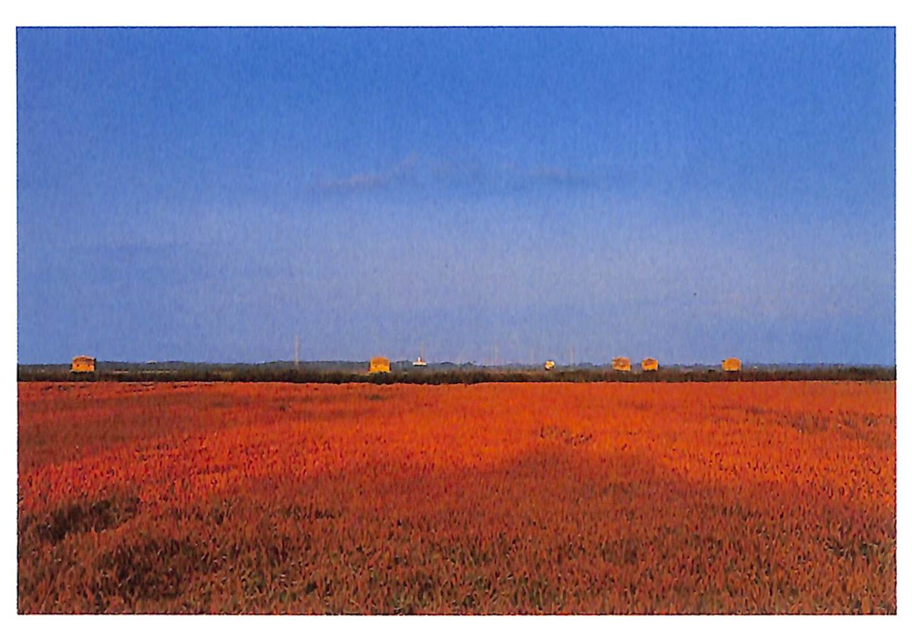
على امتداد المصنفات، هناك معلومات كثيرة عن عادات مذهلة في الممارسات الزّراعية. ويعود أصل العديد منها إلى الفِلاحة النّبطية، التي نبذها ابن خلدون باعتبارها تعتمد السِّحر. والبعض الآخر خرافات لتلك الفترة، يعود أصل جلِّها إلى العصر الجاهلي.

وهكذا يخبرنا أبو زكريّا ابن العَوَّام في كتابه «الفلاحة النّبطية»، بأنه لا ينبغي تطعيم أو غرس أية شجرة، ما لم يكن ذلك في التّربيع الأول للقمر، تحديداً في اليوم الخامس للهلال المتنامي، وبأن جدّنا الأول آدم نفسه كان يفعل ذلك.

كما يقول لنا بأنّ الأنباط كانوا يمارسون جني العنب خلال طور الهلال المتناقص، حتى لا تنتفخ حبّاته كثيراً، وبأنهم كانوا يقطعون خشب الأشجار لتسقيف البيوت أو لصنع الأثاث،



إشبيلية. أشجار زيتون «ألخارافِه» Aljarafe.



بَلَنْسِيَة، مساحة بحقول الأرز. شكّل الأُرز أحد أُسس الثّروة الفلاحية الأندلسية.



خوخ سهل «خالون» Jalón. وقد اشتهر كثيراً خوخ سَرَقُسطة.



أشجار الفواكه في سهل نهر «الخالون» Jalón، في أراغون Aragón.

خلال آخر ثلاثة أيام من نفس الطّور القمري؛ إذ كانوا يضمنون بذلك عدم إصابته أبداً بالتّسوُّس.

عن الغار، وهو نبات سقوي وأسطوري بامتياز، يقول لنا أبو زكريّا بأن منه الذّكر والأنثى، وبأنه يحبّ مجاورة الأشجار العطِرة. ومن هذه الشّجيرة، تنفر الزّواحف والحيوانات المسمومة مثل الأفاعي والعقارب، لكن، إذا ما تم التّبخير بالغار، فنفس هذه الحيوانات سرعان ما ستقترب.

كما ينصح المؤلف أيضاً بأكل السّفرجل، ذلك أن من يأكله، تذهب عنه كآبة القلب، ويهدأ باله.

ومن المذهل أن نشهد كيف أن مؤلِّفينا يذكرون الحياة الانفعالية للنّباتات، التي اشتهرت كثيراً بين التّيّارات الحديثة لعلم النّفس الغيبي، في عقد الثّمانينات. ومرّة أخرى، يدهشنا المؤلفون الأندلسيون، أو الإسبان – المسلمون براهِنيّتهم.



«كارينينا» Cariñena (سَرَقُسطة)، كروم وحبوب. كانت الكروم إلى جانب القمح والزّيتون، تُنتج في شبه الجزيرة، قبل عدّة قرون (من الوجود الإسلامي).

يقول ابن ليون بأن البُرتقال يُبدي ميلاً نحو الزّيتون، وكذلك الكرمة، التي عادة ما ترافق الزّيتون في الأراضي البور. لكن النّخل والعرعر يتنافران بشكل متبادل. والآس والرُّمّان يتجاذبان، ولذلك فهما رفيقان جيدان في حدائق وبساتين الأندلس. ونفس الشّيء يحدث مع الحَور وكرمة العنب. وهو يجزم بأن اليونانيين أناكساغوراس Anaxágoras وإمپيدوكليس Empédocles في ذلك الزّمن كانا يؤكدان بأن النّباتات تتمتّع بنوع من الذّكاء وتشعر بعدّة انفعالات.

الشطارة في الوسط الزّراعي الأندلسي

حتى نعطي نظرة أكثر شمولاً عن الوسط الزّراعي الأندلسي، لا يسعنا أن نهمل أحد المعطيات الاجتماعية البسيطة.

فكما هو الشّأن بالنّسبة لمعظم البلدان والأزمنة، لم يكن ليُعدَم في الأندلس بعض الشّطّار في مجال الفلاحة، الذين كانوا يمارسون الاحتيال، سواء في الأشغال الزّراعية أو في مهمّتهم كوسطاء فيما يتعلّق بالمنتجات، وحتى كخبراء لتقييم المحاصيل.

ولمحاربة هذا الاحتيال، يخبرنا ابن عبدون، الغنيّ عن التّعريف لدينا، في رسالته الآنفة الذّكر، «كتاب الحِسْبَة»، عن «ظروف العمل» بين عمّال الحقول بإشبيلية في القرن الثّاني عشر.

وهو يندّد بأنه في الأماكن التي يجتمع فيها الأُجَراء، طلباً للعمل – وعلى الأرجح كان ذلك يحدث في مكان مستقرّ أو ساحة أو في باب للمدينة – ينبغي أن يكون هناك شخص مسؤول ونزيه لمراقبة هذه التّعاقدات. كما يشتكي ابن عبدون من كون العمّال الزّراعيين، في أغلب الأحيان، شباباً تنقصهم الجدّيّة ولا يقومون بواجباتهم.

فإذا ما تم التّعاقد معهم على يوم من العمل بأجر معيّن، قبل انتهاء اليوم، يتركون العمل ويبدأون بالتّكاسل، إما بالذّهاب إلى جمع الحطب – الذي لا حاجة إليه – أو لقضاء الحاجة، متأخرين لوقت طويل، ومتغيّبين، بذلك، عن مواقع أعمالهم.

يقول ابن عبدون بأن الأجير، عند نهاية اليوم، يحضر أمام صاحب العمل، وكأنه قام بعمله على أكمل وجه، مُختالاً، فوق ذلك، بكل ما قد قام به والخدمة التي قدّمها، مؤكّداً أن الأجر الذي يعطيه زهيد للغاية مقارنة بالعمل الذي قد أنجزه.

بالنسبة لابن عبدون، كل ذلك احتيال سافِر، ولتجنُّبه، يشير إلى تحديد قطعة الأرض التي يجب أن يحرثها الأجير، بموجب اتفاق، بالإشارة إلى صفوف الكروم التي عليه أن يحفرها أو إلى



«طَرّاكونة» Tarragona. حقول الأَرُز في دلتا الإيبرو.



طول الأرض التي عليه أن يزرعها؛ ثم يضيف: «وينبغي إلزامه بذلك».

ومن جهة أخرى، يندّد ابن عبدون أيضاً بوسائل الاحتيال لدى خبراء تسعير المحاصيل، وهم موظفو الأمير الذين كانوا يقومون بتقييمها. وهذا التّقدير كان يُعتمد لأجل تحديد قيمة ضريبة العُشر، التي كان على المزارعين أن يدفعوها لبيت المال.

عن هؤلاء الموظفين وممارساتهم الاحتيالية، يقول ابن عبدون بأنهم «حُثالة العوام». لا يخشون الله ولا الأمير؛ وليست لديهم ذرّة شفقة بالإضافة إلى ذلك. فهم لا يبحثون إلا عن التّكسّب من وراء الأرباح غير الشّرعية والرِّبا. وهم يبيعون أنفسهم مقابل كأس من الخمر. لا تقوى لهم ولا ضمير.

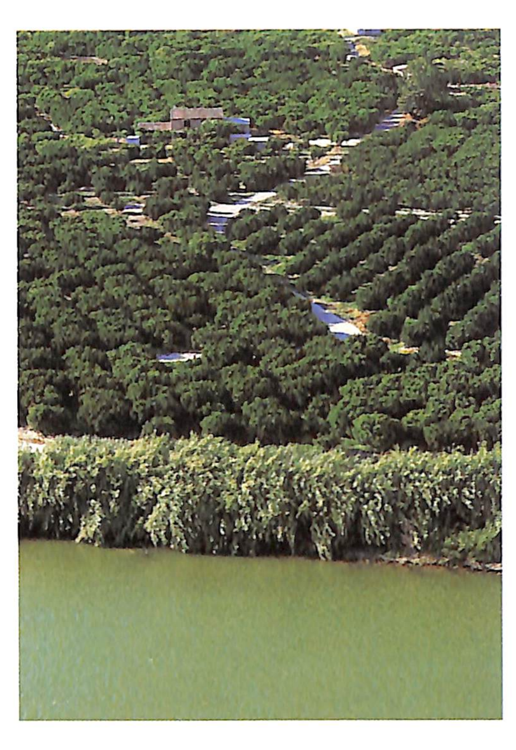
بعد هذا الاتهام القاسي، يطالب ابن عبدون بأن يكون القاضي من يقوم بالمراقبة الدّقيقة لعمل خبراء التّقييم، بإعطائهم تعليمات محدّدة ودقيقة، والحدّ من التّقييمات المبالَغ فيها للمحاصيل، لأجل الاستئثار بالمبلغ. وفي جميع الأحوال، يطالب بأن يقوم القاضي دائماً باختزال الرُّبع من تقييمات هؤلاء الخبراء، خاصّة في حالة حدوث كوارث جوية أو أمراض في المحاصيل. على سبيل المثال، في حالة محصول الزّيتون، ينبغي أن يُبنى التّقييم على الزّيت المحصَّل، لا على كمية الزّيتون، إذ أن هذا الأخير يمكن أن يكون في السّنة ضعيف الجودة ولا يعطي الكثير من الزّيت.

كما يطالب بأن يتمّ دفع أجر خبراء التّقييم من طرف الحكومة، وليس من طرف المزارعين، كما كان الشّأن إلى ذلك الحين، فهو حِملٌ ثقيل ويؤدّي إلى ممارسات تعسّفية. ويعتبر المؤلف كون الموظف نفسه من يسجِّل المحصول في الكتاب – السِّجل أمراً مُجحفاً؛ وعليه، فيجب على القاضي أن يكون أكثر صرامة وأقلّ وثوقاً بهذا النّوع من النّصوص.

كما نرى، في إشبيليةِ القرن الثّاني عشر، كانت ترتسم صورة حقيقية ل «محامي الشّعب».



الصّورة على اليمين: «البحيرة البَلَنسيّة». زراعة الأرز.



الصّورة على اليسار: طَرّاكونة *Tarragona*. حقول أشجار الفواكه في الإيبرو الأدنى.



الصّورة في الأسفل: «ألباثيتِه» *Albacete*. حقل لأشجار الزّيتون.



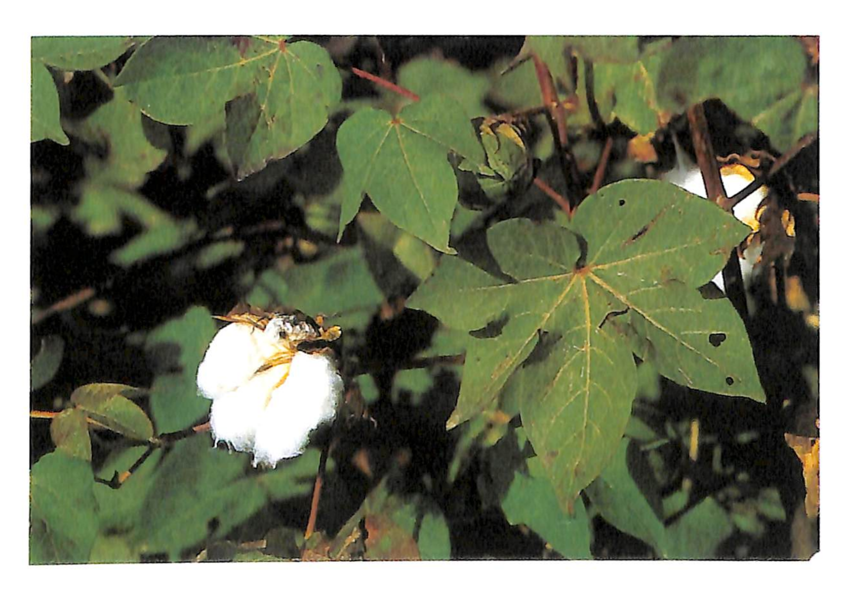


﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً (...) فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾

(القرآن: 6، 99).

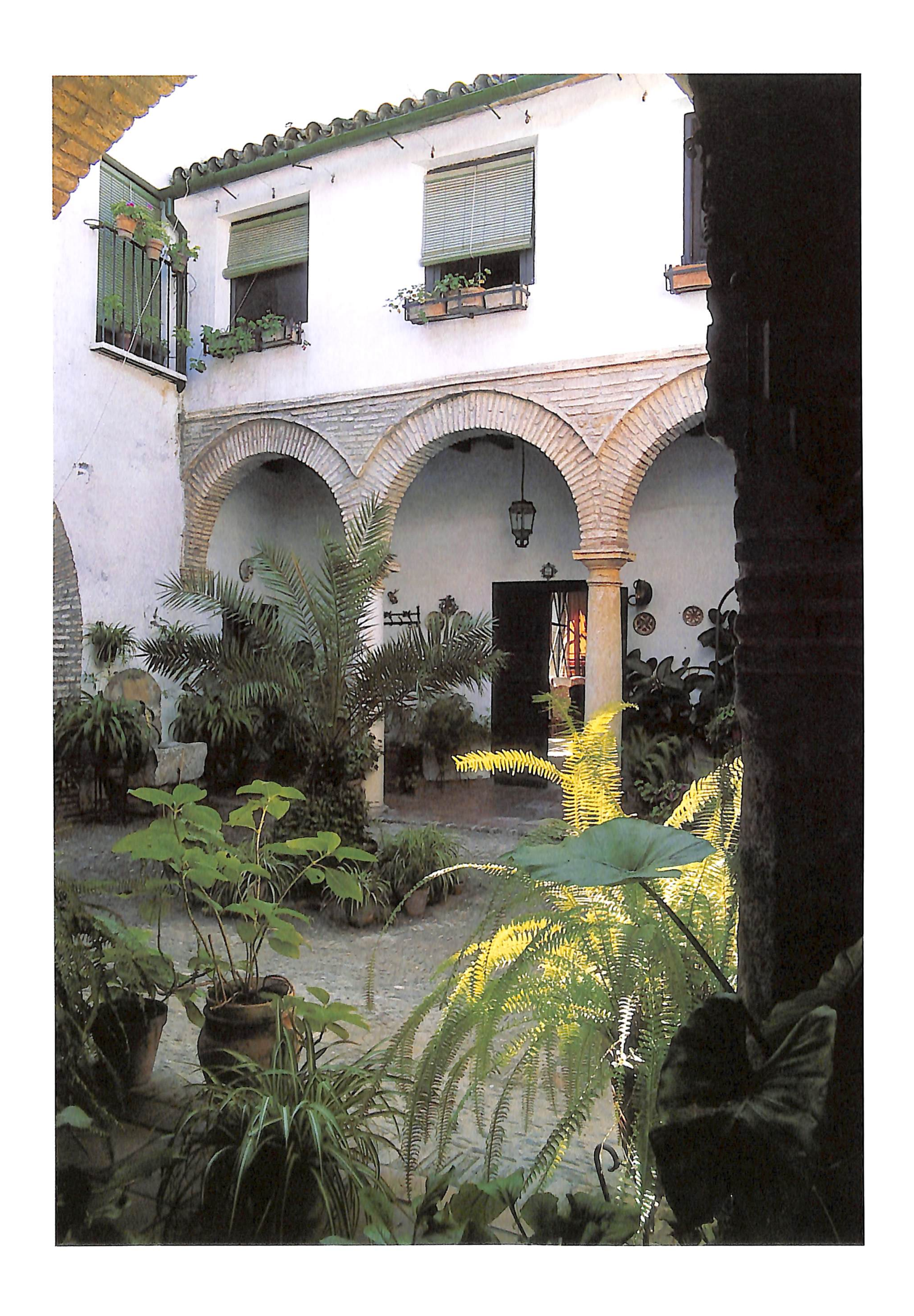


نخيل «إلْش» Elche. مَثَّل التّمر رمزاً للضّيافة الإسلامية، والفاكهة المفضلة لدى الأمويين.



ليڤانته، زهرة القطن.

«بلانكا» Blanca (مُرْسِيَة). أشجار البرتقال. كان البرتقال الأندلسي يطرح فاكهة مُرّة وكان يُغرس، لرائحته، في البساتين والأفنية.



قُرطُبة، فناء من الطّراز المدجّن.

الفصل العاشر

فراديس الأندلس المفقودة

مشهد الأندلس

يقول شاعر كبير من «ألثيرا» Alcira (جزيرة شَقْر)، وهو ابن خفاجة (1058–1138 م)، في الأندلس[1]:

يَـا أهــلَ أنـدَلُـسٍ لِلَّهِ دَرُّكـمُ	مـاءٌ وَظِـلٌّ وَأَنـهـارٌ وَأَشـجـارُ
مـا جَـنَّـةُ الخُـلـدِ إلا في دِيـارِكُـمُ	وَلَـو تَـخَـيَّرتُ هَـذا كُـنـتُ أَخـتـارُ
لا تَختَشوا بَعدَ ذا أن تَدخُلوا سَقراً	فَـلَـيـسَ تُـدخَـلُ بَـعـدَ الجَـنَّـةِ الـنّـارُ

هذه الأنشودة الحماسية للأندلس تجد تبريرها في وفرة البساتين وعِزَب الاستجمام (المُنْيات) التي كانت موجودة بكثرة حول المدن الإسپانية – الإسلامية. كانت في محيط أهم عشرين مدينة للأندلس، وجُلُّها تقع على ضفاف أغزر الأنهار، مساحةٌ شاسعة من البساتين، والحدائق والسّهول، التي كانت تسقيها القنوات والنّواعير، وكانت تسهم في عيش سكانها بمنتوجاتها الزّراعيّة.



«طُلَيطُلة» Toledo. قصر «غاليانا» Galiana، حيث، على ما يبدو، كانت توجد مُنْية المأمون الشّهيرة، في «بستان الملك» la Huerta del Rey.

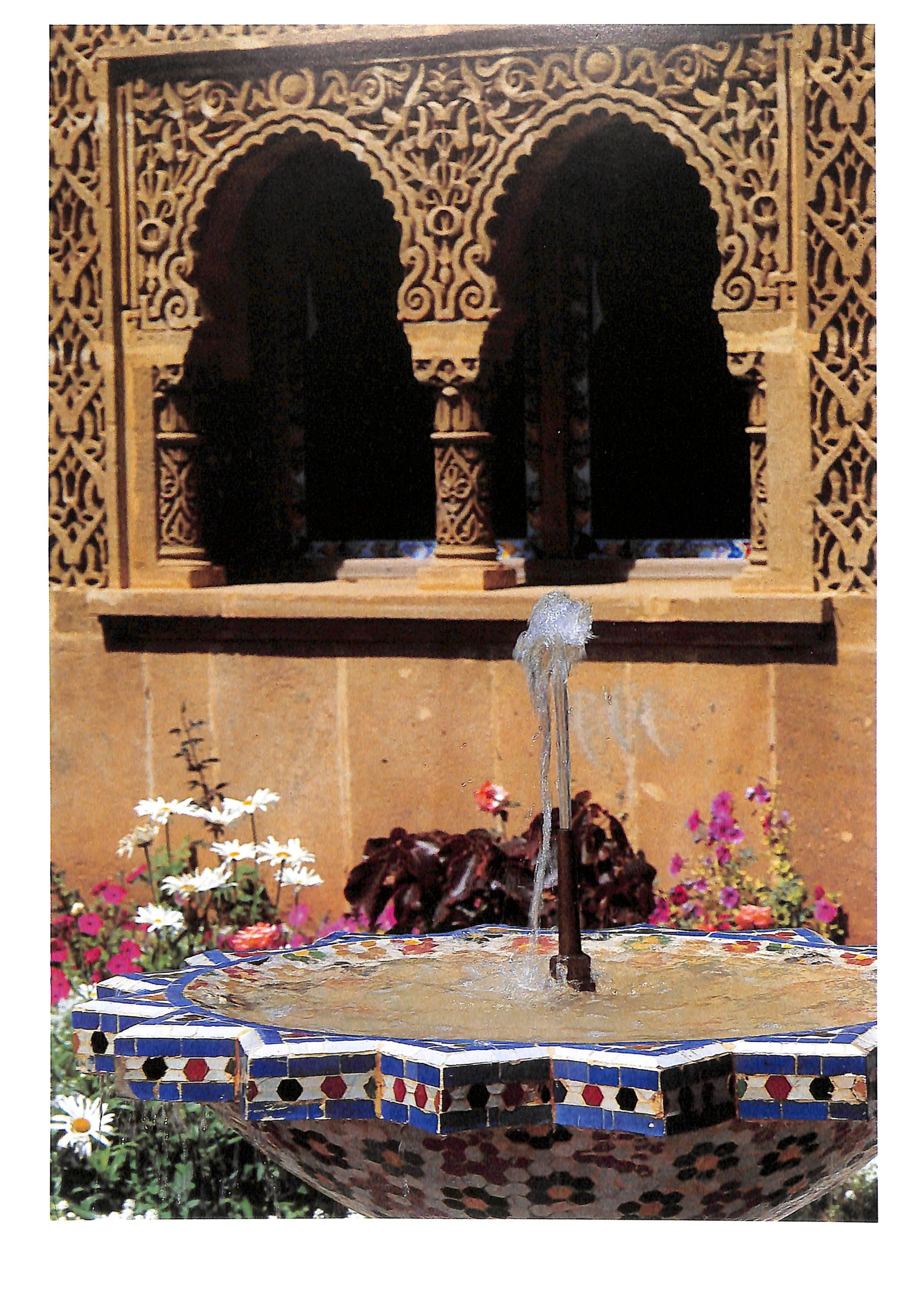


قُرطُبة. حدائق «قصر بيانة» Palacio de Viana. في حدائق المُنيات الملكية، كانت تمتزج أشجار الفواكه بالزّهور والنّوافير.



قُرطُبة. «قصر بيانة» Palacio de Viana. جزء من البركة القديمة.

المغرب، فوّارة وزهور في الحديقة.



دائماً كان يقال بأن الأندلسي يعطي مكانة بارزة للطّبيعة المحيطة به، وبأنه يحبّ الحياة القروية، سواء كمَنفذ من المدينة بالنّسبة للبعض، أو كوسيلة عيش بالنّسبة للبعض الآخر.

ولا بدّ أن هذه الخضرة، المنتشرة بوجه عام في المحيط الحضري قد أثرت في تعابير المدح للجغرافيين العرب، عندما كانوا يقومون بوصف مدينة من مدن الأندلس.

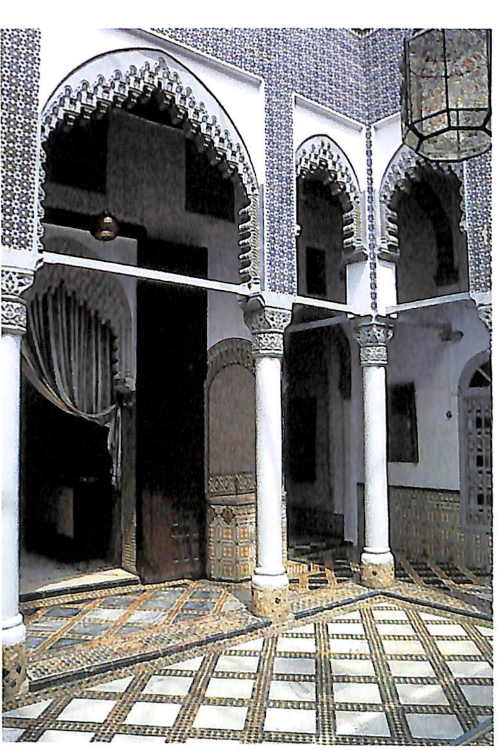
لكن، ممّا لا شكّ فيه هو أن المشهد الأندلسي قد فقَد بعضاً من جماله مع مُضيِّ القرون، فكما يشير تورِّيس بالباس Torres Balbás: «بين مشهد المدن الإسپانية - الإسلامية قبل وبعد فيليپه الثّاني، كان الفرق مُهماً، وليس بالذّات لصالح هذه الأخيرة»[2].

بالنّسبة لهذا المؤلّف، كان مشهد الأندلس يقدِّم تمايزات الواحة: في المكان الذي لم يكن يمارَس فيه الرّي، كان يظهر المشهد الجاف، وإن كانت تكثر، رغم ذلك، جبال شاسعة يكتنفها السّنديان والبلّوط. هذه الغابات بدأت تُقطَع منذ منتصف القرن السّادس عشر، لبناء السّفن بخشبها، التي ستقصد «العالم الجديد»، ولأجل الرّفع من مساحة زراعات الأراضي البُور والمراعي المخصّصة للرّعي المترحّل، خاصّة للماشية المنتجة للصّوف.

لكن، بالعودة إلى الأندلسيين، لم يكن هؤلاء، من أي فئة اجتماعية كانت - خاصّة في عهد ملوك الطّوائف - يُفوِّتون الفرصة لبناء منزل في البادية، كلٌّ على قدر إمكانياته.

لحسن الحظ، بقيت لنا شهادة حيّة لما كان عليه البيت القروي الأندلسي، والتي نظراً لأهميتها، لا نستطيع أن نقاوم نقلها هنا.





الصّورة على اليمين
المغرب. حدائق بنبات كثيف.

الصّورة على اليسار
الرّباط (المغرب). فناء من الزّلّيج بنوافير ملحقة، في إقامة من الطّراز الأندلسي.

تطوان (المغرب). فناء قصر موريسكي من القرن التّابع عشر، حيث يُلمَح الطّابع الأندلسي.

إذ يقول لنا ابن ليون (1282–1349 م)، الخبير الزّراعي الألميري المعروف، حرفياً، كيف ينبغي أن يكون هذا البيت، في قرية الأندلس:

واختير في مساكن البساتين ... إشرافها لحفظها والتّعيين

تنظُر للقِبلة والبابُ على ... قُربٍ وللصّهريج والبِيرِ اعتِلا

أو عِوَض البير تكون ساقيهْ ... بالماء من تحت الظّلال جاريهْ

وما له بابان فهو أسترُ ... وراحة السّاكِن فيه أكثر

ثم يلي الصّهريج نبات يسقط ... ورقُه من كل ما ينشط

ثم من بعدُ ذوات النّوار ... وبعد ذلك بواسق الأشجار

وبالدّوالي في الجوانب وفي ... أواسط الكلّ العرايش تباع

المغرب، أربعة عناصر من الحديقة الأندلسية: فوارة، نافورة بحوض، زَلّيج وصفوف الورد.



وأسفل العرائش المماشي　　　تحيط بالبستان كالحواشي
وفي الثّمار مع ذلك العنب　　　كالميس أو سواه ممّا للخشب
ثم بعد ذلك الأرض البيضا　　　لزرع ما يراد أن ينُضّا
وقد يكون في أخيرها الشّجرْ　　　كالتين أو ما ليس ياته بضرر
وكل ما في الثّمار يَعظُم　　　يُغرَس في الجوف فذلك فهم
كي تمنع الرّيحَ الشّمال وهي لا　　　تحجب عينا أبداً أن تصلا
وقُنَّة تكون للمجالسات　　　في وسط البستان تنظر الجهات
لا يسمع الحديث بها الدّاخل　　　ولا يوافيها شخص غافل
والورد بأصولها والرّيحان　　　وكل ما يزين أرض البستان
وطوله أكثر من سعته　　　ليسرح البصرُ في رؤيته
وأسفل البستان منزل وباب　　　لضيفٍ ومؤنس من الصّحاب
وهو بصهريج وحوله شجر　　　تستره باباً على من حضر
وكل منزل بموضع حلا　　　أو موضعين ساترين اعتَلا
فإن يكن مع ذا درجٌ للحمام　　　وبرجُ سكنى كان ذاك بالتّمام[3]

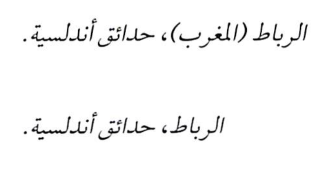
كان الأمراء وكبار أعيان النّبلاء يأمرون ببناء مُنْيات وإقامات قروية فخمة، محفوفة ببساتين – حدائق، مزوّدة بسواقٍ ونواعير ونوافير.

حتى أنه نشأ جنس شعري مخصَّص للحدائق: الرَّوضيات (من رياض، روض)، كان الشّعراء الأندلسيّون يطلقون فيه العنان لخيالهم حول الطّبيعة. وهذا الجنس متوفّر بكثرة في الأدب العربي – الأندلسي.

ولنذكر منه أحد النّماذج. وهي أبيات لابن عمار، من بلدة «سيلبيس» Silves، وكان الوزير المثير للجدل لُمعتمِد إشبيلية[4]:

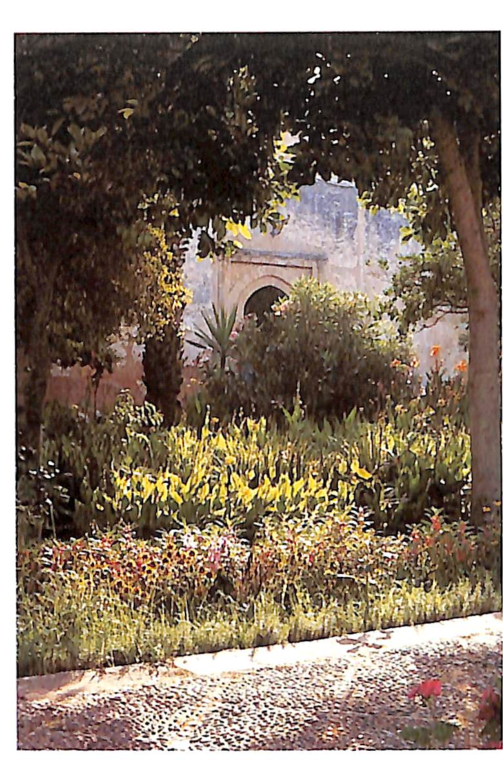
والرَّوض كالحسنا كساه زهرُه　　　وشياً وقلّده نداهُ الجوهرا

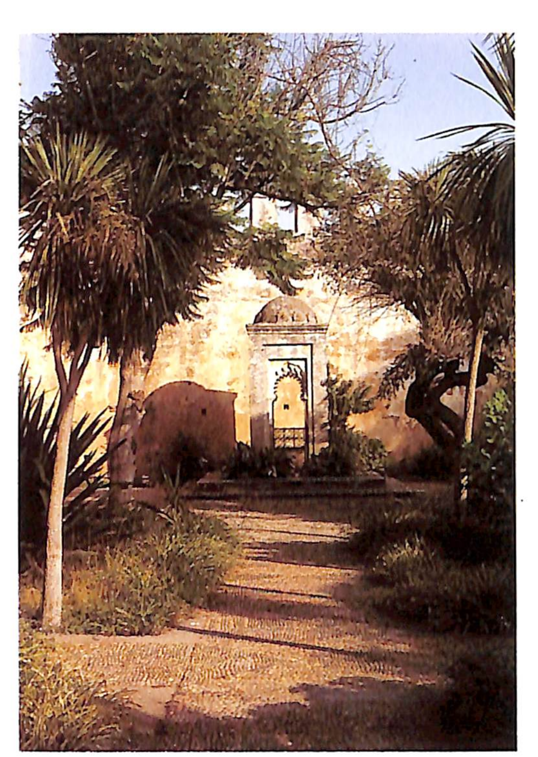
كانت الحديقة، بالنّسبة للعالم الإسلامي، مزيجاً من بُستان لأشجار الفواكه وحديقة للزّهور، إذ كانت تُغرَس وتسقى في نفس الوقت، وإن كان ذلك وفقاً لأُسس مختلفة.



الرباط (المغرب)، حدائق أندلسية.

الرباط، حدائق أندلسية.





جنان وبساتين في المدن الإسبانية

تلك الخضرة في ضواحي المدن الأندلسية الشّاسعة، التي يصفها لنا الجغرافيون العرب بحماس، لم تكن مجرّد أدب أو تكرار لأوصاف أخرى. في المملكة النَّصْرية بغرناطة، لا بدّ أن عادة بناء بيوت ببستان وحدائق ونوافير حول المدينة أخذت في التّزايد. وهي عادة ظلّت إلى أن غزاها «الملكان الكاثوليكيان»، وحتى إلى غاية بضع سنوات بعد ذلك، بفضل النّشاط الزّراعي للموريسكيين.

يخبرنا الرّحّالة الألماني «هيرونيموس مُنتْسَر» Münzer، الذي قدِم إلى إسپانيا في 1494 م، والبُندقي «آندريا ناڤدجيرو» Navagero، بعده بثلاثين سنة - واللذان سبق ذكرهما - من خلال شهادتهما، كيف كانت ضواحي غرناطة عندما قاما بزيارتها:

«على سفح الجبال (جبال غرناطة)، في سهل واسع، توجد على امتداد ميل، تقريباً، البساتين والأشجار الكثيفة التي يمكن سقيها بواسطة قنوات الماء؛ وهي بساتين - أكرِّر - مليئة بالبيوت والأبراج، مأهولة خلال الصّيف، والتي عندما تشاهدها عن بُعد، تخالها مدينة مزدحمة بالسّكان، بديعة. خاصّة باتجاه الشّمال الشّرقي، على امتداد فرسخ أو أكثر، نشاهد هذه البساتين، وليس هناك



قرية من خلال مشهد شرقي تقليدي.

ما هو أبدع من ذلك. فالمسلمون يحبّون البساتين كثيراً، وهم بارعون في غرسها وسقيها، بحيث لا يفوقهم أحد. وهم بالإضافة إلى ذلك شعبٌ يقنع بالقليل وأغلبهم يعيشون من الثّمار التي يستخرجونها منها، وهي لا تنقصهم طوال السّنة»[5].

أما «آندريا ناڤادجيرو»، فيُلمَح من خلال ملاحظاته عندما قام برحلته بإسبانيا، الولع الشّديد الذي كان لديه بالطّبيعة والبساتين والسّهول، فقد زرع بساتين بموطنه البندقية، في أراضيه بمورانو Murano.

لكن لِنَر المفاجأة التي وجدها بغرناطة، آخر معقل للأندلس:

«جميع تلك المنطقة التي تقع بعد غرناطة آسرة الجمال، وهي مليئة بالقرى والحدائق بنوافير وبساتين وأشجار وارفة، ولبعضها نوافير كبيرة وبديعة؛ وإن كانت هذه (الحدائق) تفوق غيرها حُسناً، فهي لا تختلف كثيراً عن أخرى في ضواحي غرناطة؛ سواء الهضاب أو السّهل الذي يسمّى بـ«لا ڤيغا» La Vega، فكل ذلك جميل، وهادئ بشكل بديع، ووفير المياه بحيث لا يتّسع لمزيد، تملؤه أشجار الفاكهة، برقوقٌ من كل صنف، وخوخ وتين (...)، ومشمش وبرقوق كرزي وفواكه أخرى، بالكاد تسمح برؤية السّماء بفروعها

الوارفة... وفي كافّة الجوانب، في التّلال كما في السّهل، تُشاهَد في ضواحي غرناطة بيوت كثيرة للموريسكيين، وكثيرٌ منها يختبئ بين أشجار الحدائق، قد تشكّلت في مجموعها مدينة أخرى كبيرة بحجم غرناطة؛ صحيح أنها صغيرة، ولكنها كلها مزوّدة بماء وورد، وورود جبليّة ورياحين، وهي في غاية الهدوء، ممّا يدل على أن البلد كان أجمل منه الآن، عندما كان في يد المسلمين. وحالياً، ترى الكثير من البيوت الخَرِبة والحدائق المهجورة، لأنّ الموريسكيين ينقصون أكثر ممّا يتزايدون، فهم أصحاب الأراضي المزروعة والمليئة بكل أصناف الأشجار؛ أمّا الإسبان، سواء هنا أم في باقي إسبانيا، فليسوا مُجدِّين كثيراً، فهم لا يحرثون ولا يزرعون الأرض عن طيب خاطر، بل يذهبون بحماس أكبر إلى الحرب أو إلى «بلاد الهند» لجمع ثروة بهذه الطّريقة، قبل أيّة طريقة أخرى»[6].

وإن لم تكن غرناطة «المستردَّة» سوى جزء بسيط من ذلك الأندلس المذهل لقرون خلت، فإنّ العادات الإسبانية – العربية، في عدّة جوانب من الحياة اليومية، كالولع بالعيش بين الحدائق والنّوافير والبِرَك – أحياناً منحصرة داخل فضاء مدهش – لحسن الحظ، كانت ما تزال كما هي في عصر هؤلاء الرّحالة.

ومن يدري إذا ما كانت مزارعنا بمنطقة «أندلُسيًا» المسماة *cortijos*، و«الكروم» الغرناطية المسماة *cármenes*، والإقامات الطّليطلية المسمّاة *cigarrales*، والمنازل القروية المدريدية المسماة *quintas*، والبيوت الرّيفية الأراغونية المسماة *torres*، والمزارع القروية البَلَنْسِيّة التي تحمل اسم *alquerías*، والمنازل البستانية الصّغيرة بمُرْسِيَة *casicas*، إلخ، لا تجد سلفها التّاريخي في حبّ الأندلسيين ذاك للطّبيعة!

كانت «مجريط» (مدريد) تقع بين المدن الثّانوية للأندلس، إذ لم تكن عاصمة لكورة (إقليم)، ولكنها كانت معقلاً قوياً في ممرّ استراتيجي. ولا بدّ أن «مجريط» كانت مطوَّقة بمحيط أخضر مهمّ، بقي لبضعة قرون، بعد «استردادها» من قِبَل ألفونسو السّادس لقشتالة، في القرن الحادي عشر، كما يُستنتَج من مرسوم «مجلس مدريد» لسنة 1380 م. هذا المرسوم، يتضمّن مجموعة من الأحكام لمعاقبة أولئك الذين يسرقون العنب من الكروم، والبطّيخ من المزارع، إلخ. كما أن هناك مراسيم أخرى، بعد ذلك بمئة سنة، تذكُر اللصوص الذين يقفزون فوق أسوار البساتين لأخذ التّفاح والتّين والكرز والإجّاص والبرقوق والرُّمّان... وحتى الورد!

وكل هذه الفواكه لم يكن ليتأتّى إنتاجها إلا بفضل الماء ونظام الرّيّ الذي جلبه المسلمون إلى مدريد، بواسطة استنباط المياه الجوفية.



نافورة بحوض مع فوارة، من قصر «خيريث دي لا فرونتيرا» Jerez de la Frontera (شريش).

إلا أن ذلك الولع بالهواء الطّلق لا بدّ أنه أخذ بالتّقلُّص مع الوقت ومع العقليات الجديدة للعصر الباروكي، الأكثر تمدّناً، الذي كانت الطّبيعة فيه تُتذوَّق من خلال أعمال الأدب والرّسم الكبرى، بوجه خاص. ومنذ بدايات القرن السّادس عشر حتى ظهور الفنانين «الطبيعيين» في القرن الثّامن عشر، الذين أعادوا فتح الأبواب أمام «الطبيعة الأم»، لم تكن إسبانيا آل هابسبورغ تحبّ، بوجه عام، التّردّد إلى الضّواحي الرّيفية للمدينة.

ويصف لنا، تورّيس بالباس Torres Balbás بدقَّة بالغة، وهو الذي درس المدن الأندلسية ومشاهدها بِحسٍّ عالٍ، خصائص تلك المدن الإسبانية في القرن السّادس عشر.

«في الهضبة الوسطى، اكتسب التّمايز بين انفتاحها السّابق وانغلاقها لاحقاً، خصائص جدّ بارزة. لم تفقد قرى ومدن منطقة «أندلُسيا» ومنطقة الشّرق، بسهولها وحقولها الخصبة، في القرون الأخيرة، حزامها النّباتي بشكل جذري كالقشتاليّة. ولقد أسهم المناخ، الذي كان أكثر اعتدالاً، والأرض التي كانت أكثر سخاء، في الحفاظ على ضِياع في الضّواحي، بين موانئ

وحقول زراعية، لكنها لم تكن بوفرةٍ ولا باتساعٍ ولا بحُسنِ تلك التي كانت موجودة في ماضيها الإسلامي؛ إذ لم يكن يسكنها سوى مزارعين متواضعين متفرّغين لزراعتهم»[7].

المُنْيات الأُمويّة

بعودتنا إلى عصور الازدهار السّياسي والثّقافي بالأندلس، يثبُت لدينا العدد الكبير للمُنْيات المَلَكيّة التي كانت متواجدة عبر سائر الجغرافية الأندلسية. ولقد بقيت إقامات الاستجمام هذه خالدة من خلال الكتب الإخبارية، وإن كان لم يبقَ منها شيء.

لقد بنى عبد الرّحمن الدّاخل (756–788 م)، وهو أول أمير أقام إمارة مستقلّة بالأندلس، مُنْية على ضفة جدولٍ يحمل مياه الجبل، بالشّمال الشّرقي لقُرطُبة، وعلى بعد بضعة كيلوميترات من المدينة. وأسماها «الرُّصَافة» (حيث توجد اليوم *Arruzafa*)، كذكرى مطبوعة بالحنين للقصر الذي يحمل نفس الاسم، والذي كان يملكه في برّ الشّام، جدّه هشام الأول، خليفة دمشق الأموي.

في الرُّصافة، كان عبد الرّحمن الأول يقضي أوقاتاً طويلة في قصره محاطاً بحدائق واسعة حيث أمر بغرس نباتات مُستقدمة من الشّرق، وخاصّة من شامه التي كان يحنّ إليها. وفي حدائق الرّصافة، كانت للنّخيل مكانة متميّزة، وكذلك لأشجار الرُّمّان والتّين.

فيما يتعلّق بالرُّمّان، يذكُر المؤرِّخ ابن سعيد أن عبد الرّحمن الأول كان قد بعث من قُرطُبة سفراء إلى الشّام، بهدايا لأخت له تقيم هناك. وقد أجابت أخت الأمير بإرسالها إليه منتوجات وفواكه من الشّام، من بينها رُمّانٌ من الرُّصافة الشّامية، ذو جودة عالية، لحلاوة مذاقه، وجمال شكله ولونه، قسَمه الأمير بين مبعوثيه.

وقد زرع أحد هؤلاء، واسمه سَفر، في قريته بمالقة بذور ذلك الرُّمّان، معتنياً به كما يجب، بالماء والسّماد، إلى أن حصل على فاكهة فاخرة تشبه فاكهة الشّام، وقدَّمها إلى عبد الرّحمن الأول، الذي لإعجابه بجودة الرُّمّان الذي حصل عليه، بالإضافة إلى مكافأة خادمه، أمر بغرس بذوره في حدائق الرّصافة القُرطُبية وفي باقي حدائق قصوره. وبهذه الطّريقة، انتشر ذلك الرُّمّان الشّامي في كل أرجاء الأندلس، وعُرِف باسم ذلك الشّخص الذي قام بأقلمته: الرُّمّان السّفَري (أو المسافر).

كما كانت هناك مُنْياتٌ أخرى كثيرة في قُرطُبة بمحيط المدينة، خلال القرنين التّاسع والعاشر.

على الضّفة الأخرى للجسر، في منطقة «سقُندة» Secunda وعلى مقربة من الأرحاء، شيَّدت «عجَب»، إحدى زوجات الحَكَم الأول (796–822 م) مُنْية بحديقة عظيمة، جعلت ثمارها لإعالة مُستشفى قريب للجُذماء. وقد عُرِفت هذه المُنْية باسم «مُنْية عجَب».



حدائق «جنّة العريف» El Generalife، مشهد للمدينة من منطقة البساتين.

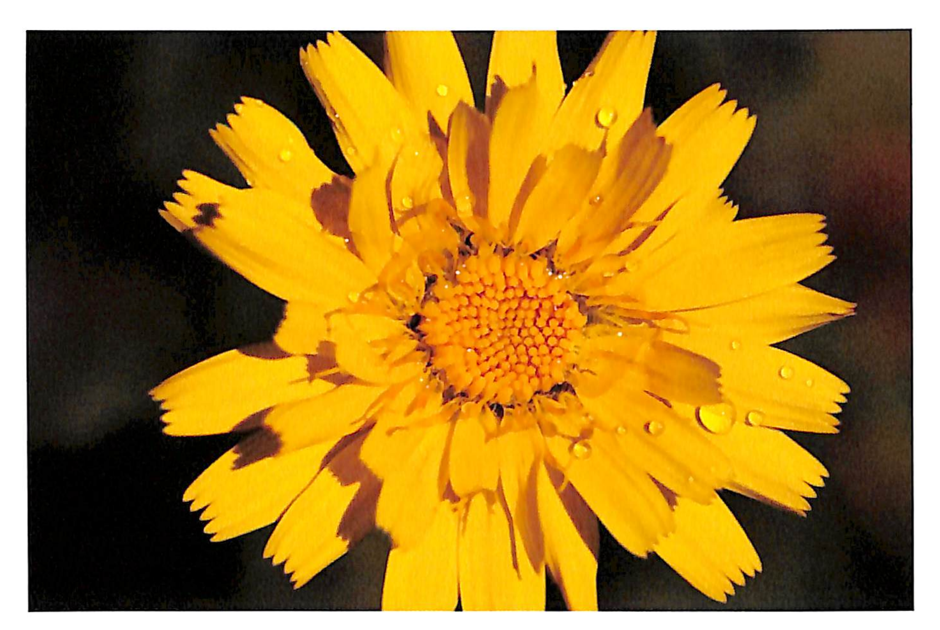
وعلى الضّفة اليُمنى للوادي الكبير، ما بعد ساحة «المُسارة» والأسوار، أمر الأمير عبد الله (888–912 م) ببناء إقامة فخمة ببستان بديع وشاسع، بعدد كبير من الأشجار والنّباتات، تسقيها النّواعير التي كانت ترفع الماء من النّهر القريب. وقد أهدى عبد الله هذه المُنية، التي عُرِفت باسم «مُنْية النّاعورة» لحفيده، الذي سيصبح لاحقاً الخليفة عبد الرّحمن الثّالث.

وقد جعله الخليفة إقامته المفضّلة خلال السّنوات الأولى من عهده، ثم تحوّل لاحقاً إلى إقامة للوجهاء من الضّيوف الذين كانوا يزورون قُرطُبة. وقد أقام بها أردونيو الرّابع Ordoño IV صاحب ليون، عندما تمّ طرده من قشتالة ولجأ إلى الحَكَم الثّاني، لكي يطلب منه العون.

عند الجنوب الشّرقي، أيضاً في «سقُندة»، وفي وسط منعطف «الوادي الكبير»، كانت توجد مُنْية أخرى معروفة. وكانت مِلكاً لنَصْر، الذي كان من بين الخصيان الذين يحظون بثقة الأمير عبد الرّحمن الثّاني (822–852 م)، وقد عُرِفت باسم «مُنْية نَصْر» وكذلك باسم «أرحاء الحنّاء». وكانت بها حدائق مليئة بالسّواقي الغزيرة بمياه «الوادي الكبير» ومبانٍ بديعة. وبعد أن أهديت



النّسرين. كانت الورود محبوبة للغاية، سواء في البستنة أو في التّجميل وتحضير العطور.



الهندباء البرية، زهرة تنمو بكثرة في شبه الجزيرة الإيبيرية.



القريضة، وهي نوع من نبات الشّعراء البري، خاص بالأنظمة البيئية المتوسّطية.

لاحقاً إلى الخليفة الحَكَم الثّاني، أصبحت أيضاً إقامة لشخصيات أجنبية بارزة، مثل سفراء إمبراطور بيزنطة، في سنة 949 م.

وكانت ضواحي هذه المُنْية إلى غاية ضفّة الوادي الكبير مليئة بأشجار الزّيتون، التي توفّر الرّطوبة والظّلّ الوارف؛ ولهذا السّبب، اختارتها الفئة القُرطُبية الثّرية في القرن العاشر كمكان للاجتماع والتّجوال، خاصّة في الأُمسيات الصّيفية.

يوم استجمام في مُنْية ملكية

كيف كان الجوّ المحيط بهذه المُنْيات؟ لقد كانت لقضاء بضعة أيام للاستجمام؛ بعيداً عن التّوترات التي تسبِّبها دائماً ممارسة السّلطة.

كان نساء الأسرة ينتقلن إلى المُنْية في محفاّت، ملتحِفات بحجابهن ومُحاطات بالخدم، الذين كانوا من الخِصيان والجواري والمُربِّيات. موكبٌ حقيقي يسبقه الطّباخون والموسيقيون. وكان يرافقهن أصغر أبناء الأسرة.

عند الوصول إلى المُنْية، كن يمكثن، بين ضجيج الصّغار، في أروقة مخصَّصة لهن، بحدائق خاصّة ينتشر بها عطر الورد، وزهور الآس والياسمين. وكانت النّساء الأكبر سناً يحرِصن على إعطاء تعليمات للخصيان والخادمات، حتى يكون كل شيء على أكمل وجه وقت الطّعام.

عند المساء، بين نسائم الحديقة التي سُقيت للتو، وخرير الماء الذي يجري في السّواقي، كان بوسع نساء الأسرة وضيفاتهن أن يصعدن إلى أحد أبراج المزرعة والجلوس بإحدى الغُرف المفروشة بالسّجاد، بنوافذ واسعة محاذية للأرض. ولعلّهن من تلك المنظرة، من خلال مشربيات فنّية، كن يتفحّصن السّهل و«الوادي الكبير» وأبعاد قُرطُبة عند المغرب. وإذا ما استطعن كذلك، كنّ يشاهدن الضّيوف الذين قد وصلوا إلى الحديقة الأساسية.

بعد العشاء، بين أحاديث شائقة، كانت النّساء الأكبر سناً يلتمسن من «السّيدة» أن تقوم إحدى الفتيات الحاضرات، من اللائي يملكن صوتاً جميلاً ويُجِدن العزف على العود، بأداء أغنية مشهورة، من تلك التي كثيراً ما كان يؤلفها أبرز الشّعراء. الأمر الذي لم تكن الفتاة الشّابة، مع خجلها، ولكن بهدف الاشتهار، ترفضه البتّة.

وفي تلك الأثناء، يكون السّلطان أو صاحب المُنْية يتحدّث إلى ضيوفه في أروقة مجهّزة خصّيصاً في الحديقة الأساسية، حيث توجد البِركة الكبيرة بفوّاراتها المتعدّدة. وهناك ربما كان يوضع عشاء سخيّ «بألف صنف من لذائذ الطّعام المُبهرة وأنواع الفواكه اللذيذة»، التي جُنِيت للتّو من البستان القريب لهذه المناسبة، والتي ربما كانت يد الأمير بنفسه هي التي غرستها. وهي فاكهة كانت تقدَّم لكل الضّيوف، مهما كان عددهم كبيراً.

غرناطة. حدائق «جنّة العريف» El Generalife. مُنْية صيفية للملوك النَّصريين.



بين صوت الفوَّارات والموسيقيين، لم يكن الحديث يدور نهائياً حول السّياسة، إذ يتعلّق الأمر بيوم استجمام ومن واجب الضّيافة الإسلامية عدم الخوض في أحاديث مشحونة بالمشاكل أثناء تناول الطّعام. ولكن ربما، نعم، كان يتم انتقاد هذا الزّميل الموظف أو ذاك، حتى وإن كان من وراء السّلطان، إذ لم يكن ذلك غير مثير للتّوتر فحسب، بل مُريحاً للغاية.

مع تقدُّم الليل، وبعد الضّيافة، ربما كان الضّيوف الأقلّ قرباً من أسرة الأمير ينصرفون، ليبقى الأقارب ومَن هم، من بين حاشيته، يحظون بثقة أكبر. وهناك، مستقرّين في أروقة مجهَّزة خصّيصاً لهم، بجانب الحديقة الرّئيسية، كانوا يحاولون النّوم، رغم صرير النّواعير القريبة، التي يحرِّكها تيار النّهر، دون توقُّف.

وهكذا، بفضل الأخبار التي تركها لنا، متقطِّعةً في كتبهما، سواءٌ المفكّر القُرطُبي ابن حَزم أو المؤرِّخ ابن حيّان، حول الحياة البلاطية في قُرطُبة الخليفية، استطعنا أن نقترب، ونستريح على مرِّ يوم، في مُنْية للسّلاطين الأمويين.

في قُرطُبة، كانت توجد العديد من القصور الصّيفية والمُنْيات، حتى أننا لا نستطيع أن نذكرها جميعها. وقد ترك لنا المؤرِّخ ابن سعيد إشارات إلى عدّة قصور وإقامات ملكية ببساتين وحدائقَ في ضواحي قُرطُبة، بناها الأمويون وأعيانهم، مثل «مُنْية السّرور»، و«قصر المَعشوق»، و«قصر التّاج»، بالإضافة إلى أخرى كثيرة.

وكان هناك أيضاً قصر اسمه «دِمَشْق»، شيَّده الأمويون الذين كان يشدّهم الحنين (لبلدهم)، يقال إنه كانت به أعمدة رخامية بديعة وأرضيات بفسيفساء من ألف لون. فحدائقه فيها:

> «طاب الجنى وفاح المشم، منظرٌ رائق وماءٌ نمير، وثرى عاطر وقصر أشم، بتُّ فيه اللّيل والفجر عندي عنبر أشهب ومسك أحم»[8].

إلا أن موقع هذا القصر بقُرطُبة مجهول تماماً بالنّسبة إلينا.

حدائق ومُنْيات في عهد ملوك الطّوائف والمغاربة

بعد سقوط حكم الأمويين (1031 م)، إثر حرب أهلية (أو فِتنة)، تفكّكت الأندلس إلى العديد من دويلات الطّوائف. وقد أراد ملوكها، إلى جانب السُّلالتين ذاتي الأصل المغربي (المرابطون والموحِّدون)، اللتين تزامن حكمهما معهم في كل الأندلس، إعادة نسخ ذلك الازدهار للخلافة القُرطُبية في ممالكهم مرّة أخرى، وتنافسوا، ضمن أمور أخرى، في امتلاك المُنْيات الشّهيرة.

طُلَيطُلة :

عديدة هي البساتين التي كانت موجودة في محيط طُلَيطُلة وسهلِها بـ«التّاج» El Tajo، إذ كانت تُشاهَد العديد من المُنيات والأبراج بين أشجار الفواكه، حسب وصف الجغرافي الإدريسي في القرن الثّاني عشر، وبالتّالي، لا بدّ أن وصفه يشير إلى طُلَيطُلة ما قبل الغزو الإسباني عام 1085 م.

خارج المدينة، من الجهة الأخرى لجسر «القنطرة» Alcántara، بجانب نهر «التّاج»، وحيث يوجد اليوم القصر المسمّى بـ«غاليانا» Galiana، هناك على الأرجح - حسبما يذكره المؤرِّخون - كانت تقع المُنْية العظيمة لملك طُلَيطُلة المُسلم، المأمون بن ذي النّون (1043–1075 م)، المعروفة بـ«المُنْية المَنصورة».

وإن كان هذا الموقع، حسب مؤلفين آخرين، يوجد في الجانب الأيمن للنّهر، بين جسور «القنطرة» Alcántara و«سان مارتين» San Martín، إلا أن الاحتمال الأول يبدو أكثر مصداقية، ذلك أن الكتب الإخبارية الوُسْطَوية المسيحية تذكر وجود مُنْية ملكية في تلك المنطقة التي تسمّى بـ«بستان الملك» Huerta del rey.

وقد كلَّف المأمون الخبير الزّراعي ابن الوافِد، وعلى ما يبدو كذلك ابن البَصَّال، بغرس بساتينها وحدائقها.

كانت لحديقة هذه المُنْية الشّاسعة بِركةٌ عظيمة بِرواق مدهش في الوسط، سبق أن تحدَّثنا عنهما من قبل؛ وكان ذلك الرّواق يسمّى «مجلس النّاعورة». وينقل المؤرِّخ المَقَّري قصيدة لابن خاقان، حول قصّة لشاهد عيان، هو ابن السّيّد البطليوسي، كان قد دعاه المأمون في عدّة مناسبات إلى استقبالات في مُنيته الشّهيرة. ويروي ابن السّيّد أنّ الماء كان يجري «كالأفاعي»، بين المروج، «والزهر عبِقٌ، وعلى ماء النّهر مُصطبحٌ ومغتبق، والدّولاب يئنّ كناقة إثر حوار، أو كثكلى من حرّ الأوار»، بجانب نهر التّاج، في إشارة منه إلى الصّرير الذي تُحدثه العجلة الهيدروليكية وهي تدور.

وفي عام 1085 م، عندما استولى ألفونسو السّادس لقشتالة على طُلَيطُلة، بواسطة معاهدة استسلام، نصت إحدى الاتفاقيات على أن تصبح «المُنْية المنصورة» مِلكاً له.

لاحقاً، فإنّ كلّاً من المرابطين أو الموحِّدين أو المسيحيين، بحِصاراتهم لطُلَيطُلة وتدمير بساتينها وزرعها، باستعمال الاستراتيجية الحربية المتمثّلة في «حرق أرض العدو»، سيدمِّرون، شيئاً فشيئاً، هذه المُنْية الطّليطلية الجميلة.

فقط في القرن الرّابع عشر، أهداها ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر لعشيقته ليونور دي غوثمان Leonor de Guzmán، وبهذه المناسبة، تم بناء قصر جديد عُرف، كما أشرنا من قبل، بقصر «غاليانا» Galiana.

وفي القرن التّاسع عشر، كان مِلكاً للإمبراطورة إوخينيا دي مونتيخو Eugenia de Montijo،



حدائق قصر «غاليانا» Galiana، بطُلَيطُلة، من أصل أندلسي، وقد أعيد بناؤها منذ عهد حديث.

واليوم هي مِلك لعائلة أراووث – مارانيون Araoz–Marañón. وقد كان القصر حديثاً هدفاً لإعادة هيكلة، مع أنها كانت مناسِبة، لكنّها كانت مثاراً للجدل.

ورغم ذلك، ومع تخريبات أواخر العصر الوسيط، يوافينا «آندريا ناڤادجيرو» بأخبار حول بساتين مزروعة، خلال الفترة التي زار فيها طُلَيطُلة:

«قبل وصوله إلى طُلَيطُلة، يمرّ النّهر بسهلٍ يسمّى «بُستان الملك»، وكلّ ما فيه يسقى بنواعير، وهي عجلات هيدروليكيّة تُستخرج الماء من النّهر، ولذلك فهو مليء بالأشجار والثّمار العديدة، وكله زرعٌ وبساتين، تتزوّد منها المدينة بالخُضار، وخاصّة منها الحرشف، والجَزر والباذنجان، الذي يستهلك كثيراً هنا. وفي هذا السّهل، يوجد قصرٌ قديم خَرِب يسمّى «قصر غاليانا»، وكانت ابنة ملك مُسلم...»[9].

إشبيلية:

في القرن الحادي عشر، ستأخذ هذه المدينة زعامة الأندلس، بعد أن تنازلت عنها قُرطُبة التي كانت قد تدهورت، وستعيش فترات من الازدهار حول الأسرة العَبّادية، والبِركة الهادئة التي كان يشكِّلها «الوادي الكبير» وهو يعبرها. وعلى امتداد مسافة 24 ميلاً، كانت تمرّ بالنّهر الكبير مراكبُ في كافّة الضّواحي الإشبيلية، ممّا كان يجعل المُنْيات والأبراج تكثر بين أشجار الفواكه والغياض، على الضّفتين كلتيهما.

وقد اشتهر «مرج الفضّة» على ضفاف «الوادي الكبير»، والذي كان بعيداً بعض الشّيء عن إشبيلية. إلى هذا المرج، كان يأتي الإشبيليّون المتأنقون إلى غاية القرن الثّالث عشر، حيث كان مكاناً للاجتماعات غير الرّسمية والمرح. في هذا المكان، وجد المُعتمِد «اعتماد»، التي ستصبح زوجته، والتي لم تكن سوى جارية وكانت تدعى «الرُّميكيّة».

كما كان يستقبل الكثير من الزّيارات أيضاً «سهل العروس»، و«أكاثياس» Acacias في «ألخارافِه» Aljarafe، و«منظرة العين» Mirador de la Fuente، التي كانت تكسوها الزّهور في الرّبيع. ولا بدّ أن جُزيرات الوادي الكبير كانت تضمّ الكثير من المقاصف التي يلجأ إليها عموم النّاس، في مراكب، للأكل والشّرب.

ولقد شيّد سلاطين بني عَبّاد أيضاً إقامات فخمة بين الخُضرة. ويَذكُر المؤرِّخون الإخباريون أنّ المُعتمِد قد بنى، على بحيرة يابسة (البحيرة الكبرى)، مجلساً للاستراحة محاطاً بكثافة الحدائق والبساتين.

بعد وقت غير طويل، وفي نفس المكان، أمر الخليفة الموحِّدي أبو يعقوب يوسف (1163-1184 م) ببناء قصور جبّارة سُمّيت بـ«البُحيرة»، وأمر بغرس زيتون استُقدِم من «ألخارافِه»، وتين وكروم وتفّاح وإجّاص - من صنف الكُمّثرى - من غرناطة وغواديكس Guadix (وادي آش) وبرقوق. ولا بدّ أن أقلمة هذه النّباتات في «البُحيرة» قد تمّت بإتقان، إذ أن فاكهة أبي يعقوب اشتهرت بتنوع أصنافها ومذاقها الحلو اللذيذ. وقد أسهم في ذلك، بلا شك، الماء الذي كان يُجلب إلى الحديقة من «أنابيب قرمونة».

بَلَنْسِية:

في بَلَنْسِية، استقرّ الأميريون، على إثر سقوط حكم الخلافة القُرطُبية في عهد المنصور وأبنائه (1009 م). وكان أقارب المنصور يسمَّون بالأميريين، سواء بِصلة الدّم أو الخدمة، فكلّهم كانوا يتّخذون هذا الاسم العائلي. وفي الأراضي البَلَنْسِيّة، أسّسوا مملكة للطّوائف بمدينة ببَلَنْسِية ودينيا Dénia (دانية).

وقد أمر أحد أحفاد المنصور، وهو ابن عبد العزيز (1021-1061 م)، الذي حكم بَلَنْسِية،

ببناء مُنْية في ضواحي المدينة. ويُروى أنّ السّلطان الأميري، يوم افتتاحها أقام حفلاً عظيماً ووزّع العديد من الهدايا والهبات. في عهد المرابطين، كانت تجري بهذه المُنْية، بين البساتين وأحواض الزّهور، ساقية كبيرة تقطعها. وفي الوسط، كان يوجد قصر. وبعد ذلك، تحوَّلت إلى مُتنزّه عمومي.

وكانت «الرُّصافة» مكاناً آخر معروفاً للاستجمام ببَلَنْسِية، وهي حديقة خارج المدينة باتجاه الجنوب الشّرقي، تَغنَّى بها الشّاعر البَلَنْسي، الرُّصافي.

لقد كانت الأراضي الظّليلة والخُضرة الموجودة في محيط بَلَنْسِية، والتي كانت ترويها، حسب ما يذكره الإدريسي، سواقي نهر «توريا» Turia، وفيرة لدرجة أنّ الجنود المسيحيين الذين غزوها من جديد اضطرّوا إلى قطع جزء من الأشجار، خوفاً من الكمائن.

غرناطة: زفرة العربي

أمّا غرناطة، آخر معقل للأسرة النّصْرية، فهي «المُسلمة» الكبرى بينها جميعاً. فلقد لبث الحُكم الإسلامي بها زهاء ثمانية قرون وكانت آخر مدينة تمّ «استردادها». لقد سبق لنا الحديث قبلاً عن «جنّة العريف» بها، وهي إقامة ومزرعة صيفية للملوك النَّصْريين، وأشرنا إلى المشهد الذي كانت عليه بُعَيد الغزو.

وكان طولُ الفترة الإسلامية بها سبباً في ازدياد تعاقب السّلاسلات المسلمة عليها: من الأمويين، والزّيريين والمرابطين والموحّدين، إلى مملكة النَّصْريين المستقلّة، الذين كانوا من أصل عربي بعيد. إلا أن المزيّة المشتركة بينهم جميعاً كانت هي خصوبة أرض غرناطة ووفرة مائها، الذي كان مصدره إما أحد النّهرين اللذين يحيطان بها، «حَدَرّه» Darro و«الخينيل» Genil، (نهر شنيل) أو ينابيع غزيرة، تتجمّع في جداول.

أمّا خصوبة سهلها، منذ القرن الحادي عشر، فقد قام بوصفه جميع الشّعراء، المسلمون منهم والمسيحيون، إلا أن وصف الغرناطي ابن الخطيب، يفوقها جميعاً، عندما يتحدّث عن المُنْيات التي كانت تحفُّ بغرناطة كسِوار من الخُضرة، بمئات الجنان، مثل جنّة «البِركة» أو «العريف»... كروم وتفاح وحبوب وخُضر في كل جهة... عدد كبير من المُنْيات البديعة للملك وأعيان غرناطة...، ومياه «حَدَرّه» و«الخينيل» المحصورة في قنوات، تجري في كل اتجاه.

كانت هناك مُنْيات ملكيّة بجانب نهر «الخينيل»، جنوبَ السّهول التي تعلوها غرناطة، مثل المُنْية المسماة بالمَنجَرة الكبرى والصّغرى. كانت الكبرى مِلكاً لأم الملك أبي عبد الله، وإلى جانبها كانت هناك مُنْية أخرى بديعة ببستان كبير، كانت مِلكاً لزوجة أبي عبد الله. وكانت المُنْيات الثّلاث تشمل ما يسمّى اليوم «إل رياليخو» El Realejo وشارع سانتياغو Santiago إلى غاية

طريق «الخينيل» El Genil.

وقد سُلِّمت المنجرتان من قِبَل «الملكين الكاثوليكيين» إلى فراي توماس دي توركيمادا Fray Tomás de Torquemada، الذي سيصبح لاحقاً محققاً عاماً لمحكمة التّفتيش.

فوق، في البيازين، كان يُصعَد نحو «لوس كارمينيس» Cármenes، الواقعة بـ«عين الدّمع»، والتي ستُعرف لاحقاً بـ *Ainadamar*، بزراعاتٍ للنّباتات العطرية والزّهور، ترويها ساقية «الفخّار» Alfacar؛ وعلى حدّ قول «آندريا ناڤادجيرو»: «على بعد ميل ونصف من غرناطة، توجد عينٌ كبيرة وبديعة تحمل ذلك الاسم، وماؤها فريدٌ وصحّي، ومنها يشرب تقريباً كل الموريسكيين...؛ هذه المياه تزوّد بدايةً الجزء الأعلى، ثم الأسفل من المدينة»[10].

هنالك عيون أخرى كثيرة، مثل عين «لا تيخا» La Teja، في ضواحي المدينة، باتجاه ضفة «حَدَرّه»، و«عين المِلكة» Fuente de la Reina، عند مخرج «باب إلبيرة» Puerta de Elvira؛ وكان ماء عين «لا تيخا» ذا قيمة كبيرة لدى الغرناطيين، خاصّة في الصّيف.

وأمام «البيازين»، في ربوة «السّبيكة»، بأعلى «جنّة العريف»، كانت هناك قصور صيفية أخرى: «لوس أليخاريس» Los Alijares و«دار العروسة»، بين بِركٍ وفوّارات وآس ورياحين، بفضل آليات معقّدة تعتمد على نواعير وشبكة للقنوات، مكّنَت من توصيل الماء إلى غاية تلك القِمم.

ليس من المستغرب، إذن، أن يكون أبو عبد الله قد تنهّد وهو خارج باتجاه المنفى، وأن يرى بأنه بفقدانه لغرناطة، قد فقد فردوساً. آخر فردوس للأندلس.

لقد كان الرِّثاء الشّعري لِما امتُلِك يوماً وفُقِد موضوعاً مكروراً بين سائر الشّعراء، وخاصّة بين الأندلسيين منهم. وهم يعبِّرون فيه عن الحنين إلى ازدهار ماضٍ.

وكأنهم بذلك كانوا يستبقون الحركة الأدبية للرّومانسية الأوروپية التي نشأت بعد ذلك بعِدَّة قرون، هنالك ذكريات تستحضر ما قد تُرِك: وقد ألَّف أبو بكر المخزومي، وهو قُرطُبي نُفي في القرن الحادي عشر، أبياتاً عن مسقط رأسه، قُرطُبة:

أقُرطُبةَ الغَرّاءَ هلْ لي أوبةٌ إليكِ وهل يدنو لنا ذلكَ العهدُ

لياليكِ أسحارٌ وأرضُكِ روضةٌ وتُربُكِ في استنشاقها عنبرٌ وورد

ويروي الصّوفي المُرْسي محيي الدّين ابن عربي أنه قد زار بقايا مدينة «الزّهراء» في أوائل القرن الثّاني عشر. وهناك كان طائر يشدو دون انقطاع على غصن شجرة؛ فخاطبه ابن عربي[11]:

فـقـلـتُ: عـلـى مـــاذا تـنــوحُ وتشتكي　　　فـقـالَ: عـلـى دهـــرٍ مضى لـيـسَ يـرجـعُ

لكن، رغم الحنين، ما بقي من كل ذلك تم إحياؤه مع الوقت، واستطاع، رغم كل شيء، أن أن يكون مثار إعجاب، ضمن أشياء أخرى، بفضل الماء: أفضل وسيلة لخداع الحواس.

لقد كتب الإنساني الإيطالي الكبير، پييترو مارتيرِه دانغييرا Pietro Martire d'Anghiera (1457–1526 م)، عندما زار غرناطة في الرُّبع الأول من القرن السّادس عشر، متحمّساً، في إحدى رسائله الشّهيرة[12]:

> «كافّة البلد، جُملةً، لرونقها وجمالها، ووفرة مياهها، تشبه «الشّانزيليزيه». وأنا بنفسي اختبرتُ كيف أنّ هذه الجداول الصّافية، التي تجري بين أشجار الزّيتون الوارفة والبساتين الخصبة، تنشِّط النّفس المُعنّاة، وتعطي نفَساً جديداً للحياة».

كان مستحِقاً للعناء، إذن، جهدُ أولئك الأندلسيين.



غرناطة. منظرة «مُريمة» Mirador de Moraima، إقامة أندلسية قديمة بـ«البيازين». في الخلفية، برج «كوماريس» Comares (قُمارِش) والحمراء Alhambra.

الحواشي

الفصل الأول

1. خ. بالبِه: التّقسيم الإقليمي لإسبانيا المسلمة، ص 29 و25.
2. الحِمْيَري: الرّوض المعطار. نصوص وُسْطَوية 10، ص 365–366.
3. ميثاق بَلَنْسِية 35، في مواثيق بَلَنْسِية. تصنيف تاريخي للقوانين التّنظيمية لهذه المملكة، لـ ر. غايانو يوتش، ص 206.
4. حسب نشرة لافوينتِه ألكانترا لـ أخبار مجموعة، 18، في إسبانيا المسلمة لـ ك. سانتشيث ألبورنوث.
5. الزُّهري، كتاب الجغرافيا، ص 136–137 و151 في خ. بالبِه، التّقسيم الإقليمي لإسبانيا المسلمة.

الفصل الثّاني

1. في البيان المُغرب لابن عِذاري، ترجمة إ. فانيان، ص 398.
2. ابن عِذاري، نفس المصدر، ص 240 النّص العربي، و396–397 في ترجمة إ. فاغنان.
3. الحِمْيَري، كتاب الرّوض المعطار، في نصوص وُسْطَوية، 10، ص 84.
4. ابن حيّان، المقتبس، ترجمة إ. غارثيّا غوميث، ص 88 و183.
5. ابن حيّان، المقتبس V، ص 321–322.
6. ابن عربي، رسالة القُدُس، المخطوط رقم 741، ترجمة م. أسين پالاثيوس، حياة الأولياء الأندلسيين، دار نشر إيپيريون، ص 55–57.

الفصل الثّالث

1. ابن العَوَّام، كتاب الفلاحة، الجزء 1، الفصل 3، 1802، ترجمة خ. أ. بانكيري، نشرة أصلية «مايا» M.A.P.A، 1988، ص 134–147.
2. في: العلم في الأندلس لخوليو بِرنيت، ص 24.
3. المَقَّري، «نفح الطِّيب» - وفقاً للنّشرة الإنكليزية لغايانغوس، مترجمة إلى الإسپانية في: إسپانيا المسلمة لـ ك. سانتشيث ألبورنوث، ص 274–275.
4. نصّ لابن حيّان، ينقله ابن بسام في الذّخيرة، القاهرة 1979، الجزء الرّابع، ص 126–137، النّشرة الإسپانية (خ. سانتشيث راتيا) في: طُلَيطُلة الإسلامية لـ ك. دِلغادو باليرو، ص 247.

الفصل الرّابع

1. مُنتْسَر، هـ. رحلة إلى إسپانيا والپُرتُغال، دار نشر پوليفيمو، ص 95.
2. نص لابن حيّان منقول في الذّخيرة لابن بسام، القاهرة 1979، الجزء الرّابع، في: طُلَيطُلة الإسلامية لـ ك. دِلغادو.
3. ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ترجمة إ. غارثيّا غوميث، في كتابه بؤرة ضوء قديمة على الحمراء، مدريد، 1988، ص 155، 156.
4. ازدهار الأندلس لـ هـ. پيريس، ترجمة م. غارثيّا أرينال، ص 343.
5. ابن رُشد، تلخيصات جِالينوس، التّرجمة الإسپانية لباثكيث دي بِنيتو، سلامانكا، 1987، ص 266.
6. ابن الخطيب، كتاب الوصول لحفظ الصّحّة، التّرجمة الإسپانية لباثكيث بِنيتو، ص 34.
7. ابن الخطيب، نفس المصدر، ص 149.

الفصل الخامس

1. الحِمْيَري، الرّوض المعطار، ترجمة پ. مايستر، ص 282، 283.
2. المَقَّري، نفح الطّيب، حسب نشرة غايانغوس، التي نقلها سانتشيث ألبورنوث في إسپانيا المسلمة، ص 276.
3. المَقَّري، نفح الطّيب، (مقتطفات أدبية، 2، ص 473).

4. المَقَّري، نفح الطّيب، (مقتطفات أدبية، 1، ص 288، 289).
6. هيرونيموس مُنتْسَر، رحلة إلى إسپانيا والبُرتُغال، (Itinirarium...)، وفقاً لترجمة خ. لوپيث تورو)، ص 99.
7. آندريا ناڤادجيرو، رحلة حول إسپانيا (1524–1526)، «تُرنر» للنّشر، ص 48، 49.
8. رثائية، لفرانثيسكو بيّائيسپيسا (في تاريخ الأدب العالمي، لمارتين ألونسو، الجزء الثّاني، ص 017, 1، 018, 1).

الفصل السّادس

1. ابن خلدون: المقدّمة، ترجمة إ. طرابلسي، ص 204.
2. الحِمْيَري، المصدر السّالف الذّكر، 344–345.
3. ابن خلدون، المصدر السّالف الذّكر، ترجمة إ. طرابلسي، ص 211.
4. بِغضِّ النّظر عن هذه المقارنة المحدَّدة التي نشير إليها هنا، بين نهر النّيل و«شقورة» Segura و«وادي الطّين» Guadalentín، يقارن الجغرافيون العرب، بصفة مستمرّة، بين النّيل وأنهار شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تسبِّب فياضانات.
5. العُذري، مقتطفات جغرافية – تاريخية، ص 1، في ت. ف. غليك، الرّي والمجتمع في بَلَنْسِية الوُسْطَوية، ص 275.
6. مواثيق بَلَنْسِية، الميثاق 35، في إ. جوبير دى پاسّا، قنوات الرّي بكتالونيا ومملكة بَلَنْسِية، 1844، الجزء 1، نشرة أصلية، «ماپا» MAPA، جامعة بَلَنْسِية، 1991، ص 141، 142.
7. ف. جوبير دى پاسّا، الجزء 1، المصدر السّالف الذّكر، 1991، ص 88–89.
8. ف. جوبير دى پاسّا، الجزء 1، المصدر السّالف الذّكر، 1991، ص 91–92.
9. في نصوص شعرية...، لـ إ. تيريس، ص 292.
10. المدوَّنة الأولى لتاريخ إسپانيا العام، مِنينديث پيدال، ص 573.
11. ابن حوقل، كتاب المسالك والممالك، ترجمة م. خ. روماني، نصوص وُسْطَوية، 26، ص 63–66.
12. في هـ. پيريس، المصدر السّالف الذّكر، ص 153.
13. ابن حوقل، المصدر السّالف الذّكر، ص 66–67.
14. الحِمْيَري، المصدر السّالف الذّكر، ص 126–127.
15. عبد الباسط بن خليل بن شاهين، الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم، نشرة ل. دِلّا بيدا، الأندلس 1، ص 315.
16. مُنتْسَر، المصدر السّالف الذّكر، ص 105–107.

الفصل السّابع

1. مواثيق أراغون، في توماس غليك، الرّي والمجتمع في بَلَنْسِية الوُسْطَوية، الفصل العاشر، الحاشية 6.
2. في ف. جوبير دى پاسّا، المصدر السّالف الذّكر، ص 165.
3. انظر في الفصل الأول النّص الذي يستدعي الحاشية الثّالثة.
4. ت. ف. غليك، المصدر السّالف الذّكر، ص 295–296.
5. ت. ف. غليك، المعنى الأثري للمؤسّسات الهيدروليكية: الرّي البربري والرّي الإسپاني، محاضر أيام الثّقافة الإسلامية 2، I.O.C.I.، ص 169.
6. ت. ف. غليك، مسيحيون ومسلمون في إسپانيا الوُسْطَوية، (711–1250)، ص 94.
7. في مصانع هيدروليكية إسپانية، لـ إ. غونثالِث تاسكون، ص 37.
8. ابن حيّان، كتاب المقتبِس، ترجمة إ. غارثيّا غوميث، («التاريخ البلاطي للخليفة الحَكَم الثّاني عن عيسى ابن أحمد الرّازي»)، ص 77–78.
9. الحِمْيَري، كتاب الرّوض المعطار، ترجمة م. پ. مايسترو، ص 344–345.
10. تورِّيس بالباس ل.، «ناعورة أبو العافية القُرطُبية La Albolafia»، الأندلس 7، ص 463.
11. الإدريسي، وصف الإدريسي لأفريقيا وإسپانيا، نشرة دوزي ودي خويِّه، ص 187.
12. تاريخ المسلم الرّازي، نشرة د. كاتالان و م. س. أندريس، الفصل الثّاني.
13. في هـ. پيريس، المصدر السّالف الذّكر، ص 210.
14. في «النواعير النّهرية بإسپانيا» لتورِّيس بالباس. الأندلس 5، ص 197–198.

الفصل الثّامن

1. م. أسين پالاثيوس، أسماء الأماكن العربية بإسپانيا، ص 26–112.
2. إ. تيريس، موارد لدراسة أسماء الأماكن الإسپانية – العربية. قائمة الأنهار، ص 472–473.
3. ت. ف. غليك، الرّي والمجتمع في بَلَنْسِية الوُسْطَويّة، ص 323–324.

الفصل التّاسع

1. ابن ليون، كتاب الفلاحة، ترجمة خ. إغواراس، ص 178–179.
2. ابن خلدون، المقدّمة، إصدار وترجمة إ. طرابلسي، ص 919.
3. إ. غارثيّا سانتشيث و خ. إ. إرنانديث برميخو، «شخصية ابن العَوَّام ومعنى مصنّفه كتاب الفلاحة داخل المدرسة الزّراعية الأندلسية»، في دراسة تمهيدية لـ كتاب الفلاحة لابن العَوَّام، الجزء 1، نشرة ماپا الأصلية، 1988، ص 16.
4. كونت كامپومانيس، مدخل لـ كتاب الفلاحة، لمؤَلفه العلّامة العظيم أبو زكريّا يحيى، ترجمة خ. أ. بانكيري، 1802. الجزء الأول، النّشرة الأصلية، ماپا، 1988، ص 2.
5. في ازدهار الأندلس، لـ هـ. پيريس، ص 198.
6. ابن عبدون، رسالة... («إشبيلية المسلمة في أوائل القرن الثّاني عشر. رسالة ابن عبدون»، ترجمة إ. غارثيّا غوميث، الفقرة 116).
7. الشّقندي، فضل الأندلس، ترجمة إ. غارثيّا غوميث، ص 96.

الفصل العاشر

1. ابن خَفَاجة، ديوان، طبعة بولاق، 72، في ازدهار الأندلس، لـ هـ. پيريس، ص 122.
2. ل. تورّيس بالباس، مدن إسپانية – عربية، ص 134.
3. ابن ليون، المصدر السّالف الذّكر، ص 254.
4. إ. غارثيّا غوميث، خـمسة شعراء مسلمين، ص 70.
5. هـ. مُنْتَسَر، المصدر السّالف الذّكر، ص 105–107.
6. أ. ناڤادجيرو، المصدر السّالف الذّكر، ص 56–57.
7. ل. تورّيس بالباس، مدن إسپانية – عربية، ص، الإصدار الثّاني، ص 135.
8. في المَقَّري، نفح الطّيب، في إسپانيا المسلمة، لـ ك. سانتشيث ألبورنوث، ص 339.
9. أ. ناڤادجيرو، المصدر السّالف الذّكر، ص 25–26.
10. أ. ناڤادجيرو، المصدر السّالف الذّكر، ص 50.
11. المَقَّري (نفح الطّيب) مقتطفات أدبية 1، ص 98، 109 و344. في ازدهار الأندلس لـ هـ. پيريس، ترجمة م. غارثيّا أرينال، ص 133 و139.
12. «كتاب الرّسائل». پييترو مارتيرِه، طبعة أمستردام 1670، ص 54، التّرجمة الإسپانية لـ خ. باليرا، في أ. ف. شاك، الشّعر والفن لدى العرب في إسپانيا وصقلية، 3، ص 170–172.

بيبليوغرافيا

- عبد الله بن بُلقين بن باديس:
التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، ترجمه إلى الفرنسية ليڤي پروڤنسال (1956)، وإلى الإسپانية إ. ڠارثيّا ڠوميث، القرن الحادي عشر بصيغة المتكلم. مذكرات عبد الله، آخر الملوك الزّيريين بغرناطة، المخلوع من قِبَل المرابطين (1090 م)، «أليانثا تريس» للنّشر، مدريد، 1981.
- عبد الباسط خليل بن شاهين:
الرّوض الباسم في حوادث العمر والتّراجم، نشرة ل. دِلّا بيدا، الأندلس 1 (1933).
- أبو الخير الإشبيلي:
عُمدة الطّبيب في معرفة النّبات لكل لبيب، الإصدار والتّحقيق والتّرجمة إلى الإسپانية لـ خ. بوستامانتِه، وف. كورييْنتِه وم. تيلماتينِه، المجلس الأعلى للبحوث العلمية CSIC، مدريد، 2004-2010.
- الإدريسي:
وصف الإدريسي لأفريقيا وإسپانيا، إصدار وترجمة ر. دوزي وم. ج. خويِّه، لايدن، 1968 (طبعة جديدة).
- جغرافية إسپانيا، التّرجمة الإسپانية لـ إ. بِلاثكيث وإ. سابيدرا، نصوص وُسْطَوية، 37، بَلَنْسِية، 1974.
- الكرجي، أبو بكر محمّد ابن حسن:
كتاب إنباط المياه الخفيّة، (حضارة المياه الخفية. مصنّف لاستنباط المياه الجوفية)، التّرجمة إلى الفرنسية لـ ع. مزاهري، نيس، 1973.
- ألماغرو كارديناس، أ.:
دراسة حول النّقوش العربية بغرناطة، غرناطة، 1879.
- المَقّري:
نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، 10 أجزاء، القاهرة 1949.
- مقتطفات أدبية حول تاريخ وأدب العرب الإسپان، التّحقيق والتّرجمة إلى الفرنسية لـ ر. پروڤنسال وآخرين، لايدن، 1855-1861.
- المُدَينة:
تاريخ الأراضي السّقوية بإسپانيا، مايا (إيريدا)، مدريد، 1991.
- ألونسو، م.:
تاريخ الأدب العالمي، الجزء 2، إيداف، مدريد، 1969.
- ألونسو دي إرِّيرا، غ.:
الفلاحة العامة، إصدار نقدي لـ إ. تيرُّون، سلسلة «كلاسيكوس»، مايا، مدريد، 1981.
- الرّازي، عيسى ابن أحمد:
التّاريخ الإخباري المسمّى بتاريخ المُسلم الرّازي، إصدار نقدي لـ د. كاتالان، وم. س. أندريس وآخرين، إصدار «حلقة منينديث پيدال»، مدريد، 1975.
- الشَّقندي:
فضل الأندلس، التّرجمة الإسپانية لـ إ. ڠارثيّا ڠوميث، مدريد - غرناطة، 1934.
- السَّقَطي الملكي:
دليل إسپاني للحِسْبَة، نص عربي. التّقديم والتّحقيق والمسرد لـ ج. س. كولين وإ. ليڤي پروڤنسال، پاريس، 1931.
- العُذري، أحمد بن عمر:
نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، إصدار نقدي لعبد العزيز الأهواني، مدريد، 1955 (التّرجمة الإسپانية لـ ف. دي لا ڠرانخا، الثّغر الأعلى في مصنف العذري، سَرَقُسطة، 1967).
- آنغولو إنيبيغيث، د.:
تاريخ الفن، الجزء الأول، الإصدار 3، مدريد، 1972.
- أرييه، ر.:
إسپانيا المسلمة (من القرن الثّامن إلى الخامس عشر)، التّرجمة الإسپانية لـ ب. خوليا، الجزء 3، تاريخ إسپانيا، بإشراف من م. تونيون دي لارا، لابور للنّشر، برشلونة، 1984.
- أرخونا كاسترو، أ. (محقق ومترجم):
- تاريخ قُرطُبة المسلمة، (711-1008)، قُرطُبة، 1982.

- أسين پالاثيوس، م.:
  - إسهام في أسماء الأماكن العربية بإسپانيا، الإصدار 2، مدريد – غرناطة، 1944.
  - حياة الأولياء الأندلسيين. «رسالة القُدُس»، لابن عربي المرسي، إيبيريون، مدريد، 1981.
- أثنار دي پولانكا، خ. ك.:
  الحساب البسيط والهندسة التّطبيقية والتّأملية؛ مصدر منابع المياه العذبة والعسِرة انطلاقاً من بلدة مدريد المتوّجة، مدريد، 1727.
- بارثيلو، م. وكاربونيرو غاموندي، م. أ.:
  «طبوغرافيا وتصنيف قنوات جزيرة ميورقة» محاضر المؤتمر الأول للآثار الوُسْطَوية الإسپانية، أويسكة، ص 599–615، د. خ. أ. للنّشر، 17–19، أبريل، 1985.
- بازانا، أ. وآخرون:
  «الهيدروليكية الفلاحية في إسپانيا الوُسْطَوية»، الماء والنّاس في المتوسّط، CNRS، پاريس، ص 43–66، 1987.
- بنحمادة، سعيد:
  الماء والإنسان في الأندلس، بيروت، 2007.
- بيلاثكيث، خ. م.:
  «إدارة الماء في هِسپانيا الرّومانية»، سيغوبيا والآثار الرّومانية، إصدار جامعة برشلونة، 1977.
- بـُرُّول إي بيلانوبا، ف. خ:
  خطاب حول توزيع مياه ال«توريا» وواجب الحفاظ على محكمة السّقاية ببَلَنْسِية، ألقاه السّيد فرانثيسكو خابير بورُّول إي بيلانوبا، مندوب عن مملكة بَلَنْسِية في جلسة 31 من يوليوز 1813، فيما يسمّى بالمجالس العامة والاستثنائية، بَلَنْسِية، 1828.
- بتزَر، ك. وآخرون:
  «نُظم الرّي الفلاحي في شرق إسپانيا؛ أصول رومانية أم إسلامية؟»، حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين، 75، ص 479–509، 1985.
- برون، ج.:
  الرّيّ. ظروفه الجغرافية، طرقه وتنظيمه في شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال أفريقيا. ماسون، 1904.
- كارو باروخا، خ.:
  - «نواعير، سدود، سَوَانٍ»، مسار. عن اللهجات والعادات الشّعبية 10، ص 29–160، 1954.
  - التقنيات الشّعبية الإسپانية، إديتورا ناثيونال، مدريد، 1983.
  - «عن التّقييم التّاريخي – الثّقافي لما هو مُسلم وموريسكي في إسپانيا»، الأندلس، ثمانية قرون من التّاريخ، طُلَيطُلة، 1987، IOCI («الفضيلة» للنّشر)، مدريد، ص 37–42، 1989.
  - «أراضٍ سقوية وقرابات عصبية»، أراغون تعيش تاريخها، الأيام الدّولية الثّانية للثّقافة الإسلامية، ترويل، 1988، المعهد الغربي للثّقافة الإسلامية («الفضيلة» للنّشر)، مدريد، ص 161–164، 1990.
- كاري، م.:
  الخلفية الجغرافية للتّاريخ اليوناني والرّوماني، أوكسفورد، كلارِندون پريس، 1949.
- كاسالْس، ر.:
  «اعتبارات حول بعض التّقنيات العربية»، القنطرة 3، ص 333–345، 1982.
- كاسامار، م. وكوخيل ش.:
  إسپانيا العربية. إرث جنّة. كاسارييغو للنّشر، مدريد، 1990.
- فهرس معرض الإرث العلمي الأندلسي، المتحف الأثري الوطني، مدريد، أبريل – يونيو، 1992. تحت الإدارة العامة للفنون الجميلة (وزارة الثّقافة) – إيكما (وزارة الشّؤون الخارجية).
- كولين، ج. س.:
  «الناعورة المغربية والآلات الهيدروليكية في العالم العربي»، هِسپيريس، 14، ص 22–60، 1932.
- كولوميلا، خ. ت. م.:
  عن أعمال الحقل، التّحقيق والدّراسة التّمهيدية لـ أ. خ. أولغادو، من سلسلة «كلاسيكيات زراعيّة»، ماپا، إصدار مشترك مع «سيغلو 21»، مدريد، 1988.
- دفاتر الحمراء:
  العدد 43 (2008)، مجلس الحمراء وجنّة العريف، غرناطة، 2008.
- تشالميتا، ب.:
  صاحب السّوق في إسپانيا، المعهد الإسپاني- العربي للثّقافة، مدريد، 1973.
- شريف جاه، ع.:
  - «الإسلام في إسپانيا»، أديان العالم، بيرتِلْسمان ليكسيكون للنّشر، ميونيخ، 1992.

- «العلاقة بين الحضارة الإسلامية والثّقافة الأوروبية»، إسهام الحضارة الإسلامية في الثّقافة الأوروبية، مجلس أوروبا، ستراسبورغ، 1992.
- عطور الأندلس، أليانثا إديتوريال، مدريد، 2001.

– دِلغادو باليرو، ك.:

طُلَيطُلة الإسلامية: مدينة، فن وتاريخ، طُلَيطُلة، 1987.

– دييث غونثالِث، ف. أ.:

إسبانيا السّقوية ومؤسّساتها الأساسية، F.N.C.R.، إيكا للنّشر، مدريد، 1992.

– القرآن الكريم:

إصدار أعدَّه وترجمه إلى الإسپانية خ. كورتيس، إديتورا ناثيونال، مدريد، 1979.

– إليشپورو، إ. وسيرَّانو، م.:

الأندلس، سحر وإغراء المطبخ، المعهد الغربي للثّقافة الإسلامية، «الفضيلة» للنّشر، مدريد، 1991.

– إليشپورو، إ.

المطبخ الأندلسي، أليانثا إديتوريال، 1993.

– إيڤيرت، ش.:

«مسجد قُرطُبة»، الأندلس، ثمانية قرون من التّاريخ، طُلَيطُلة، 1987، IOCI، «الفضيلة» للنّشر، مدريد، ص 105–118، 1989.

– فرنانديث كاسادو، ك.

الهندسة الهيدروليكية الرّومانية، سلسلة «هندسة الطّرق، والقنوات والموانئ»، مدريد، 1983.

– فرنانديث أُردونييث، خ. أ. وآخرون:

- فهرس لتسعين خزّاناً وسدّاً إسپانياً ما قبل 1900، CEHOPU، مدريد، 1984.
- فهرس لثلاثين قناة إسپانية ما قبل 1900، CEHOPU، سلسلة «هندسة الطّرق، والقنوات والموانئ»، مدريد، 1986.

– غارثيّا غوميث، إ.:

- «حول الزّراعة العربية – الأندلسية»، الأندلس 10، ص 127–146، 1941.
- خمسة شعراء مسلمين، سلسلة «أوسترال»، مدريد، 1959.
- أشعار عربية على جدران ونوافير الحمراء، المعهد المصري للدّراسات الإسلامية، مدريد، 1985.
- بؤرة ضوء قديمة على الحمراء، المعهد المصري للدّراسات الإسلامية، مدريد، 1988.

– غارثيّا سانتشيث، إ.:

- «زراعات الأندلس وأثرها في التّغذية»، محاضر الأيام الدّولية الثّانية للثّقافة الإسلامية، ترويل، 22–25 سبتمبر 1988، I.O.C.I، «الفضيلة» للنّشر، مدريد، ص 183–192، 1990.
- علوم الطّبيعة بالأندلس، الجزء 2، إصدار المجلس الأعلى للبحوث العلمية CSIC، ومدرسة الدّراسات العربية، غرناطة، 1990.

– غارثيّا سانتشيث، إ. وإرنانديث بِرميخو، خ. إ.:

- «شخصية ابن العَوَّام ومعنى مصنفه كتاب الفلاحة داخل المدرسة الزّراعية الأندلسية»، دراسة تمهيدية في كتاب الفلاحة لابن العَوَّام، ترجمة خ. أ. بانكيري، 1802، النّشرة الأصلية، ماپا، مدريد، 1988.
- «ابن العَوَّام أبو زكريّا»، في معجم المؤلفين والمؤلَّفات الأندلسية، 1، مؤسّسة التّراث الأندلسي، غرناطة، ص 528–532، 2002.

– غارولو، ت.:

«أسماء الأماكن الإسپانية – العربية، الصّهريج»، القنطرة 1، ص 27–41، 1980.

– غايّانو يوتش:

مواثيق بَلَنْسِية. تصنيف تاريخي للقوانين التّنظيمية لهذه المملكة، بَلَنْسِية، 1930.

– خيل أولثينا، أ. وموراليس خيل، أ. (منسق):

معالم تاريخية لمناطق الرّي الإسپانية، سلسلة «دراسات»، ماپا، مدريد، 1992.

– غليك، ت. ف.:

- الري والمجتمع في بَلَنْسِية الوُسْطَوية، التّرجمة الإسپانية لـ أ. ألمور، «دِل ثينيا أل سيغورا» للنّشر، بَلَنْسِية، 1988.
- «المعنى الأثري للمؤسّسات الهيدروليكية: الرّيّ البربري والرّيّ الإسپاني، محاضر أيام الثّقافة الإسلامية الثّانية، I.O.C.I.، أراغون تعيش تاريخها، ترويل، 22–25 سبتمبر 1988، IOCI، «الفضيلة» للنّشر، مدريد، ص 165–171، 1990.
- مسيحيون ومسلمون في إسپانيا الوُسْطَوية، (711–1250)، النّشرة الإسپانية لـ پ. أغيرِّه، م. ل. لوپيث وب. ناباررُّو، أليانثا أونيبيرسيداد،

مدريد، 1991.

- غوبلو، هـ.:
القنوات. تقنية لتحصيل الماء، مدرسة الدّراسات العليا في العلوم الاجتماعية، موتون للنّشر، باريس، 1979.
- غوميث مورينو، م.:
دليل غرناطة، غرناطة، 1892.
- غونثاليث پالينثيا، أ.
تعليقات حول نظم الرّي في منطقة «برويلا» في القرنين الثّاني والثّالث عشر»، الأندلس 10، ص 79–88، 1945.
- غونثاليث تاسكون، إ.: في مصانع هيدروليكية إسپانية، مكتبة CEHOPU، مدريد، 1987.
- غرابار، أُ. The Alhambra (العنوان الأصلي). الحمراء: رموز، أشكال وقيم، ترجمة خ. ل. لوپيث مونيوث، أليانثا فورما، (الإصدار4)، مدريد، 1988.
- إرنانديث، ف.:
«طاحونة أبو العافية Albolafia»، المُلك، 2 (1961–1962)، معهد الدّراسات الخليفية.
- هيل، د. ر.:
  - كتاب الجامع بين العلم والعمل النّافع في صناعة الحيل لابن الرّزاز الجزري، دوردريخت، 1974.
  - «رسالة عن الآلات لابن معاذ أبو عبد الله الجياني» في مجلة تاريخ العلم العربي 1، ص 33–44، 1977.
  - السّاعات المائية العربية، معهد التّراث العلمي العربي، حلب، ص 36–46، 1981.
  - «التّقنيات الأندلسية»، الإرث العلمي الأندلسي، المتحف الأثري الوطني، أبريل – يونيو 1992، مدريد، ص 157–186، 1992.
- ابن العَوَّام، أبو زكريّا يحيى:
«كتاب الفلاحة، لصاحبه العلّامة الكبير أبي زكريّا يحيى»، التّرجمة والتّعليق باللغة الإسپانية لخوسيه أنطونيو بانكيري، الجزء 1–2، سنة 1802)، النّشرة الأصلية، بدراسة تمهيدية وتعليقات: إ. غارثيّا سانتشيث وخ. إ. إرنانديث بِرميخو، كلاسيكيات زراعية، وزارة الزّراعة، والصّيد والتّغذية، مدريد، 1988.
- ابن عبد المنعم الحِمْيَري:
  - كتاب الرّوضِ المعطار في خبر الأقطار، تحقيق وترجمة إ. ليڤي پروڤنسال، لايدن، 1938.
  - كتاب الرّوض المعطار، التّرجمة الإسپانية لـ م. پ. ماييسترو، نصوص وُسْطَوية 10، بَلَنْسِية، 1963.
- ابن عبدون:
إشبيلية في أوائل القرن الثّاني عشر، تحقيق وترجمة إ. ليڤي پروڤنسال وإ. غارثيّا غوميث، إشبيلية، 1981.
- ابن الخطيب، م.:
  - كتاب الوصول لحفظ الصّحّة في الفصول أو «كتاب الصّحّة»، التّرجمة إلى الإسپانية لـ م. ك. باثكيث دي بِنيتو، دار نشر جامعة سلامانكا، سلامنكا، 1984.
  - الإحاطة في تاريخ غرناطة، المخطوطان 4891 و4892، المكتبة الوطنية بمدريد.
- ابن حوقل:
كتاب المسالك والممالك، التّرجمة الإسپانية لـ م. خ. روماني سواي، نصوص وُسْطَوية 26، بَلَنْسِية، 1971.
- ابن حيّان:
المقتبِس («التّاريخ البلاطي للخليفة الحَكَم الثّاني» لعيسى ابن أحمد الرّازي)، التّرجمة الإسپانية إ. غارثيّا غوميث، مدريد، 1967.
- ابن حَزم، أبو محمّد علي:
كتاب طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف، التّرجمة الإسپانية لـ إ. غارثيّا غوميث، "El collar de la paloma"، أليانثا إديتوريال، مدريد، 1979.
- ابن عِذاري:
البيان المُغرب. مقتطفات مرابطية وموحِّدية جديدة، التّرجمة إلى الإسپانية والتّعليق لـ أ. أويثي ميراندا، نصوص وُسْطَوية 8، بَلَنْسِية، 1963.
- ابن خلدون، م.
  - المقدّمة، التّرجمة الإسپانية، إ. طرابلسي، المكسيك، 1977.
  - كتاب العِبَر، طبعة بولاق، 1867.
- ابن ليون:
كتاب الفلاحة، التّحقيق والتّرجمة إلى الإسپانية لـ خ. إغواراس إبانييث، غرناطة، 1975.
- ابن رُشد، م.:
تلخيصات لجالينوس، التّرجمة الإسپانية لـ م. ك. باثكيث دي بِنيتو، المعهد الجامعي لثامورا، سلامانكا، 1987.
- ابن سعيد:

رايات المبرّزين، التّحقيق والتّرجمة الإسبانية لـ إ. غارثيّا غوميث (الإصدار الثّاني)، مدريد، 1978.

- I.O.C.I (تنسيق م. لوبيث): «التّقنية الهيدروليكية في الأندلس». معرض للفن، والتّقنية والأدب الإسباني – الإسلامي، الأيام الدّولية الثّانية للثّقافة الإسلامية، ترويل، 1988 («الفضيلة» للنّشر)، مدريد، 1988.
- جوبير پاسَّا، ف. قنوات الرّي في كتالونيا ومملكة بَلَنْسِية. القوانين والأعراف التي تحكمها: النّظم والأحكام الأساسية لأهم السّواقي، التّرجمة الإسبانية لـ ف. فيول، جزآن. بَلَنْسِية 1844. النّشرة الأصلية. إصدار أعده وقدّم له خ. روميرو وخ. ف. ماتيو، كلاسيكيات زراعية، مايا– جامعة بَلَنْسِية، بَلَنْسِية، 1991.
- كوڤاليوف، س. إ.: تاريخ روما، الجزآن الأول والثّاني، التّرجمة الإسبانية لـ م. راڤوني، سلسلة أكال 74، مدريد، 1975.
- لافوينتِه إي ألكانترا، إ.: النقوش العربية لغرناطة، مدريد، 1859.
- القرآن الكريم: إصدار عربي – فرنسي، أعده وترجمه إلى الفرنسية س. مازيغ، إصدارات جاغوار، پاريس، 1985.
- ليڤي پروڤنسال، إ. إشبيلية المسلمة في بداية القرن الثّاني عشر: رسالة ابن عبدون، ج. پ. ميزونّوف، پاريس، 1947.
- «وصف أحمد الرّازي لإسپانيا»، الأندلس 18، ص 51–108، 1953.
- إسپانيا المسلمة. إلى غاية سقوط الخلافة بقُرطُبة (711–1031 م)، التّرجمة الإسپانية لغارثيّا غوميث، الجزء الرّابع والخامس من تاريخ إسپانيا، تحت إدارة ر. منينديث پيدال، إسپاسا كالپِه، الإصدار 7، مدريد، 1990.
- ليوزو، ج. غ.: «أحد جوانب «الاسترداد» في سهل الإيبرو خلال القرن الحادي عشر والثّالث عشر. الزّراعة السّقوية والإرث الإسلامي»، هِسپيريس تامودة 5، ص 5–13، 1964.
- لوپيث غوميث، م.:
  - «تاريخ العلاقات الدّولية في الإسلام»، الأندلس، ثمانية قرون من التّاريخ، محاضر الأيام الأولى للثّقافة الإسلامية، طُلَيطُلة، 1987. المعهد الغربي للثّقافة الإسلامية، «الفضيلة» للنّشر، 1989.
  - «الحضارة الإسلامية في الأندلس: تقييم أخير»، في تراث مسلمي إسپانيا، تحقيق سلمى خ. الجيوّسي، طبعة إ. ج. بريل، لايدن، 1992.
- لوپيث لوپيث، آنخيل كوستوديو: «ابن البَصَّال، أبو عبد الله» في مكتبة الأندلس، 2، مؤسّسة ابن طُفيل، ألمِريَّة، ص 565–573، 2009.
- مارسيه، و. «الإسلام والحياة المدنية»، محاضر أكاديمية النّحت والفنون الجميلة، پاريس، ص 83–100، 1923.
- مينيديث پيدال، ر.: المدوَّنة الأولى لتاريخ إسپانيا العام، مدريد، 1935.
- ميّاس باڀيكروسا، خ. م.
  - «التّرجمة الإسپانية لـ كتاب الفلاحة لابن البصّال»، الأندلس 13، ص 347–430، 1948.
  - «حول المراجع الزّراعية الإسپانية– العربية»، الأندلس 19، ص 129–142، 1954.
- مُنْتْسَر، هـ.: «رحلة إلى إسپانيا والپُرتُغال» (العنوان الأصلي: Itinerarum Hispanicum، 1494–1495)، پوليفيمو للنّشر، مدريد، 1991.
- ناڤادجيرو، أ.: رحلة حول إسپانيا (1524–1526)، التّرجمة الإسپانية لـ أ. م. فابري، تُرنر للنّشر، مدريد، 1983.
- نيكل، أ. ر.: «النّقوش العربية في قصر الحمراء»، الأندلس 4، 1936.
- أوليڤير أسين، خ.:
  - تاريخ اسم مدريد، الإصدار 2، إيكما ICMA، مدريد، 1991.
  - نقاط أساسية لتاريخ الصّناعات المدريدية، منذ تأسيس البلدة إلى غاية 1400، الغرفة الصّناعية، مدريد، 1953.
  - «حول أصول قشتالة: أسماء الأماكن بها وعلاقتها بالعرب والبربر»، الأندلس

38، ص 319–339، 1973.

- پيريس، هـ.
ازدهار الأندلس، التّرجمة الإسپانية لـ م. غارثيّا أرينال، إيپيريون، مدريد، 1983.

- پوكلينغتون، ر.:
  - «حول بعض أسماء الأماكن العربية المُرسيّة»، القنطرة 3، مجلة الدّراسات العربية، المجلس الأعلى للبحوث العلمية، مدريد، 1982.
  - دراسات متعلّقة بأسماء الأماكن حول أصول مُرْسِيَة، أكاديمية ألفونسو العاشر الحكيم، مُرْسِيَة، 1990.

- ريبيرا، خ.:
«نظام الرّي في الأراضي البستانية البَلَنْسِيّة ليس إنجازاً للعرب»، في تقويم «الأقاليم» 1908، (الإصدار الأول). في أطروحات ومقالات 2، (الإصدار الثّاني)، مدريد، ص 39–313، 1922.

- روبيرا، م. خ.
العمارة في الأدب العربي، إديتورا ناثيونال، مدريد، 1981.

- سان إيسيدرو الإشبيلي:
أصول، إصدار ثنائي اللغة لـ أوروث ريتا وم. أ. ماركوس كاسكيرو، الجزء 2، باك B.A.C.، مدريد، 1982.

- سانتشيث ألبورنوث، ك.:
إسپانيا المسلمة، الجزء 1 و2، الإصدار الأول، بوينوس آيريس، 1946.

- شاك، أ. ف.:
الشّعر والفنّ لدى العرب في إسپانيا وصقلية، التّرجمة الإسپانية لـ خ. باليرا، إشبيلية، 1881.

- سامسو، خ.:
«ابن هشام اللَّخمي وأول حديقة نباتية في الأندلس»، المجلة المصريّة للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 21، ص 135–141، 1981–1982.

- تيريس، إ.:
موارد لدراسة أسماء الأماكن الإسپانية – العربية. قائمة الأنهار، المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، مدريد، 1986.

- التّغنري، محمّد بن مالك:
كتاب زُهرة البستان ونزهة الأذهان، تحقيق وتقديم إكسبيراثيون غارثيّا سانتشيث، المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، مدريد، 2006.

- تورّيس بالباس، ل.:
  - «النّواعير النّهرية في إسپانيا»، الأندلس 5، ص 195–208، 1940.
  - الحمراء وجنّة العريف بغرناطة، مدريد، 1953.
  - المدن الإسپانية – الإسلامية، المعهد الإسپاني – العربي للثّقافة، الإصدار الثّاني، مدريد، 1985.

- تورّيس فونتيس، خ.:
  - توزيع الأراضي البستانية وحقول مُرْسِيَة في القرن الثّالث عشر، أكاديمية ألفونسو العاشر الحكيم، المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، مُرْسِيَة، 1971.
  - الأراضي السّقوية المُرسيّة في النّصف الأول من القرن الرّابع عشر، أكاديمية ألفونسو العاشر الحكيم، مُرْسِيَة، 1975.

- بالبي، خ.:
  - «وصف سَبْتَة الإسلامية في القرن الخامس عشر»، الأندلس 27، ص 398–442، 1962.
  - «كورة تُدمير. التّقسيم الإقليمي لإسپانيا المسلمة» 2، الأندلس 37، ص 145–182، 1972.
  - «الفلاحة في الأندلس»، القنطرة 3، مجلة الدّراسات العربية،، المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، معهد «أسين پالاثيوس»، مدريد، ص 262–442، 1982.
  - التّقسيم الإقليمي لإسپانيا المسلمة، المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، مدريد، 1986.

- بِرنيت خ. وكاتالا، أ.:
«مهندس عربي في القرن الحادي عشر: الكرجي»، الأندلس 35، ص 69–91، 1970.

- بِرنيت، خ. كاتالا، أ. وبيّويندَاس، م. ب.:
«الفصل الأول من كتاب أسرار نتائج الأفكار»، مجلة أوراق 5–6، ص 7–18، 1982–1983.

- بِرنيت خ.:
  - «أسماء الأماكن العربية»، الموسوعة اللغوية الإسپانية 1. الأصول وأسماء العَلَم. المجلس الأعلى للبحوث العلمية C.S.I.C.، ص 561–578، 1960.
  - «نصّ عربي من بلاط ألفونسو العاشر الحكيم؛ رسالة في الآلات»، الأندلس

43، ص 405–421، 1978.

- العلم في الأندلس، مكتبة الثّقافة الأندلسية، برشلونة، 1986.

– بيّويندداس، م. ب.:
«التّقنيات»، تاريخ العلم العربي، الأكاديمية الملكية للعلوم الدّقيقة والطّبيعية، مدريد، ص 185–199، 1981.

– ڤيتروڤيوس پوليون، م.:
عن العمارة، تحقيق ميغيل أورّيا، 1582، الإصدار الحديث، ألباتروس، بَلَنْسِية، 1978.

– ثوثايا، خ.:
«ملاحظات حول الاتّصالات في الأندلس الأمويّة»، الآثار الوُسْطَوية الإسپانية، المؤتمر الثّاني، مدريد، 19–24 يناير، الجزء 1، ص 220–228، 1987.